2472
.664

2472.664
Fādil
Thawrat al-Khayyām

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 076318763

لجنة التأليف والترجمة والنشر

عبد الحق فاضل

ثورة الخيام

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥١

لجنة التأليف والترجمة والنشر

عبد الحق فاضل

Fāḍil, ʿAbd al-Ḥaqq

Thawrat al-Khayyām

ثورة الخيام

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥١

[الحقوق محفوظة المؤلف]

الإهداء

حُلْوَتى ! أنتِ حياتى ، أنتِ أرضى وسمائى !
قد دخلنا جنّـــــةَ الحُبِّ برغم الخفراء !
ونهلنا من أفاويق شقـــــاء وهناء !
فهل اُستعذبتِ يا ليـلايَ حُبَّ الشعراء ؟ !

قد تزوّجنا زواجَ الرُّوح فى دنيا الترابِ
عَقَدَ الحبُّ لنا العهـــدَ على شرعٍ عُجَابِ
فإليكِ الآن أُهـدى ، يا منى النفس ، كتابى
وهو ذِكرٌ ، وهو شكرٌ عن نعيمى وعذابى !

عبد الحق

2472
.664

تقديم

بقلم العلامة الجليل

الدكتور أحمد أمين بك

عُرِض على « لجنة التأليف والترجمة والنشر » طبع كتاب « ثورة الخيام » للأستاذ عبد الحق فاضل ، وقد قرأته واستحسنت نظمه . ورباعيات الخيام غنية عن التعريف فقد ترجمت إلى لغات كثيرة ، بعضها ترجمات حرفية و بعضها ترجمات استوحى فيها المترجمون روح الخيام ولم يتقيدوا بمعناه ، كما فعل فتز جرالد . وقد أقبل عليها المعاصرون إقبالاً كبيراً لأنها تتفق وروح العصر من حيث الملل من الحياة والاستعانة على هذا الملل بالانغماس فى اللذات . وقديماً سلك الناس مسلكين متناقضين لمحاربة هذا الملل ، أحدهما الزهد فيها كما فعل أبو العتاهية وأبو العلاء ، والثانى الانغماس فى لذاتها كما فعل أبو نواس والخيام . وقد ترجمت هذه

الرباعيات إلى اللغة العربية مراراً وتقبلها الناس قبولا حسناً ، لما فيها من شذوذ أحيانا ودعوة إلى الإمعان فى اللذة أحيانا . وأنا لا أوافقه على هذه الدعوة ولا على هذا الشذوذ لأنه كما قال الفيلسوف كُنْتْ « إذا أردت أن تعرف شيئاً أصحيح هو أم فاسد فعممه » ، ونحن لو عممنا هذا المسلك لكان الناس كلهم إباحيين متلذذين بوهيميين لا يأبهون لشىء إلا الخمر والنساء ، ولو تصورنا مجتمعاً هذا شأنه لكان مجتمعاً منحطا يسرع إليه الفناء . فكل مجتمع إنما يبقى بتحمل أعبائه وبمقدار ما فيه من حياة الجد مشوبة بقليل من اللذائذ ، لا بحياة لذيذة ليس فيها شىء من الجد . على أنه هو نفسه قد يكون أدرك هذا المعنى فلم يحيَ الحياة التى دعا إليها بل كان فقيهاً عالماً بالرياضيات مخترعاً فيها ، وهذا كله جد لا لهو . والمؤمن إيماناً تاماً بدعوته ليس أقل من أن يسير عليها هو نفسه ، أما أن يكون عمله فى جانب ودعوته فى جانب فإن دلّ على شىء فإنما يدل على عدم الإخلاص التام فى أحدهما .

لقد وقفنا كثيراً عند مهاجمته للدين وللسماء ولعله فى ذلك مقلد لأبى العلاء المعرى فى لزومياته ، ولكنا اعتدنا أن نسمع من مشايخنا قولهم : « ناقل الكفر ليس بكافر » ، واعتقدنا أن

هذه النزعات سواء من الخيام أو من أبى العلاء لا تحدث إلا فورة وقتية لا تلبث أن تزول ، وأنهما إن كفر لسانهما أحياناً فإن قلبهما لا يفارقه الإيمان ، كالذى قيل عن « هيجل » الفيلسوف الألمانى الشهير أنه كفر عقله وآمن قلبه . ونحن فى حياتنا اليومية المشاهَدَة كثيراً ما نرى أفراداً ممتازين يؤمنون كل الإيمان ولكن قد تحدث لهم فورة وقتية بسبب حدوث كارثة فظيعة لهم أو نزول مصيبة فادحة فى أموالهم أو أنفسهم أو نحو ذلك فيجانبهم الإيمان فى تلك اللحظة ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى إيمانهم . فلعل الخيام كان من هذا القبيل ، وجد الحياة كلها بؤساً وغما ، ووجد الناس كالكلاب ينهش بعضهم بعضاً ، ووجد عاقلا بائساً وأحمق غنياً ، فلم يجد مخرجاً له إلا الزندقة أحياناً ثم تهدأ ثورته فيعود إلى دينه . لقد صدق عمرو بن العاص إذ قال : « ليس العاقل من لم يعرف الشر من الخير ، إنما العاقل من عرف الخير والشر ، ثم تجنب الشر » . فلا بأس أن يُعرَض على أنظارنا خير وشرّ ، بل لا بأس أن يعرض على أنظارنا خير كثير وشر كثير ، فنفعل الخير عن علم ونتجنب الشر عن علم .

على هذا الأساس أقدمنا على طبع هذا الكتاب لنضع بين يدي القارئ خيراً كثيراً وشراً كثيراً ، ثم يأخذ كلٌّ ما يرشده

إليه عقله وطبيعته كما يأخذ الحنظل والورد ، فكلٌّ يجد فى الأرض غذاءه الصالح له . فنشر رباعيات الخيام على وضعها هذا خدمة للمجتمع ، وخدمة للتاريخ ، وخدمة للأدب العربى . ولناقلها على هذا الوضع أيضا الشكر الجزيل ، فليس يعرف ما لاقى من عناء إلا من حاول أن ينقل الشعر من لغة إلى لغة ، مجتهداً أن يحافظ على معانى المنقول منها إلى المنقول إليها ، وعلى روحها وحسن وقعها وتنغيمها . فالله يجزل أجره ويُعْظِم مثوبته .

١٩٥١/١٠/٢٩ أحمد أمين

مقدمة الطبعة الفارسية

مترجمة عن كلمة

للعالم المحقق الإيرانى

آقاى سعيد نفيسى

مهما بلغ امرؤٌ مثلى من إنكار القضاء والقدر ، وعدَّ كلَّ أمرٍ نتيجةً للهمة والتوثب ، فهو يجد بين حين وحين نماذجَ عجيبةً تجعله يجنح إلى الحظ والإقبال ويؤمن بالمقدور من خير وشرّ ، أراد أم لم يرد . وإن إحدى شؤون الدنيا العجيبة هذه لهو الحظ الذى أصابته رباعيات الإمام حجة الحق غياث الدين أبى الفتح عمر بن ابراهيم الخيام النيسابورى ، الحكيم النحرير ، والعلامة الإيرانى الإسلامى الكبير . كان البلغاء فى الدنيا كثيرين ، وطفقت أقوالهم تشعّ نوراً فى قلوب بنى آدم ، وتجيش حماسةً وغبطة مدى قرون . وكثيراً ما حام حولهم الرواة والمترجمون ونقلوا

أقوالهم المحببة إلى اللغات الأخرى ، ولكن قلما اتفق لمترجم أن أدّى إلى اللغة الثانية ما للقول فى لغة الأصل من فصاحة وروعة وبلاغ . حتى ان أكثر المترجمين ، مهما أوتوا من مقدرة وتسلط ، لم يستطيعوا أن يؤدوا فكرة ذلك القائل حق الأداء . لهذا ما يزال من يريد أن يدرك قيمة طرفة فنية ونفاستها ، مضطراً فى كثير من الأحوال إلى تعلم لغة الأصل وتفهم جمالاتها ، لكى يستطيع أن يستمتع بها و يفوز بمأربه منها كاملا .

إن القوالة الوحيد الذى أعرفه من بين كل هؤلاء البلغاء ، والذى هيّأ له سعدُ طالعه مترجماً بالغ التفوق مرّتين ، فخرقا هذه القاعدة الكلية ، هو خيامنا النيسابورى . أُولاهما أن ادورد فتزجرالد الإنكليزى ، وهو فى لغته شاعر فذّ ، كان قد استهوته أقوال هذا الحكيم الرياضى السُموية ومنطقه الرائع قبل خمسة وتسعين عاماً ، فصاغ بعضاً من الرباعيات المنسوبة إليه شعراً بالإنكليزية . وقد لقي عمله هذا من الاستحسان ما أصبح معه الخيام أشهر شعراء آسيا فى العالم المتمدن ، وطُبعت ترجمات رباعياته بالإنكليزية أكثر مما طبع أيُّ من كتب هذه اللغة ، وتُرجمت بلغات الشرق والغرب أكثر مما ترجم أيّ أثر أدبى آخر . وفى هذا العام ، فى عاصمة وطن الخيام أيضاً ، حظي بهذا الجدّ الرفيع

فتصدَّى أديبٌ متمرّس ساحر ، لترجمة رباعياته بلغة العرب .

فى صيف هذا العام ، لما سرّنى الشاعر المفلق آقاى عبد الحق فاضل قنصل العراق فى طهران[1] برؤيته ، وتلا علىّ بعض رباعيات الخيام التى ترجمها حديثاً باللغة العربية بمقدرة بالغة وحذق يبعث الدهشة ، عاودت ذهنى نفس الفكرة ، وهي أن هذا الحكيم النيسابورى الكبير أسعد شعراء الدنيا حظاً فى الحقيقة إذ يتاح له مثل هؤلاء المترجمين والمعرّفين الأفذاذ ، فى مختلف اللغات .

إنى من ذلك اليوم الذى عرفت فيه غرّيد أرض العراق الكبير ، وأدركت هذه المهمة الشاقة التى وفّاها حقها بكل هذه البراعة — أصبحتُ وكلى أمل وانتظار لذلك اليوم الذى يُطبع فيه هذا الأثر الخطير ، عاجلا ما أمكن ، وينتفع به هواة الأدب ويدركون لبانتهم منه .

كان المؤلف المحترم قد استودعنى كتابه « ثورة الخيام » قبل طبعه ، وقد قرأته قراءة إمعان . لم يبلغ أحد حتى اليوم هذا المنحَى وهذه الدرجة من الكمال فى تحليل نفس الخيام

---

(١) الآن فى القاهرة .

واكتناهها، وتمحيص أفكاره. لقد استهوانى هذا الكتاب إلى حدٍّ صرت معه أترصد بفارغ الصبر ذلك اليوم الذى أقرأ فيه نسخته المطبوعة أيضاً مراراً عديدة أخرى. وإنى لا أعرض هذه الأمنية جاداً كل الجدّ بلسان القلم وحسب، وإنما أنا أشكر كذلك آقاى عبد الحق فاضل عن كل الإيرانيين وعن كل عشاق آثار الخيام أن هيّأ مثل هذا السفر الخطير، وعرّف الحكيم الإيرانى الكبير، بكل هذه المقدرة والبصيرة الثاقبة، إلى أبناء الدنيا.

طهران { ٢ دىماه ١٣٢٩ / ١٩٥٠/١٢/٢٣

سعيد نفيسى

أستاذ تاريخ الأدب وتاريخ التصوف وتاريخ التمدن — فى جامعة طهران
العضو الدائمى فى المجمع العلمى الإيرانى

الباب الاول

الخيـــام

توطئة

وُلِدَ عمر الخيام فى نيسابور ووُلِدْتُ فى بغداد ، وعاشَ فى القرن الخامس الهجريّ ، وعشتُ فى القرن الرَّابع عشر ، وهو آرِىٌّ فارسيٌّ ، وأنا ساميٌّ عربيٌّ — ولكنى بالرغم من هذا البَوْن الشَّاسع فى المكان والزمان والأُرُومة ، أجد كأن بيننا عاطفة من الود والتعارف . وأحسُّ لطول ما صحبتُه فى رباعياته على الأخصّ — كأنه لا يزال حيًّا يعيش فى مكان ما ، وأتصوره أحياناً فى الغرفة المجاورة ، يقرض الرباعيات حتى لأكاد أسمع صرير قلمه ، وغمغمة صوته ؛ أو يُلقى محاضرةً على تلاميذه فى الفلك أو الفقه ، أو فى الطبيعات .

ولعل هذا قد أعاننى على فهمه .

وقد آثرتُ الإيجاز فى هذا البحث فلم أتطرق إلى الشائع المعروف من أخباره وسيرة حياته مما تجده فى سائر الكتب ،

وإنما اقتصرت على ما كان لى فيه رأيٌ جديد ، أو نظرت فيه من زاوية جديدة ، أو خالفت فيه جمهرة الخياميين — إلا ما اقتضاه سياق الموضوع من استطراد أو استشهاد .

الترجمـــــة

يضمُّ هذا الكتابُ بين دفتيه أكبر عدد من رباعيات الخيام تُرجم إلى العربية قطّ ، نظماً أو نثراً . وليست العبرة بالعدد بطبيعة الحال ، ولكنى اعتمدت فى الترجمة ستَّ نسخٍ فارسية ، فى كلٍّ منها من الرباعيات ما ليس فى الأخريات . فجعلتُ أتعقَّب فى أنحائها كل رباعية شرود ، شأنَ الصيَّاد ، فكلما وقعت عينى على واحدة تمثل جانباً من جوانب تفكير الخيام أو فلسفته اقتنصتُها ووضعتها لك فى قفص من العروض . فوقعتْ فى هذه المجموعة رباعيات لم يسبق ترجمتها إلى العربية ، هى من خيرة ما جادت به قريحة الحكيم الفارسي ، ومنها ما لم يكن معروفاً منذ بضع سنوات أنه للخيام ، مما كشف عنه الباحثون أخيراً .

وقد توخَّيتُ فى ترجمتى كلَّ دقةٍ ممكنة ، حتى جاءت بمطابقتها الأصل الفارسيَّ وكأنها ترجمة لفظية . وحرصت على

أن يكون المبنى وعاءً للمعنى وحسب ، فهو سهل واضح لم أجنحْ فيه إلى تعقّد ولا تنطّع ، ولا تكلّفتُ من البلاغة إلا اجتناب الركاكة ، ولا استسلمت إلى تلك الشوائب اللغوية التى يُسمُّونها ضرورات الشعر — ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

فإن كنتُ لم أبلغ من ذلك ما يرضيك ويرضينى ، فعزائى أنه ما من ديوان فى العربية يخلو من حشو أو ركاكة ، مع ما للشاعر المفصح عن خوالج نفسه من حرية فى تصريف معانيه وألفاظه ، خلافاً للمترجم عن أفكار غيره . ولست أُريد بهذا اعتذاراً لنفسى فإنى لا أعذر فنّاناً على التهاون فى فنّه والتقصير فى تجويده وإتقانه . ولكنى إنما أريد تذكير القارئ بما فى ترجمة الشعر من لغة إلى شعرٍ فى لغةٍ أخرى من مشقة بالغة ، ولا سيما إذا أراد المترجم أن يكون أميناً فى نقل المعنى ، دقيقاً فى أدائه . ويعلم الذين زاولوا ترجمة الأدب اللباب — ولو من نثر إلى نثر — ما فى توخّى الدقة من إرهاق ومتاعب ، فأما توخّيها فى ترجمة الشعر شعراً فضربٌ من الأهوال أُوثر أن أُعفيَ القارئ من وصفه .

على أنّ نقل المعنى من لسان إلى لسان لا يُغنِي وحده عن الأصل شيئاً ، فيا ربَّ معنى يتناوله شاعرٌ فيهزّك ويطربك ،

ثم تقرأ نفس المعنى لشاعر آخر ، فإذا هو جامدٌ ميّت لا يبعث فيك حسًّا ولا يهيج شيئاً . فلهذا حاولت أن أنقل مع المعنى روحه وملاحته .

ولكل رباعية صورة ذهنية لها ألوانها . فلعلّى ما أضعفت لها لوناً ، ولكنى اجتهدت أن أقوّيها وأوضحها — حيثما استطعت . وما فوّتُّ نكتة ، ولا قدّمت وأخّرت ، ولا حوّرت — حيثما يكون فى ذلك إفسادٌ لمعنى ، أو تشويه لصورة ، أو إغفال للفتةٍ ذهنية . وإنما سعيت جهدى أن أنقل لك الخيام بأسلوبه وطلاوته مع تشابيهه واستعاراته كما هى . فإذا هو شبّه القدَّ بالسَّرْوَة لم أذكر البان ، وإذا قال « ثقبوا دُرَّ المعانى » لم أقل « ابتكروا المعانى ، أو سبقوا إليها ، أو افتضوا أبكارها » . فأنا إذن لم أنقل هذه الرباعيات الفارسيّة إلى الذوق العربيّ ، وإنما حاولت أن أنقل الذوق الفارسيّ والأسلوب الخياميّ إلى قرّاء العربية .

وإن كنت قد أبَحْت لنفسى شيئاً من التصرف ، فإنما هى ضرورة الوزن والقافية ، تقتضينى كلمةً أضيفها أو أحذفها ، فلا تضير المعنى إضافتها ولا يفسده حذفها ، حتى لا تكاد تحسّ بها فى الحالين . وقد اضطر الخيام نفسه إلى النزول على أحكام هذه الضرورات فى لغته ، فأوْجَز بعض معانيه كلَّ إيجاز ، ومطَّ

بعضها كلَّ مطّ . ولا بدّ للمترجم من اختزال هـذه وإيضاح تلك — وقد فعلت من ذلك ما واتانى .

ولـكنّ الخيام يكثر من ذكر الخدِّ والطُّرَّة من محاسن الملاح ، فذكرت معهما ما تيسَّرَ من مفاتن أخريات ، دفعاً للتكرار ، وحبًّا بالتنويع .

هـذا إلى أنّ بعض الرباعيات يختلف نصُّها الفارسيّ باختلاف الروايات ، وقد وزانتُ بينها وتخيَّرت منها ما بدا لى أنه أقْوَم وأجمل .

وثمَّة رباعية قبيحة يجعلنا ما فيها من فاحشَ القول نعتقد أنها ليست للخيام ، وقد هذّبتها . وإليك ترجمة الشـطرين الثالث والرابع منها :

« أنا لا جرم لى خلافًا للشرع ، يا أهل الصلاح » ،
« سوى الغدْر واللواطة والزنا ... » .

وقد ترجمتها هكذا :

أنا يا أهل التُّقَى لم أرتكب فى الشرع إثمًا
طول عمرى ، غير كفران ، وسكر ، وزنا

وهذا بالخيام أجمل ، وإلى طراز تفكيره أقرب . وحسبى

أن نبّهتُ القارئ إلى أن هذه الرباعية قد لا تكون للخيام أصلا .
وأمثال هذا التحوير فى هذه الترجمة نادر على كل حال .

التكرار

وآفة هذه الرباعيات هذا التكرار الملعون الذى ضقتُ به ذرعًا ، وعسى ألّا يضيق به القارئ . فإن بعضها مُعَادٌ بنصّه تقريباً ، و بعضها نجد جانباً من معناه فى رباعيات أخرى .

والغالب أن يكون نصف الرباعية مقدمة ونصفها نتيجة ، وكثيراً ما تتكرر المقدمة وحدها هنا والنتيجة وحدها هناك ، لتؤدّي كلٌّ منهما وظيفة أخرى فى أداء معنى آخر . ذلك بأن الخيام نظم رباعياته فى أوقات متباعدة ، فإذا عاوده نفس المعنى أفرغه فى قوالب شتى ، أو تناوله من نواحٍ متباينة . فصار يكرر نفسه شكلاً أو استعارةً أو تشبيهاً أو موضوعاً أو مغزى — مع شىء من الاختلاف قليل أو كثير .

ولم أجد علاجًا للأمر غير الحذف ، ولكن التكرار ما يزال موجودًا بالرغم من كثرة ما حذفت . ولو قد نبذت كل رباعية تكرر بعض معناها لما بقى منها إلا القليل ، ولو حذفت من كل رباعية ما تكرر من معناها لما بقى من بعضها غير شطر واحد .

وقد أُطَّرحتُ كذلك رباعيات أُخريات لتفاهتها ، أو لثبوت بطلان نسبتها إلى الخيام ، مما لا ينسجم مع نفسيته وتفكيره ، كهذه الرباعيّة :

إن نكن جئنا إلى المسجد نمشى خاشعين
فلعمرى لم نجِئ كيما نصـــلِّى طائعين !
إنما كنّا سرقنا من هنـــــا سجّادةً
ولقد رثّتْ فجئنا بســـواها طامعين !

وكهذه الرباعية :

عندما تاقَ فؤادى لصـــــلاةٍ وصيامِ
قلتُ : هاقد تمَّ لى ما كنت أرجو من مرامِ
ضلّةٌ لى ، فوضوئى نقضته نســـــمةٌ
وصـيامى أبطلته رشَفَاتٌ من مدامِ !

وما إلى ذلك من رباعيات كثيرة شائعة على ألسنة قرّاء الخيام وهى ليست له . وقد بلغ ما حذفت نحواً من خمسين رباعية ، بعد أن عانيت ما عانيت فى نظمها . ولم تَجُدْ نفسى بأن أطَّرح منهـا أكثر من هـذا ، فإن شاء القارئ فليشطب بالقلم ما لا يعجبه منها .

تمحيص الرباعيات

تكتّم الخيام

وإخال أن الذى زعمتُ من دقّة ترجمتى ومطابقتها الأصل الفارسيّ خليقٌ بان يسوِّل للباحث العربيِّ أن يعتمد هذه المجموعة فى درس فلسفة حكيمنا الشاعر وبحث آرائه فى الكون والحياة والممات . فمن الحقِّ عليَّ إذن أن أنبِّهه إلى أمرٍ قد لا يروقه أبداً ، وهو أنى لست على يقينٍ من أن هذه الرباعيات التى يقرأ هى رباعيات الخيام حقا . فما من محقق خيامىّ يسعه أن يجزم بأنَّ معشار تلك الرباعيات التى تُعَدّ بالألوف والتى تكتظّ بها النسخ المختلفة — للخيام حقا ، كما يسعك أن تقطع بأن :

غير مجدٍ فى ملّتى واعتقادى نَوْحُ باكٍ ولا ترنُّم شادى

لأبى العلاء المعرى ، وأنَّ :

مغانى الشِّعبِ طِيبًا فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان

لأبى الطيب المتنبى .

ذلك بأن عمر الخيام ، فيما يبدو ، لم يجمع رباعياته فى حياته كما جمع أبو الطيب ديوانه ، وكما جمع أبو العلاء لزومياته ، وسقط زنده . ولعل الخيام قد جمع رباعياته ، بيد أنه لم يستطع أن يُظْهِرَ الناسَ عليها إلا خاصة أصدقائه ومريديه ، من الذاهبين مذهبه فى التفكير . وأنا أكاد أجزم أنه كان كَتَمها عن أهل زمانه خيفةً على نفسه من مغبَّة ما فيها من خروجٍ على الدين ، وثورة .

قال فى إحدى رباعياته :

فُصِّلَتْ أسرارُ دنياكم لدينا فى الدفاترْ
قد طويناها ، ففى النَّشر وبالٌ ومَخاطرْ
لم نَجِدْ فى الناس من يعقلُ من أهل البصائر
فغدَا يُعجِزنا إظهارُ ما تُخْفى الضمائرْ

وقد اتَّهموه بالكفر حتى خشي أن يفتكوا به ، بل لقد أخبرنا فى رباعيةٍ له طريفةٍ أن القوم اتهموه كذلك بالفلسفة :

يتظنّى الشانىء الواهمُ أنى فيلسوف
علم اللهُ بأنى لا كما قال السخيفُ

بيد أنى وأنا فى وكرِ أتراحٍ وبؤسِ
لا أقلَّ الآن أن أعرف فيه كُنْهَ نفسى !

فهو يتنصّل من التهمة ويُشْهِدُ اللهَ على براءته منها مدّعياً أنه أراد أن يعرف نفسه ليس إلا . وذلك دفاع فيه مكر كثير ، لأن معرفة النفس هى باب الفلسفة فى مذهب سقراط ومشايعيه . ولكن يظهر أن عمر الخيام كان يعتمد على جهل المتهميه .

ووجهُ الاتهام بالفلسفة والتنصّل منها هو أنها كانت توأم الزندقة فى عرف القوم . وقديماً قالوا : من تمنطق تزندق !

فرجلٌ هذه حاله ، فى جيل من الناس كذلك الجيل المتمسك بأهداب الدين ، يسوسه المتعصبون من رجاله الذين كان يكفِّر بعضهم بعضاً ويُفتِى بقتله لخلافٍ يسير فى الرأى — ما كان يسعه أن يعلن على الملأ رباعياتٍ له حريفةَ الطعم ، لاذعةَ التهكم ، فيها مروقٌ عن الدين ، وتنديد بالمرائين من رجاله ، وفلسفة .

ونحن ما زلنا فى هذا القرن العشرين ، نشهد فى بلادنا

العربية مفكرين لا يجدون مناصًا من كتمان آراء لهم فى الدين أو الاجتماع أو السياسة ، مخافة غضبة مضريّة تحل نقمتها عليهم من رجعية أو جهالة أو حكومة . . وكثيراً ما حلّت .

على أن الخيام كان بالرغم من هذا ، وأحياناً بسبب هذا ، ينظم الرباعيات اللاذعة (ولعل ألذعها وأوجعها ما نظمه أيام تكفيره) ويتلوها حين تتاح له الفرصة على من يأمن جانبه من خاصة صحابته والمعجبين به من أهل طريقته . فكان بعضهم ولا شك يحفظها ، وبعضهم ينسخها ويتلوها بدوره على أصدقائه .

فلما توفى الشيخ الحكيم كانت رباعياته متفرقة فى بطون الدفاتر وعلى أفواه الرواة . وإذا كان هو قد ترك نسخة فى منزله أو نسخاً لدى رواته وتلاميذه تضمُّ رباعياته كاملة ، فأمرٌ لا نعلم عنه شيئاً . ولكن بعضهم قد حاول من غير شك أن تكون له نسخة كاملة ، ولعل بعض مريديه قد نسخ ما ليس لديه منها عن بعضهم ، فتمَّ لهم من ذلك ما أرادوا ، أو لم يتمّ لهم من ذلك ما أرادوا .

اختلاط الرباعيات

وقد جهد الباحثون من المتأخرين أن يظفروا بإحدى هذه النسخ القديمة فأخفقوا . وكان أقدم ما وقعت عليه أيديهم هى النسخة المعروفة بنسخة بودلين Bodleian المحفوظة فى أكسفورد . وقد كتبت سنة ٨٦٥ هـ ، أى بعد وفاة الخيام بثلاثة قرون ونصف قرن . ونحن بعدُ لا نعرف المصدر الذى أخذ عنه جامعُ هذه النسخة ، ولا مبلغ ما يحقّ لنا أن ننيط بها وبه من ثقة . وقد وردت فيها رباعيات ثبت أنها منسوبة دخيلة .

ولا تحتوى نسخة بودلين هذى إلا على ١٥٨ رباعية ، أما النسخ التى تليها تاريخاً ، فهى كلما كانت أحدث عهداً كان ما تحتويه من الرباعيات أكبر عدداً ، حتى أن نسخة طبعت فى طهران تضمّ نحواً من ألف رباعية . ويُخَمَّن مجموع ما يعزَى من الرباعيات إلى الخيام فى مختلف النسخ الرائجة بنحو خمسة آلاف رباعية[1] .

---

(١) المستشرق الألمانى الدكتور فردريك روزن — مقدمة (رباعيات حكيم عمر خيام) وهى النسخة التى وقف على طبعها بالفارسية فى مطبعة (كاويانى) ببرلين سنة ١٣٠٤ شمسية . أى ١٩٢٥ م وقدم لها بمقدمة ضمنها نتيجة بحوثه فى الخيام ورباعياته .

إن الذى لدينا من أخبار الخيام نفسه وأطوار حياته جدٌّ قليل ، وما نعرف أن أحداً من معاصريه — على قلة من كتب عنه منهم — قد أشار بكلمة إلى الرباعيات . وأما الذين أشاروا إليها وذكروها فكلهم قوم لم تقع أعينهم على الخيام ، فاعتمدوا على السماع بعد آماد طويلة لا يوثق معها بالسماع وحده .

ومهما يكن من الأمر ، فإنى أحسب أن المعجبين بالخيام طفقوا بعد وفاته ينسخون الرباعيات بعضهم عن بعضهم ، حتى خرجت من أيدى خاصة الخيام إلى أيدى عامة الناس . وكانت طرافة الرباعيات وما فيها من روعة فى التعبير ، وإفصاح عن خوالج الكثيرين من مثقفى ذلك العصر المتلاطم الآراء ، المتباين النزعات — باعثاً للشعراء ممن أولعوا بالخيام على أن ينسجوا على منواله فى نظم الرباعيات ، حتى كثر ما نُظِم منها على طريقته كثرة عظيمة . وإذا بالخيام يغدو إمام مدرسة فى الشعر والفكر .

ولم يشتهر أحد من هؤلاء المقلديه . ولعلهم كانوا يكتمون أمرهم مثله ، بل لعل بعضهم كان يعزو بعض رباعياته إلى الخيام تنصّلاً من تبعتها . فانضافت رباعيات هؤلاء إلى رباعياته .

ولم يقتصر نظم الرباعيات على هؤلاء الخياميين المفلسفين

الذين ظلُّوا يتساءلون عن أسرار الكون وغاية الحياة والموت ، يناقشون مسائل الدين والكلام مناقشةً أقرب إلى الإنكار أحياناً ، وهى الإنكار بعينه أحياناً ، غير قانعين بما يجدونه لدى الدين من أجوبة عليها . وإنما كان للأتقياء المؤمنين كذلك رباعياتهم يذبُّون بها عن حياض الدين ويردُّون ريب المرتابين وكفر الكافرين ، فيها وعظ وفيها تذكير ، وفيها قنوت وخشوع .

وكان للمُجَّان كذلك رباعياتهم . فيها خمر وفيها صبابة وفيها خلاعة . يتغنّون بها فى الحانات ، على أنغام المزاهر ورنّات الأقداح .

وكان للمتصوفة رباعياتهم يترنّمون بها فى حلقات أذكارهم ، فيها غزل ونسيب ، وفيها مناجاة و (شطحات) . بل إنهم كثيراً ما ترنموا برباعيات الخيام ، أو برباعيات الماجنين الخلعاء ، من باب الوجد والشطح !

وكان للزهاد رباعياتهم يعبّرون بها عن عزوفهم عن عرض الحياة الدنيا وأطماعها ، فى ذلك العصر الذى كثرت فيه الفتن وفشا التكالب على الجاه والسلطان ، فكان طبيعياً أن يفشو فيه الزهد والانزواء .

وقد اختلطت هـذه الرباعيات كلها برباعيات الخيام ، اختلاطاً أصبح يتعذّر علينا معه أن نميزِّ بينها ونرد كلاً منها إلى صاحبها ، ولا سيما أن أصحابها مجهولون لم يسجّل التاريخ اسماً لأكثرهم . والمعروفون منهم لم يشتهر أحدهم شهرة الخيام ، فأصبحت كل رباعية متشردة لا صاحب لها تنتمي إليه .

وكانت الرغبة فى استكمال الرباعيات وعدم تفويت شيء منها يجعلان النُّسَّاخ يضيفون إلى نسخهم كل ما تقع عليه أعينهم من رباعيات يقال لهم إنها للخيام ، فيلحقونها بها — يضمّونها إلى آخرها أو يدسّونها فى أثنائها . وهو عين ما تفعله أنت وأفعله أنا ، إذا أراد أحدنا استكمال نسخته . فهكذا أصبحت رباعيات الخيام أشبه بكرة الثلج ، تكبر حجماً كلما زادت تدحرجا . وهكذا حملوا الكثير مما وجدوا من رباعيات الشعراء على الخيام ، كما حملت العرب الكثير من الخمريات وشعر المجون على أبى نواس ، وكما أضافت الفرس الكثير من نوادر الأذكياء والبلهاء إلى ملاّ نصر الدين .

تحريف الرباعيات

ويبدو أن طائفة من الصلحاء تعمَّدوا أن يَعزُوا إلى الخيام من الرباعيات التي تحضّ على التوبة والتقوى ما لا علم له به ، وحوروا رباعياتٍ له فرووها على غير وجهها ، تخفيفاً لما فيها من تطاول على الشرع .

وإليك من أمثلة التحوير هذه الرباعية :

گويند مرا كه دوزخى باشد مست
قوليست دروغ دل در آن نتوان بست
گر عاشق ومست دوزخى خواهد بود
فردا ببنى بهشت را چون كف دست

وترجمتها :

« يقولون إن السكران مصيره النار » .
« قولٌ كَذِبٌ لا يستطيع القلب أن يعلق به » .
« إذا كان مصير العاشق والسكران إلى النار » ،
« فغداً ترى الجنّة كراحة الكفّ »[1] .

(١) الرباعية ٣٩ فى هذه المجموعة .

فقد استبدلوا فى بعض الروايات كلمة (دروغ) أي (كذب) من الشطر الثانى بكلمة (وليك) أي (ولكن). فصار المعنى هكذا :

« إنه قول ، ولكن لا يمكن أن يعلق به القلب » .

وربما استقام المعنى على هذا الوجه ، ولكنه على كل حال أضعف من الوجه الأول . ولو كان فى الكتابة شبه بين الكلمتين الفارسيتين (وليك) و (دروغ) لقلنا : لعلها من أخطاء النساخين المشهورة . فالظاهر إذن أن أحد الأتقياء أراد أن يهوِّن من وقع المعنى ، فنفَى الكذب عن الدِّين القائل بأن الشارب الخمرة مصيره إلى النار . ولكنه نسى أن الرباعية قائمٌ كيانها كله على محاولة إثبات هذا الكذب ، وأنه لهذا لم يكد يصنع شيئاً بهذا التحوير .

وإليك مثالا آخر :

أيها القالى الحميّا ، لا تندِّدْ بالسُّكارَى
لا تشيِّد بالأساطير وبالتدجيل دارا
إن تحرّجتَ من الخمر فلِمْ تزْهَى اغترارا ؟
كم فعَالٍ لك تخْزَى الخمرُ منه وتَوارى !

فقد ورد الشطر الثانى فى بعض النسخ هكذا :

« وأنا إن تسنَّى لى تبتُ إلى الله »

على حين أن موضوع الرباعية يدور بأجمعه على المخاطب لا المتكلم . كما أن المعنى فى الرواية الأولى أكثر انسجاماً مع بقية الأشطر ، ولا سيما الأخير .

هذا وأمثاله ينبئك بما أصاب رباعيات الخيام من تحريف مقصود بالإضافة إلى ما مُنِيَتْ به من الآفة الشائعة التى لم يكد يسلم منها كتاب قديم ، وهى تصحيف النساخين وأخطاؤهم .

الرباعيات الجوالة

وقف الباحثون حيال ركام ضخم من الرباعيات المتباينة الأغراض ، المتناقضة المعانى ، موقف الحيرة والتهيّب . وحاولوا بما أوتوا من صبر وفطنة أن يمحّصوها ويستخلصوا منها رباعيات حكيمنا الفلكي مما خالطها من رباعيات سواه ، فتقدموا فى هذا السبيل متدرجين ، يفيد لاحقهم من خطأ سابقهم وصوابه — شأنهم شأن العلماء فى كشف حقائق العلم وارتياد مجاهل الأرض والسماء .

جاء المستشرق الروسيّ جوكوفسكى بنظرية « الرباعيات

الجوالة » حين لحظ أن بعض الرباعيات يجول فى دواوين الشعراء الفرس ، فافترض أنها منسوبة إلى الخيام . إلا أنه اعترف أن مجرد وجود الرباعية فى دواوين بعض الشعراء ليس بالدليل القاطع على أنها لهم دون الخيام ، فقد اتضح أن بعض هذه الرباعيات موجودٌ فى نسخٍ من رباعيات الخيام أقدم عهداً من الشعراء الذين وردت فى دواوينهم ، فكان هذا دليلا على أن بعض رباعيات الخيام قد سافر إلى دواوين الشعراء كما هاجر بعض رباعياتهم إلى ديوانه — على حدّ تعبير فردريك روزن .

أنظر مثلا إلى هذه الرباعية التى وردت فى بعض النسخ من ديوان حافظ الشيرازى :

يا لَجمشيدَ وقصرٍ كان فيـــه يشربُ
وَلَدَت فيـــه ظِباءٌ ، واُستكنَّ الثعلبُ
يا لَبهرامَ الذى كان يصيد العَـــيْرَ عمراً
أرأيتَ القـــبر كيف اصطاده لا يَرْهَبُ ؟

يقول فردريك روزن وهو مصيب : « إن هذه الرباعية قد تكون للخيام وقد لا تكون ، إلا أنها لا يمكن بحال أن تكون لحافظ . ذلك بأن الفرق بعيد بين دنيا الشاعرين » .

ومهما يكن فإن نظرية « الرباعيات الجوّالة » طريقة فى البحث سلبية ، لم يكن يُنتظَر منها أن تفضيَ إلى نتيجة إيجابية . فلو افترضنا أن كل الرباعيات الجوالة محمولٌ على الخيام لكان قصارانا أن ننبذها ، ولبقيتْ لدينا بعد ذلك كومة مركومة من الرباعيات نحتاج إلى التحقيق فى أمرها .

الرباعيات الموسومة

وجاء الأستاذ كريستنسن بطريقة أخرى . فكان منه أن جمع كلَّ رباعية ورد فيها لقب « الخيام » ، وقال يحتمل أن تكون أصيلة غير دخيلة . ولكن هذه الطريقة وإن تكن إيجابية ، فإن عدد هذه الرباعيات لا يتجاوز الاثنتى عشرة . فلو صحَّت نسبتها إليه كلها لكانت مع ذلك قليلة . على أن الأستاذ جامعها يعترف ، مثل اعتراف جوكوفسكى ، أنها طريقة لا يعوَّل عليها . وأثبت ذلك برباعيـــة ورد فيها اسم الخيام موضوعا مكان اسم صاحبها .

وقد نفى فردريك روزن ستاً من هذه الرباعيات الاثنتى عشرة . أما ثلاثٌ من هاته الستّ فيبدو أنه لا ريب

فى كونها محمولة على الخيام ، وأما الثلاث الأخريات فلستُ أستطيع أن أجزم مع المستشرق الألمانى بنفيها . إحداها مثلا هذه الرباعية :

خاطَ للحكمة خيامٌ خيـــاماً وارتحلْ !
مذ هوَى المسكينُ فى أتّون حزنٍ واشتعل !
قطَعتْ أطنابَ دنيـــاه مقاريضُ الأجلْ !
ورخيصاً باعه فى السُّوق دلالُ الأملْ !

فهو يقول : « وأكبر الظنّ أنها كتبت بعد وفاة الخيام » . وقد تابعه على ذلك العلاّمة فروغى[1] حيث يقول : « ويقينٌ أن شخصاً آخر قالها عن الخيام ، كما لحظ الدكتور روزن » ولستُ أعرف لذلك سبباً ، لأنهما لا يذكران سببا . فإن كان حديث الرباعية عن الخيام بضمير الغائب هو الذى جعلهما يظنان أن

(١) المرحوم آقاى محمد على فروغى ، كان أحد جهابذة السياسة والعلم والأدب فى إيران ، توفى منذ بضع سنوات أثناء الحرب العالمية الأخيرة . وله تصانيف فى الأدب الفارسي منها مجموعة لرباعيات الخيام طبعها باسم « رباعيات حكيم خيام نيشابورى » وقدم لها ببحث قيم ممتع على إيجازه ، وعلى مخالفتنا لبعض آرائه فيه . طبعت فى طهران سنة ١٣٢١ شمسية ، أي ١٩٤٢ م .

قائلها غيره ، فالحقّ أن الخيام يتحدث عن نفسه فى الرباعيات الاثنتى عشرة كلها — الصحيح منها والمنسوب ! — بضمير الغائب طوراً والمخاطب طوراً ، وليس بينها واحدة يتحدث فيها عن نفسه بضمير المتكلم . وإن كان حديثها عن موت الخيام بصيغة الماضى هو الذى جعلهما يتوهمان ما توهما فما أكثر ما يتحدث الشعراء الفرس خاصة ، عن الموت المستقبل بصيغة الماضى ، وما أكثر ذلك فى رباعيات الخيام نفسه . وما أكثر ما قال فيها : « هلكنا ، ورحلنا » وهو يقصد « سنهلك ، وسنرحل » .

وقد وردت هذه الرباعية فى النسخة التى وقف على طبعها الدكتور روزن . وإذا راجعت جدول الرباعيات الجوّالة تبين لك أنها ليست منها ، فليس لها إذن غير الخيام صاحب معروف . وصحيحٌ أن هذا ليس بالدليل القاطع على صحة نسبتها ، إلا أنه لا داعي إلى نبذ رباعية موسومة باسم الخيام خاصة ، لمجرد أنها تتحدث عن موته على نحو مألوف فى الشعر الفارسيّ . وأنا أستطيع أن آتيك بعشر قصائد ، أو مائة إن شئت ، لغير الخيام — يتحدَّث فيها أصحابها عن أنفسهم بضمير الغائب وهم يعنون المتكلم ، ويذكرون موتهم بصيغة الماضى وهم يقصدون المستقبل . ويقول الخيام :

يا خليـــــــلميّ ، تعبنا عبثاً حتى بَلِينا
ورماناَ منجـــلُ الدهر شمـالًا ويمينا
لهف نفسى ، لهف نفسى ، لم نكد نفتح عيناً
فى حياةٍ لم تكن وفق المـنى حتى فنِينا

فإذا تمسكنا بمنطق الدكتور روزن لم يبقَ لنا إلا أن نفترض أن الخيام نظم هذه الرباعية بعد وفاته !

و إذا رجعنا إلى الرباعية الأولى — التى أنكرها الخياميان الإيراني والألماني — وجدنا أن ظاهر معناها لا يدلّ على أن غير الخيام قد تحدث فيها عنه . فإنَّ مفادها لو كان قالها سواه ، لهو التشفّى . ولـكن هذا التشفّى لا يتفق مع الثناء عليه بالقول أنه خاط خياماً للحكمة ، فى الشـطر الأول . فالظاهر إذن أن الخيام يفخر بنفسه و بحكمته فى هـذا الشطر الأول ، كما فعل فى بعض رباعياته ، وفى بعض أبياتٍ له عربيـة ، ثم هو يأسف فى بقية أشطر الرباعية على نفسه وحكمته تذهبان هدراً . وما أكثر ما أسف فى رباعيات أخريات .

فالرأى عندى أن هـذه الرباعية إنما ينبغى أن يكون قائلها الخيام . فإن كانت من صنيع امرئ سـواه فإنما أراد أن يقولها

على لسان الخيام ويُنْحِله إياها ، لا أن يتحدث فيها عنه .

أما المرحوم فروغى فالحقّ أنه ينكر هذه الرباعيات الاثنتى عشرة برمتها ، بالرغم من ورود اسم الخيام فيها ، بل لورود اسم الخيام فيها ! ذلك بأنه يشك فى « أن حكيم نيسابور قد سَمَّى نفسه بالخيام أصلا » . ويسترسل فيقول : « وإنما يبدو للنظر أن لقب الخيام يخصّ أباه ، فإننا لم نَرَ من معاصريه والقريبين من عهده من دعا الحكيم بالخيام ، وإنما هم كلما ذكروا اسمه جاءوا بلقب الخيام أو الخيامىّ بعد اسم أبيه ، أو دعوه ابن الخيام . فيمكن الاعتقاد أنهم لم يسمُّوا الحكيم خياماً فى عصره ، بل صار يعرف بالخيام بعد ذلك نسبة إلى أبيه على سبيل التجوّز »[1] .

وهذه ملاحظة جديرة بالتقدير والتسجيل ، لو كانت صائبة . وهي تدهشنى حقاً لما فيها من تسرع فى الحكم على غير تمحيص وتثبّت ، ما كنت أتوقع مثله من مثل العلامة المرحوم . ذلك أن العروضىّ السمرقندىّ[2] كان معاصراً للخيام وصديقاً ، وقد سمّاه « خواجه امام عمر خيامي » دون ذكر لاسم أبيه إبراهيم . فهذا دليل دامغ على خطأ البحاثة الجليل .

---

(١) رباعيات حكيم خيام نيشابوري — ص ٣١ .

(٢) أحمد بن عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي — فى كتابه « چهار مقاله » أى المقالات الأربع .

وقد بعث الإمام القاضى أبو النصر محمد بن عبد الرحيم النسوي مقطوعة إلى حكيمنا النيسابوري مطلعها :

إن كنتِ ترعَيْنَ يا ريح الصَّبا ذِمَمِى
فاقرِى السّلام على العلاّمة الخِيَمِى

دون ذكر لاسم أبيه أيضا .

فلقب الخيام ، أوالخيامي ، أوالخِيَمِى كان معروفاً إذن للخواجه الإمام عمر بين معاصريه . والظاهر أن القاضى أبا النصر دعاه بالخيمي بدلا من الخيام أو الخيامي نزولاً على ضرورة الشعر ، ولكن ذلك يدلّ على كل حال أن الإمام الحكيم كان يلقّب بشيء له صلة بالخيمة . وقد سمّاه البيهقى [1] الذى لقيه فى صباه « الدستور الفيلسوف حجة الحق عمر بن إبراهيم الخيام » . فربما كان أبوه إبراهيم يصنع الخيم كما يستنتج الباحثون فلقّب بالخيام ، ولعلّ ابنه الدستور الفيلسوف صار يلقب بالخيام تارةً تبعاً لأبيه ، و بالخيامي تارة أخرى من باب النسبة . والإيرانيون ميّالون إلى إضافة ياء النسبة إلى الألقاب وأواخر الأسماء ، حتى ليسمّينى

(١) أبو الحسن علي بن زيد البيهقى — « تتمة صوان الحكمة » تم تأليفه ما بين سنتى ٥٥٣ و ٥٦٥ هـ .

بعضهم « آقای فاضلی » ! ولعل بعض معاصرى الخيام فعلوا ذلك بلقبه فسمّوه بالخيامي. ويبدو أنه آثر هو الأفصح والأسهل فى قرض الشعر فسمى نفسه فى رباعياته بالخيام .

والخلاصة أنى أرى أن ذكر اسم الخيام فى الرباعية إن لم يكن دليلا على صحة نسبتها إليه ، فما هو بالدليل على صواب نفيها عنه ، ما لم تقم على ذلك البينة القاطعة من رواية صحيحة أو سند مقبول (١).

ولا يستغربنّ القارئ إطالتى فى الردّ على المرحوم فروغى هنا ، فإنّ محو بضع رباعيات أو إثباتهنّ لأمرٌ جَلَلٌ فى مثل بحثنا . وإن رباعية يتيمةً واحدة يصحّ عندنا فى هذه الفوضى أنها للخيام لأثمن عند الخياميّين من الدرّة اليتيمة . وفروغى بحّاثة له مقامه فى الأدب الفارسي ، فإذا هو ارتأى رأياً فأصاب أو أخطأ تبعه الكثيرون على خطئه أو صوابه ؛ ولهذا أجدنى أكترث لرأيه .

مقارنة الرباعيات

وللمستشرق الروسي جوكوفسكى طريقة أخرى إيجابية ، غير نظرية « الرباعيات الجوالة » السلبية . ذلك أنه وجد فى

(١) فى هذه المجموعة ثمان من الرباعيات الموسومة باسم الخيام ، هى الرباعيات : ٤٤ ، ٤٨ و ٧٥ و ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٨٨ و ٣٣٠ و ٣٣٣

بعض كتب الأقدمين بضع ر باعيات ذكروها للخيام من باب الاستشهاد ، فهي أخلق أن تكون من نتاج قريحته ، لأن رواتها أقرب إليه عهداً ، وروايتهم أوثق مما بأيدينا من نسخ لا نعرف مَنْ جمعوها ولا مِن أين جمعوها . منها مثلاً ر باعيتان رواهما الرّازى[1] فى « مرصاد العباد » واستشهد بهما على ضلال الخيام . فالمستشرق الروسي يرى أنهما لورودهما فى « مرصاد العباد » ولوجودهما كذلك فى النسخ القديمة من الر باعيات كان لنا أن نطمئن شيئاً إلى صحتهما[2] .

وقَفَّى الباحثون على أثر جوكوفسكى فجعلوا يضيفون إلى الر باعيات الصحيحة ر باعيات جديدة كلما عثروا على شيء منها فى كتاب قديم ، حتى وُفِّق المرحوم فروغى أخيراً إلى جمع ٧٤ ر باعية نقلَها عن ثمان روايات قديمة مختلفة ، منها بضع ر باعيات ذكرها رواتها من باب الاستشهاد ، ومعظمها من باب الاختيار والاستحسان . و إذا أخرجنا منها ثمانيَ ر باعيات تكرر ذكرها فى بعض هذه الروايات بقى لدينا ستٌّ وستون ر باعية رواها قوم

---

(١) نجم الدين أبو بكر الرازى — « مرصاد العباد » تأليف سنة ٦٢٠ هـ ، أى بعد وفاة الخيام بنحو قرن واحد .

(٢) هما الرباعيتان ٩٥ و ٧٤ من هذه المجموعة .

كلهم أقدم عهداً من أقدم نسخة بين أيدينا من مجموعات الرباعيات ، فهي من أجل ذلك أحقّ بالركون إليها والاطمئنان إلى صحتها . وقد اتخذها فروغى وسواه مثالاً يقيسون عليها سائر الرباعيات ، فما كان بها شبيهاً عدّوه للخيام ، وما كان لها مغايراً عدّوه لسواه . فلنسمِّها إذن بالرباعيات المعتمدة .

مناقشة الرباعيات المعتمدة

ولكنى أجدنى أتساءل : عن أيّ المصادر أخذ القدامى هاته الرباعيات الستّ والستين ، وأقدم كتبهم دُوِّن بعد وفاة الخيام بما لا يقل عن قرن من الزمان ؟ ولكن ما العمل ؟ فلنفترض أنهم قد أخذوها عن .. مكانٍ ما ، ونسلِّم موقتاً بصحتها .

يقول فروغى : « متى وضعنا نصب أعيننا هذه الرباعيات الستّ والستين التى يحتمل احتمالاً قويا ، بل يصحّ الاعتقاد ، أنها للخيام ، ووزناً خصائص كلام الحكيم ، كان الشيء الذى يواجهنا أنها جدّ بسيطة ، عارية عن التزويق ، بريئة من التصنّع والتكلف . بل إنها مجرّدة حتى من الأخيلة الشعرية ، حتى ليمكن القول إنها ليس فيها من الشعر غير الوزن والقافية .

ولكنها على غاية الفصاحة والبلاغة ، صحيحة موجزة محكمة ، كل ألفاظها قالبٌ للمعنى ، لا نقصان فيها ولا زيادة ، ولا عيب ولا شائبة . وواضح أن قائلها لم يقصد إلى تنميق الألفاظ والتفاصح ، فكلها مقيَّدٌ بأداء المعنى . وأما المعانى فمن اللطف والدقة والإبداع بحيث تسمو على كل تخيّل واصطناع ، فهي جدٌّ لا هزل فيها . وهو يبدى أحياناً بعض الطيبة ، كثير الدقة والظرف ، وكلامه ناعم لا وخز فيه ، ومضامين الرباعيات كلها نتاج طبع حكيم متفكر مستطلع . . الخ » .

وأنا لا أكره للخيام أن يكون كذلك ، ولكنّ بين هذه الرباعيات المعتمدة ما ليس كذلك . فإليك هذه الرباعية :

« ما دام تركيب الطبائع وفق مرامك لحظة ، »
« فاذهب وعش سعيداً ، ولو كنت تسام الضيم ! »
وكن مع أهل العقل ، فإن أصل جسمك ؛ »
« غبار ونسيم وشرار وريح ! »

فأنت تلحظ السخف ولا شك فى الشطرين الأخيرين خاصة ، حيث ينصحك صاحب الرباعية أن تكون مع أهل العقل .. لماذا ؟ لأن أصل جسمك كذا وكذا ! إن من عادة

الخيام — كما سترى عند قراءة رباعياته — أن ينصح المرء بالاستمتاع بمباهج الحياة لأنه سيموت ، فأما إذا نصحك أن تكون مع العقلاء فلأسباب أوجه من كون أصل جسمك غباراً ونسيماً وشراراً وريحاً ! وقد استرعى انتباهك من غير شك أيضا أن المقصود بالنسيم والريح شيء واحد هو الهواء ، وأنه كان عليه أن يذكر الماء بدلا من أحدها ، لتتمّ العناصر الأربعة التى كانوا يعتقدون أنه لا عناصر غيرها . وهذا أبعد ما يكون عن الدقة التى اتّصف بها الخيام ، وذكرها له فروغى .

وإليك هذه الرباعية :

« أنا لا أتحاشى شرب الخمر لضيق ذات اليد ، »
« ولا لهمٍّ الفضيحـــــة والسكر ، »
« وإنما كنت أشرب الخمـــرة للسرور . »
« أما الآن وقد جلستَ على قلبى فلا أشرب ! »

فهذا كلام غثٌّ لا يصدر مثله عن مثل الخيام . وحسبك أنه — أي قائل الرباعية المجهول — يزعم أنه لا يشرب الخمرة لأنك .. (أي حبيبه) قد جلست على قلبه ! وما سمعنا أن سكيراً أقلع عن المدام لأنه أحبّ ، وإنما العكس هو المشهور . وفى هذه

المجموعة رباعية تؤدِّى نقيض هذا المعنى ، جاء فيها :

صادَ لى عشقُكَ شَيْبى فى أحابيل الدلالِ
يا أخا الحسن ، وإلاّ ما لصهباءَ ومالى ؟

وقد لا تكون هذه الرباعية للخيام ، ولكن معناها هو المعقول المقبول .

فأيُّ « حكمة أو تفكُّر أو استطلاع » فى هاتين الرباعيتين ، وأمثالهما بين الرباعيات السِّت والستين غير نادر ؟ وغريبٌ أن يقول فروغى إن كلامه ناعم لا وخز فيه ، فأي وخز أوجع من قوله :

إنَّ مَنْ صاروا محيطَ العـــلم بين العالمين
وغدَوْا فى الفضل مصباحَ الهُدَى للمهتدين
لم يَشُقُّوا من دُجَى الشكِّ طريقاً ليقين
إنما قصُّوا أساطـــيرَ ، وناموا بعد حين !

أو قوله :

أبدعَ الصانعُ تركيبَ طبـــاعِ البشر
فلمـــــاذا شانَهَا بالنقص أو بالوضَرِ ؟

إن تكُنْ جاءت ملاحاً ، فلماذا خَرْبُها ؟
أو تكن جاءت قباحاً ، فعلى مَنْ عَيْبُها ؟

وأمثال هاتين الرباعيتين — بين الستّ والستين — كثير ؟

على أنى لست أريد إلى انتقاد فروغى هنا وتفنيد رأيه فى خصائص الخيام ، ففى وسعك بعد قراءة الرباعيات أن ترى رأيك فيها ، وفى رأيه فيها . فلنعُدْ إلى ما فى بعض هذه الرباعيات المعتمدة التى يرويها المتقدمون من غثاثة وسخف ، فإن هذا يدلّ على أن بينها ما هو مدسوس محمول على شيخنا الحكيم . فالمتقدمون كالمحدثين عرضة للخطأ ، وقد طالما لفّقوا الأحاديث وزيّفوا الأخبار ، وقد طالما أخطأوا فى النقل والرواية عن حسن نية أيضا . . كالمتأخرين سواء بسواء .

لهذا أرى أن الرباعيات الست والستين لا يصحُّ اتخاذها مقياساً دقيقاً لرباعيات الخيام ، وإن كان يصح اتخاذها مقياساً غير دقيق ، ومحكاً غير منزّهٍ عن الخطأ . فإنما هي أمثلة استشهد بها بعضهم ، أو مختارات انتقاها آخرون وفق أذواقهم ، فلم يقصدوا إلى الإحاطة والشمول ، فيها الأصيل والدخيل . ولعل ثمة

جوانب من فلسفة الخيام أو شاعريته لم تعجب منهم أحداً فأهملوها ولم يذكروا منها رباعية واحدة . وليس بعيداً أن يكون له رباعيات فى المجون أو الهجاء أو أيِّ ضربٍ من ضروب القول نظنه بعيداً عن الخيام وأمثاله ، ولكلِّ شاعرٍ نزوات وبدوات . ولعلنا لو ظفرنا بمجموعة الرباعيات الأصيلة لاختار منها فروغى ولاخترت منها أنا غير ما اختار القوم .

وما دام الحدس والذوق هما كل سندنا فى القياس للتمييز بين صحيح الرباعيات من فاسدها ، فلا معدَى لنا عن أن نلصق بالخيام كل رباعية تشبهه من رباعيات غيره من الشعراء ما دمنا لا نعرف لها صاحباً سواه ، وأن نجرِّده من كل رباعية له ما دامت لا تشاكل الرباعيات المعتمدة ولو كنا لا نعرف لها صاحبا سواه . فهذا عين الخطل ، وهذا الخطل لا محيص لنا عن ركوبه إلى أن نهتدي إلى طريقة أمثل منه .

إن هذه الحيرة لا ينتشلنا منها إلا نسخة قديمة يجدها أحد الباحثين تجمع رباعيات حكيمنا الشاعر كلها ، ويسعنا الركون إلى صحتها . وهذا لعمرك أمل يبدو كأنه بعيد . .

عدد الرباعيات

إن هذا يحدو بى إلى ألّا أتشدَّد فى اختيار الرباعيات تشدُّد المرحوم فروغى الذى اكتفى بانتقاء ١٧٨ رباعية فقط — بما فيها المعتمدة — رغبةً منه فى جعلها أقرب إلى الصحة ، وتجنّباً لخطأ الأخذ بما ليس للخيام من رباعيات . لأنى أرى أن خطأ المرء فى نبذ رباعيات للخيام لا يقلّ سوءً عن خطئه فى الأخذ برباعيات غيره .

والواقع أن البحاثة الجليل فروغى يشايع سواه من الخياميين فى ميلهم إلى الإقلال من عدد الرباعيات ؛ فبعضهم يرى أن ما للخيام منها لا يربو على الثلثمائة ، وبعضهم يرى أنه دون المائتين . وقد قال لى الخياميّ التركي المشهور رضا توفيق فى حديث جرى لى معه فى استانبول إنه يعتقد أن الرباعيات الأصيلة لا تتجاوز المائة . فقلت له إننا نعلم أن الخيام قد نيّف على السبعين ، ولعله شارف الثمانين أو جاوزها ، بل إننا لا يسعنا أن نقطع بأنه لم

يبلغ المائة مثلا ، فليس لدينا على ذلك دليل من رواية أو قرينة[1] . فإذا افترضنا أنه لم ينظم سوى رباعية واحدة (أى بيتين وحسب) كل شهر ، وأنه لم يعش أكثر من سبعين عاما ، وأنه لم يمارس نظم الرباعيات قبل أن يبلغ الثلاثين — يكون على ذلك قد تعاطى نظمها أربعين سنة ، ويكون مجموع ما نظمه منها ٤٨٠ رباعية !

والخطأ فى هذه الفرضية ، إن كان فيها خطأ ، أنه ليس محالا أن ينصرم العام والعامان ولا ينظم الخيام رباعية واحدة ، فما كان بالشاعر المحترف ولا المتفرغ للقريض . ولكن هذا مجرد احتمال ، وقد يكون احتمالا ضعيفا . ومن المحتمل أن يكون لقاء ذلك قد نظم أحيانا عدة رباعيات فى يوم واحد .

أما دليل فروغى على قلة الرباعيات فهو هذا التكرار فى معانى الكثير منها ومبانيه . وهو يستبعد أن يكرر الخيام نفسه إلى هذا الحد ، وأنا أستبعد ذلك معه . ولا أنكر ، ولا ينكر أحد

---

(١) لاحظ المرحوم فروغى أن الخيام كان فى عداد المشهورين من الفلكيين سنة ٤٦٧ هـ حين اشترك فى وضع التقويم الجلالى ، فلا بد أن يكون عندئذ قد بلغ الثلاثين أو الأربعين من عمره . وقد توفى على المشهور سنة ٥١٧ هـ أى بعد وضع التقويم بخمسين عاماً ، فيكون قد عاش ثمانين عاماً على أقل التقديرين .

أن الكثير من الرباعيات قد نظمه مقلدو الخيام وأتباع طريقته .

ولكنى أعتقد أن للتكرار بالإضافة إلى هذا سبباً آخر ، هو أن الخيام نفسه قد أعاد نفسه بنفسه وكرر بعض معانيه . ذلك بأنه لم ينظم رباعياته فى وقت واحد ليعالج موضوعاً خاصاً فيربط بين أجزائه ، ويهذّب فصوله ، ويشذّب زوائده . وإنما هى خطرات عابرات ، كلما سنحت له واحدة منها أفرغها فى رباعية قد تشبه رباعيةً له سبقتها ، وقد يكون بينها وبينها عشرات الرباعيات فى معانٍ أخرى ، وعشرات الشهور . وسنرى عند قراءة الرباعيات أن خطرات معينة قد شغلت عقله فانحصر فيها تفكيره ، من ذلك كثرة ذكره للموت حتى فى معرض الدعوة إلى اللهو والحضّ عليه ، ومن ذلك مسألة الجبر والاختيار . فكلما جاش فى نفسه أحد هذه المعانى وألحّ على ذهنه أطلقها رباعية مجلجلة يفرّج بها عن نفسه . وما دامت هذه الأفكار تعاوده بعينها دائماً فلا جَرَمَ أن يعالجها من شتَّى نواحيها ، ويفصح عنها بشتَّى التعابير . بل لا جرم أن يكررها بعينها ، إذا تقادم العهد ، وهو لا يدرى . ومَنْ مِنَ الكتاب أو الشعراء أو الفلاسفة لا يعيد نفسه على هذا النحو ، ويعرض بعض أفكاره مراراً متعددة فى قوالب مختلفة — من حيث يريد ومن حيث لا يريد ؟ .

وهذا شوقي مثلاً ، ما أكثر ما ساءل الموتى في مراثيه عما لديهم من أسرار الفناء ، وهو ناسٍ أنه فعل ذلك وكرره مراراً في مراثٍ سالفات . ولو قرأتَ لزوميات المعرّي ورأيت ما فيها من التكرار « لهالك الأمرُ واستهوتك أحزانُ » !

بل لقد كرر الخيام بعض معانيه في نفس هذه الرباعيات الستّ والستين التي اقتنع فروغي بصحتها . أفلم يلحظ ذلك ؟

فليس حتماً إذاً أن تكون لغير الخيام واحدةٌ من كلّ رباعيتين مكررتين .

وعندي على كثرة الرباعيات دليلٌ آخرُ إن لم تجده قاطعاً فهو على كلّ حال جديرٌ بالاعتبار . ذلك أنّ الرباعيات الأربع والسبعين التي جمعها المرحوم فروغي من ثمانية مصادر ، لم يتكرر منها سوى ثماني رباعيات وحسب ؛ فبقي لنا منها ستٌّ وستون ، كما رأينا قبل . فلو كانت رباعيات الخيام الأصيلة من القلة بحيث يتوهّم المتوهمون لتكرر منها الكثير .

ولأضربْ مثلا : فلنفترض جدلاً أن رباعيات الخيام لا تربو على المائتين ؛ فخذ لقاءها مائتي بيت من ديوان المتنبي ، ثم سَلْ ثمانية أشخاص أن يختاروا منها أربعة وسبعين بيتاً تُوزِّعُ

عددها عليهم بنسبة ما ورد من الرباعيات فى الكتب الثمانية الآنفة الذكر . أفتظنُّ مهما اختلفتْ أذواقهم أنه لن يتكرر اتفاق أي اثنين منهم فى اختيار أية رباعية أكثر من ثمان مرات ؟ .

إنى لأرى أنّ فى تكرر ثمانى رباعيات فقط من تلك الروايات الثمانى لدليلاً على أن أصحابها قد اغترفوا من بحر واسع فلم يلتقوا إلا قليلا . ولكن لا تسلنى كم عدد رباعيات الخيام ، فأنا لا أستطيع أن أحدّد لها عدداً ، ولو تخميناً . فخمِّن أنت إن استطعت .

مدرسة الخيام

أما التمييز بين صحيح الرباعيات من فاسدها — على أساس القياس — فلكلٍ من الباحثين مذهب فيه . وإنك لتجد كل واحد منهم يقول هذه الرباعية للخيام ، وتلك ليست للخيام — لعلّة لا أعرفها . وما وجدت اثنين من المحققين يتفقان على ما يختاران منها ، بل وجدت أن ما يعدّه أحدهم رباعية صحيحة لا غبار عليها ، يعدّهُ سواه رباعية مدخولة عليها غبار كثير .

أما أنا فأعترف بعجزى عن تمييز رباعيات الخيام مما عداها تمييزاً تطمئن إليه نفسى ، لهذا أنفض يدى من هذه المهمة التى تبدو أقرب إلى المحال . وقد جمعتُ فى هذا الكتاب ما استحسنت من جمهرة الرباعيات ؛ فإلاّ تكن كلها للخيام فلا بد أن الكثير منها له . وما أحسب أن ما فيها يخالف رأيه ، ولا إخاله يستاء لو عاد إلى الحياة وقرأ هذه المجموعة فوجد فيها ما ليس له من رباعيات قد عُزِي إليه ، بل لعله يؤسفه إغفالى بعض رباعيات له أهملتها لتكرارها أو لإسقافها ظنًّا منى أنها محمولة عليه . ومهما يكن من الأمر فإن مجموعتى هذه جامعة أكثر منها مانعة ، ولا بد أن يكون فيها رباعيات ليست للخيام .

وإنما هى فى مذهبى رباعيات « مدرسة الخيام » تمثّل أفكار الخيام وطائفة من مثقّفى عصره وما تلاه من عصور فى فارس ، كما كانت رسائل « إخوان الصفاء » مثلا تصور أفكار طائفة أخرى فى بلاد العرب .

وأما الرباعيات الستّ والستون فقد ترجمتُ منها سبعاً وأربعين ، أشرت إليها بجانب أرقامها بهذه العلامة (*) تمييزاً لها ، لكى يتبينها القارئ ويتخذ منها مثالاً يقيس عليه بقية الرباعيات ، إذا هو شاء القياس . وأما الرباعيات الأخريات

التسع عشرة اللواتى أهملتهن فإنما أهملتهن لغثاثة معناهن أو تكرره فى رباعيات أقوى منهن أو أدقّ ، مما تخيّرته من مختلف النسخ .

على أننى لا أريد أن أقول إنّ لنا ملء الحرية فى أخذ كل ما يقع بأيدينا من رباعيات بحجة أنها من رباعيات « مدرسة الخيام » ولا أن أنكر كل فائدة للقياس على هذه الرباعيات الست والستين ، ولكنى إنما أردت أن أقول إن هذه الرباعيات الستّ والستين ليست كل رباعيات الخيام فهى ليست جامعة ، وإن فيها ما ليس للخيام فهى ليست مانعة . وقد أسقط المرحوم فروغى نفسه اثنتين منها فلم يذكرهما فى مجموعته[1] .

شعره العربى

وما دمنا نريد أن نقيس مضطرين ما لا نعرفه على ما نتوهم أننا نعرفه ، فقد خلص إلينا شعر عربي للخيام لم يطعن أحد فى صحته فيما أعلم ، والرأي أن نضيفه إلى الرباعيات المعتمدة التى

(١) هما الرباعيتان ١٧ و١٣٤ من مجموعتنا . حذفهما لسبب لم يذكره ، بدلا من حذف غيرهما من رباعيات سقيمة .

نفترض صحة معظمها ، فذلك أعْوَن لنا على القياس . وهو على كل حال قليل أُثبِتُه فيما يلى :

١

تَدِينُ لِيَ الدنيا ، بل السبعةُ العُلَى
بل الأُفقُ الأعلَى ، إذا جاش خاطرى !
أصومُ عن الفحشاء ، جهراً وخفيةً
عفافاً ، و إفطارى بتقديس فاطرى
وكم عصبةٍ ضلّتْ عن الحقِّ فاهتدَتْ
بطُرْقِ الهدَى من فيضِيَ المتقاطرِ
فإنَّ صراطى المستقيمَ بصائرٌ
نُصِبْنَ على وادى العمَى كالقناطر !

٢

إذا قنعَتْ نفسى بميسورِ بُلْغَةٍ
تحصّلها بالكدِّ كفّى وساعدى
أمنْتُ تصاريفَ الحوادث كلِّها
فكن يازمانى مُوعِدِى أو مُوَاعدى !

ولى فوق هام النيِّرَيْنِ منـــازلٌ
وفوق مناط الفرقدَيْنِ مصـــاعدى
أليس قضى الأفلاك[1] فى حكمها بأنْ
تعيـــدَ إلى نحسٍ جميع المَساعدِ ؟
فيا نفس صـــبراً فى مقيلك ، إنما
تحرُّ ذُرَاه بانقضـــاض القواعد
متى ما دنت دنيـــاك كانت بعيدةً
فوا عجباً من ذا القريب المبـــاعد !
إذا كان محصول الحيـــاة منيّةً
فسيَّانِ حالا كلِّ ســـاعٍ وقاعد !

٣

سبقتُ العالمين إلى المعـــالى
بثاقبِ فكرةٍ وعـــلوِّ همَّهْ
فلاحَ بحكمتى نورُ الهـــدى فى
ليـــالٍ للضَّـــلالة مدلهِمَّهْ

(١) ربما كان الأصح : أما قضت الأفلاك . وقد وردت فى شعره العربي بعض أخطاء صححناها بمقابلة مختلف الروايات .

يريد الجاحدون ليطفئوهُ
ويأبى اللهُ إلا أن يتمّه !

٤

ألعقل يعجبُ فى تصرُّفِهِ
ممَّن على الأيّام يتَّكِلُ
فنوالها كالرّيح منقلِبٌ
ونعيمها كالظلِّ منتقل !

٥

زجّيتُ دهراً طويلاً فى التماسِ أَخٍ
يرعَى ودادى إذا ذو خلّةٍ خانا
فكم أَلِفتُ وكم آخيتُ غيرَ أَخٍ
وكم تبدَّلتُ بالإخوان إخوانا
وقلتُ للنفس لما عزَّ مطلبُها
باللهِ لا تألفى ما عشتِ إنسانا

وإنا ليسعنا أن نطمئنّ إلى صحة نسبة هذه الأبيات ، فأسلوبها كما يرى القارئ أشبه بالعلماء منه بالشعراء . وإن ما فيها

من استعارات وتشابيه ، وذكر للأفلاك ، والمناحس والمساعد ، وانقضاض القواعد ، وانقلاب الريح ، وانتقال الظل — يشير إلى أن قائلها من المشتغلين بالطبيعة والأفلاك . فهى من هذه الناحية أدلُّ على الخيام حتى من رباعياته الفارسية . على أن معانيها ، باستثناء الفخر ، تطابق معانى الرباعيات مطابقة ممتعة . بل إن الفخر ليؤيد لنا بعض التأييد صحة الرباعية التى نفاها عنه روزن وفروغى ، فيما تقدَّم بنا من البحث . والفخر وإن كان شائعاً فى شعره العربيّ ، قليلٌ فى رباعياته الفارسية . ولا أدرى لماذا أفرغ معظم خيلائه ومباهاته فى هذه الأبيات العربية على قلَّتها . فلعله كلما انتابته نزوة من العجب بنفسه وحكمته لجأ إلى لغة الضاد ، لشيوع الفخر فى شعر العرب .

وإذا اتخذنا هذه المقطوعات العربية محكاً للرباعيات وجدنا أن قوله :

تدينُ ليَ الدنيا ...

أشبه بقوله فى إحدى رباعياته :

فُصِّلت أسرارُ دنياكم لدينا فى الدفاتر

وأن قوله فى نفس البيت :

... بل السبعةُ العُلَى

بل الأُفُقُ الأعلَى ، إذا جاش خاطرى

يذكّرنا برباعيته :

قد حللنا معضلاتِ الكون طرًّا للمِلَلْ
من حضيض الأرض تالله إلى أوجِ زُحَلْ
ووثبنا من أحابيلِ خداعٍ وحِيَلْ
ففضحنا كلَّ سرٍّ ...

وأما قوله :

إذا قنعت نفسى بميسور بلغةٍ
تحصّلها بالكدِّ كفِّى وساعدى
أمنتُ تصاريف الحوادث كلِّها
فكن يا زمانى موعدى أو مواعدى

وقوله :

أليس قضى الأفلاك فى حكمها بأن
تعيد إلى نحسٍ جميعَ المَسَاعد ؟

فما أكثر ما ينطبق عليه من رباعيات . وأما قوله :

إذا ما دنت دنياك كانت بعيدةً
فواعجبًا من ذا القريب المباعد

فيذكّرنا بهذه الرباعية التى يَعْرِض فيها لأمثال هذه المتناقضات :

كلما باعدتُ نفسى زدتُ من نفسى دُنُوًّا !
وأرانى أتدلَّى كلما رمتُ عُلُوًّا !
يا لها خمرِ وجودٍ أحتسيها ، بيد أنى
كلما زدت بها سكرًا أرانى زدتُ صحوًا !

وأما قوله :

فكم أَلفتُ وكم آخيت غير أخٍ
وكم تبدَّلت بالإخوان إخوانا
وقلت للنفس لما عزَّ مطلبُها
بالله لا تألفى ما عشت إنسانا

فأشبه بهذه الرباعية :

صاحِ أقلِلْ ما تمكَّنت عديد الأصدقاء
واصطحب إن شئتَ أهل الدهر لكن من بعيدِ
إن من تركنُ فى الدنيا إليه بالولاء
ليس فى باصرة العقل سوى خصمٍ لدودِ !

وأما قوله :

إذا كان محصـــول الحياة منيّةً
فســيّانِ حالا كلِّ ساعٍ وقاعد

فشبيه بر باعيته :

إن من فكّر فى الدنيا ابتداء وانتهاء
وجد الأفراح والأتراح فى الدنيـا سواء
ومصـير الطيب والخبث إذا كان الفناء
فلتكن إن شئت داء كلها ، أو فدواء !

وليس معنى هذا أن كل رباعيـة يتفق معناها مع شىء من شعره العربيّ فهي له ، ولـكنها إن لم تكن له كانت تتفق مع أفكاره ، وكان لنا أن نختارها ، حتى يثبت لنا أنها لسواه .

عقليتـــه

الخيام العالم

ما نكاد نجد فى تاريخ الثقافة الإسلامية كله عقلاً ممتازاً كعقل الخيام أحاط بكل ما كان معروفاً فى عصره من العلوم وألف بين متناقضاتها . فلقد جمع الفلك إلى الفقه ، والطب إلى قراءات القرآن ، والفلسفة إلى علوم اللغة ، والشعر إلى الكيمياء ، واللاهوت إلى الرياضيات . .

وكان فى هذه المواضيع كلها مبرّزاً ، معدوداً فى الطبقة الأولى من أحبارها المتوفرين عليها . يناظرهم فى فنونهم ، ويباريهم فى ميادينهم فيظفر منهم بالإعجاب والإكبار . ولكن عقله آثر من كل هذه العلوم أعسرها وأصعبها تحصيلاً فى ذلك العصر ، فنفذ إلى صميم العلم الخالص والفكر المطلق ، فتخصّص فى الفلك والرياضة حتى كان فيهما واحد دهره ، ورائد جيله .

كان أحد أعضاء اللجنة التى وضعت التقويم الجلالى على عهد السلطان جلال الدولة ملكشاه السلجوقى ، فجعلت يوم النيروز مبدأ السنة ، أى أول نقطة من الحمل على اصطلاح المتقدمين[1] . ويعدُّ هذا التقويم أصح من التقويم الجولياني ، وقريبا فى دقته من التقويم الغريغورى . ويفضّله بعضهم على هذا الأخير أيضاً .

ولم يذكر لنا المؤرخون صفة الخيام فى هذه اللجنة ومكانته بين أعضائها ، ولكن الأرجح أنه كان رئيسها . يدلّ على هذا ما حكاه القزوينى حيث قال : « وكان — أى الخيام — فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى ، سلّم إليه مالا كثيراً ليشترِيَ به آلات الرصد ويتخذ رصد الكواكب ، فمات السلطان وما تمّ ذلك[2] » وكان هذا سنة ٤٦٧ هـ أى نفس السنة التى اجتمعت فيها اللجنة لوضع التقويم . فلو لم يكن أعلم القوم فى

---

(١) لا زال النيروز رأس السنة فى إيران ، وهو أول أيام الربيع (٢١ آذار) الذى يتساوى فيه الليل والنهار، وأكبر الأعياد لدى الإيرانيين شعباً وحكومة ، من قديم الزمان . فهو عيد الطبيعة ورأس السنة حقا .

(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزوينى — « آثار البلاد وأخبار العباد » تأليف سنة ٦٧٤ هـ .

الفلك لما آثره السلطان بمهمة إنشاء الرصد . والواقع أن بعض الرواة يقول ان السلطان عهد بإنشاء الرصد إلى جماعة من الفلكيين منهم شاعرنا الخيام . ولكن الظاهر أنه كان أرجحهم ، فإنَّ تفوقه أمرٌ ذكره غير واحد من الرواة القدامى .

أما فى الرياضة فقد بقي لنا كتابه القيّم « الجبر والمقابلة » الذى حلّ فيه بعض ما كان مستعصياً على متقدميه من مسائل الجبر والهندسة ، فأضاف بذلك ثروة جديدة إلى ثروة العلم[1] .

وكان فوق هذا طبيباً نطاسيا ، بلغ من حذقه و بعد صيته أن دُعِيَ لمعالجة السلطان سنجر حين أصابه الجدرى فى صباه .

وكان مبرزاً فى علوم الطبيعة فعدُّوه « تلو أبى عليّ — أى ابن سينا — فى اجزاء علوم الحكمة[2] » .

وأما التاريخ والجغرافيا وعلوم اللغة وعلوم الدين فقد بلغ فيها ما بلغ أصحابها المنقطعون لها ، وقد تأدَّى إلينا فى هذا خبر طريف رواه البيهقيّ[3] حيث قال : « ... وقيل دخل الإمام عمر يوماً

---

(١) حلّ فى هذا الكتاب المعادلة ذات الدرجة الثالثة بطريقة هندسية . وقد ألفه بالعربية كأكثر كتبه . طبع بالعربية والفرنسية فى باريس سنة ١٨٥١ م .

(٢ و ٣) « تتمة صوان الحكمة » ، وقد مرّت الإشارة إليه فى الحاشية .

على شهاب الاسلام الوزير . . وكان عنده إمام القرّاء أبو الحسن الغزّال ، وكانا يتكلمان فى اختلاف القرّاء فى آية ؛ فقال شهاب الإسلام : على الخبير سقطنا ! فسأل الإمام عمر عن ذلك فذكر وجوه اختلاف القرّاء ، وعلّل كل واحد ، وذكر الشواذ وعلّلها ، وفضّل وجهاً واحداً على سائر الوجوه . فقال إمام القرّاء أبو الحسن الغزّال : كثّر الله فى العلماء أمثالك ! اجعلنى من أدمة أهلك وارض عنى ، فإنى ما ظننت أحداً من القراء فى الدنيا يحفظ ذلك و يعرفه ، فضلا عن واحد من الحكماء ! . . » .

فإذا كان هذا مبلغ علمه فى مثل هـذا الفنّ الخاصّ الذى قلّ من يطلبه ، فما بالك بالعلوم الشائعة الأخرى من فقه وتفسير وحديث وكلام ؟

وقد كان الأقدمون يعرفون له هذا التفوق و يشيدون به ، فما وقعت عينى على اسمه فى إحدى الروايات إلا مقروناً بالتبجيل . ولئن طعن بعضهم فى دينه فما طعن أحد منهم فى علمه أبداً . حتى الشيخ الرازى[1] الذى استشهد على ضلال الخيام برباعيتين ذكرهما ، أغدق عليه ما شاء من صفات المديح قبل أن ينعته

---

(١) مر ذكره فى الحاشية .

بالضلال ، فقال : « . . حتى أن أحد الفضلاء المشهور لديهم بالفضل والحكمة والكياسة والمعرفة ، وهو عمر الخيام ، قال من فرط الحيرة والضلالة ... » ، ثم يذكر الرباعيتين[1] .

إلا أنه كان قليل التأليف ، فلم يترك لنا من الكتب إلا « الجبر والمقابلة » الذى سلفت الإشارة إليه ، وإلا عدداً قليلا من الرسائل فى شتّى أصناف علوم الطبيعة . والحق أن المتقدمين ذكروا له هذا الاقلال أيضاً وعابوه عليه ، فعدَّه بعضهم من باب البخل بالمعرفة .

الخيام الفنان

كان عبقرينا الفلكيّ بالإضافة إلى كل علمه هذا أديبا شاعراً ، يذوق الأدب ويحفظ الشعر ، ويقرضه بالعربية على قلّة طوراً ، وبالفارسية أطوارا . وقد خلّف لنا هذه الرباعيات الباهرة المتألقة فى سماء الأدب الفارسي خاصة ، والأدب الشرقى عامة ، تألق النجم الوهاج . وهى من أنفس ما أنتجته الثقافة الإسلامية فى كل عصورها ، وأشهر كتاب شرقي على الإطلاق

(١) هما الرباعيتان ٩٥ و ٧٤ من هذه المجموعة .

فى الشرق والغرب ، والغرب على الأخص . وما من لغة حيّة إلا وقد ترجمت إليها الرباعيات أكثر من مرة ، فما ينازعها من تراث الشرق فى ذيوعها فى العالم اليوم إلا « ألف ليلة وليلة » وهو كتاب لا يعزَى الفضل فى تأليفه إلى أحد ، فقد اشتركت فيه أجيال ومؤلفون .

عقيدته

من المؤمنين طائفة لا يحبّون أن ينسبوا أحداً إلى الكفر . فهم من باب التقوى ، يصِفون بالإيمان حتى من كان كفره صراحاً لا مرية فيه ، ولا سيما بعد وفاته ، على سنَّة : « اذكروا موتاكم بالخير » . وهؤلاء على طيب قلوبهم وكرم نفوسهم لا يصلحون لتمحيص التاريخ على أساس علمى . ومن هذه الفئة من عزا إلى النبيّ العربي أحاديث أرادوا بها إلى الإصلاح فأفسدوا ، فحكى بعضهم عن الرسول مثلاً أنّ من قرأ سورة الضُحَى صباحاً كان له أجر سبعين ألف ملك ، لكل ملك سبعون ألف رأس ، فى كل رأس سبعون ألف لسان ، كل لسان يسبّح الله بسبعين ألف لغة .. وأمثال ذلك من الأحاديث الموضوعة كثير . أرادوا أن يصلحوا بترغيب الناس فى تلاوة القرآن مثلاً فأفسدوا الدين وشحنوه بالخرافات ، كأنما توهموا أن

النبي كان عاجزا عن قول ما قالوا ، أو أنهم أوحِيَ إليهم من أمور الدين ما لم يُوحَ إليه ! ونسوا أن الحقيقة ضالة المؤمن ، وأن فى وصف أحد الزنادقة بالإيمان لضرراً بالغاً بالدين ، إذ يتوهّم سواد الناس أنّ ما قال ذلك الزنديق ليس زندقة ولا كفراً ، فيحذوا حذوه ويقولوا قوله . وليت شعرى ما يربح الدين من الزعم بأن بشار بن برد مثلاً مؤمن تقيٌّ ، وهو لا مؤمن ولا تقيّ ؟ حتى المعرّى والخيام ما الفائدة من ستر زندقتهما ، وقد كانا زنديقين ، وشعرهما الحافل بالزندقة ملء الأفواه ؟

إن الباحث الحقّ يجب أن يكون كالطبيب ، يشرّح ويتحرّى الحقائق الباردة بلا تستّر ولا تحرّج . الأعضاء عنده كلها سواء لا حرمة لبعضها دون بعض ، ولا فضل لبعضها على بعض إلا بالعافية . وإذا كان « لا حَيَاء فى الدين » فلا مداجاة فى العلم والتاريخ .

ولا أعلم هل كان المرحوم فروغى من هؤلاء الأبرار المفسدين حين نفى الإلحاد عن الخيام بالرغم مما فى رباعياته من صريح الإلحاد . فهو يدافع عنه ويتأوّل بعض رباعياته ، كأنما يدافع عن قريب له أمام المحكمة لينقذه من المشنقة ، ثم هو يتغافل

عن رباعيات له إلحاديةٍ لا تقبل التأوُّل ، كأنه لا يراها . وكان الخيام يكتم إلحاده فى حياته خيفةً على حياته ، أما اليوم وقد تصرّمت عليه طوال القرون فقد أنجاه الموت من خيفة الموت .

وما كان الخيام وحيداً فى إلحاده ، فى عصره ولا فيما سبقه أو تلاه من عصور . وقد كان عصره على الأخص يمور كالبحر الهائج ، تضطرب فيه العقائد وتتمرّد ، وتتلاطم — بعد أن حرّك ساكنَها انتشارُ الفلسفة اليونانية وذيوعُ زندقة الفرق الباطنية . فكان فى ذلك وفى فساد سيرة الكثيرين من رجال الدين ، ما عاون على فشوِّ الإلحاد بين عامة الناس كخاصتهم ، وجهلتهم كمثقفيهم .

وحجة المرحوم فروغى فى الدفاع عن الخيام هى أنه إنما كان يتساءل عن حكمة الله فى أمور لم يدركها عقله ولا عقل سواه ، وأن التساؤل ليس كفراً . « فالذى يلوم الخيام إذن بسبب إظهار حيرته فى شؤون الدنيا لم يفطن إلى أنه هو أيضا لم يفقه شيئاً وأنه جاهل مركّب ، وأن معنى كلامه هو أن الحقيقة لى ، فسلّم بالطاعة ودع عنك الفضول ، واطّرِح عقلك الذى أعطاكه الله لتنشد الحقيقة . وهذا هو الكفر فى شرع الحكمة والمعرفة »[1] .

(١) رباعيات حكيم خيام نيشابورى — ص ١٣ .

الحق أنه لا مجال للانكار أن بعض الرباعيات يمكن عدّه من باب التساؤل و إظهار الحيرة فى شؤون الدنيا ، على حد تعبير المرحوم فروغى . ولكن ثمة بعضاً آخر لا يأتيه الشك ولا يمكن عدّه إلا من باب الجحود و إظهار الكفران .

تأمّل هذه الرباعيات :

إنّ قرآنا دعَوْهُ فى الورى خير البيانِ
ليس يُتْلَى دائما ، بل بين آنٍ وأوانِ
وعلى الأقداح خُطَّتْ آيةٌ بيّنةٌ
أبدًا تُقْرَأُ ، فى كلِّ زمانٍ ومكانِ !

قيل لى : ما أطيبَ الجنّاتِ بالحور الحسانِ
بيد أنى قلتُ : ما أطيبها بنت الدنانِ !
فدع القرض ، عليك الآن بالنقد الوكيدِ
يا صديقى ، إنّ صوتَ الطَّبل يحلو من بعيد !

أبدع الصانعُ تركيبَ طباعِ البَشَرِ
فلماذا شانَها بالنَّقْص أو بالوضَرِ ؟
إن تكن جاءت ملاحًا ، فلماذا خَرْبُها ؟
أو تكن جاءت قباحًا ، فعَلَى مَن عيْبُها ؟

حارَ قومٌ بين شكٍّ ويقينٍ ، يا صديقُ
وأطال الفكْرَ فى المذهب والدين فريقُ
أنا أخشى أن يُنَادَى ذات يومٍ : أن أفيقوا
أيها الجهَّال ، لا هذا ولا ذاك الطريقُ !

أفهذا مقال من يتحرَّى حكمة الله ؟ وإن لم يكن هذا كُفرًا ، فالكفر كيف يكون ؟ إنّ هذه الرباعيات موجودٌ كلُّها فى مجموعة فروغى ، والأخيرتان منها من الرباعيات المعتمدة . وفى مجموعة فروغى من أمثالها ما يربو على العشرين !

الإلحادُ الرياضىّ

كان عقل الخيام رياضيًّا قبل كل شىء ، فهو أخو أعدادٍ مضبوطة ، وأشكال هندسية منتظمة . يحسبها بالمنطق الرياضىّ الدقيق الذى لا يقبل زيادةً ولا نقصاً ، ويقيسها بالأدلة الهندسية الموزونة التى لا تقبل تأوُّلاً ولا نقضاً . فالرياضة لا مذاهب فيها ولا جدَلَ ولا أحزاب — كما فى الدين والاجتماع والسياسة .

بهذه العقلية الرياضية نظر الخيام إلى الدين ، وناقش مسائله مناقشة مسائل الجبر والهندسة ، فما انتهى إلى نتيجة رياضية لا تقبل الجدل . وكيف يمكن أن يكون الدين كذلك ، وليس فى التاريخ ما أثار الجدلَ واختلاف الآراء كالدين ؟

إننا نعلم أن المسلمين انقسموا إلى نحو سبعين فرقة ، لكل منها كُتبها وأحبارها وعقائدها ، وقعت بينها إلى جانب المناظرات والمهاترات حروبٌ سُفِكت فيها الدماء ، ولم يمنع ذلك أن يكونوا كلهم مسلمين . فأما مسائل الرياضة فلا فِرَقَ فيها ولا حروب ، يتّفق فيها الناسُ على اختلاف مللهم وأجناسهم . فإذا عرضتَ مسألة رياضية على مسلم فى الحجاز وكنفوشيوسيٍّ فى الصّين كان جوابهما واحدًا . فإذا اختلفا فلا بد أن يكون أحدهما ، على الأقل ، مخطئاً ؛ ولا مفرّ له من التسليم بخطئه إذا أرشدته إليه . وأما إذا اختلف اثنان فى مسألة مذهبيّة ، ولو كانا من دين واحد ، فالأمل جدُّ ضعيفٍ فى وصولهما إلى نتيجة يتّفقان عليها . ذلك بأن الدين أمرٌ روحانيّ إلهاميّ ، لا ماديّ ولا حسابيّ .

ومعلومٌ أنه لا بدّ لذى الدِّين من الإيمان بأمور فوق إدراك

عقله ، وعلى هذا الإيمان يبنى إيمانه بما يدخل فى متناول عقله . فإذا عَرَضَت له قضية لا يفقهها سلَّم بأن عقله أصغر من أن يدركها . أما محاكمة كل مسألة على هذا النحو الرياضيّ فخليقٌ بأن ينتهي بالمرء إلى مثل ما انتهى إليه بالخيام من حيرة وإنكار .

انظر إلى هذه المسألة الحسابية :

قيل فى الجنّة حُورٌ قاصراتُ الطَّرْفِ عِينْ
وخمورٌ جارياتٌ فى نهورٍ وعُيـــونْ
أيّ ضَيْرٍ إن طلبنا الحُورَ والخمرَ هنا ؟
إنّ هذا هو عقبَى الأمر فيما يذكرون !

فهو يأتيك أولاً (بالفرضية) ، ثم يأتيك (بالبرهان الرياضيّ) .

وانظر إلى المعادلتين التاليتين :

أنت يا ربِّى كريمٌ ، أنت ذو لطفٍ ومَنِّ
فلماذا تطرد العاصيَ عن جنّة عَدْنِ ؟

ليس جودًا منك أن تعطيَنى عن حسناتى
إنما جودك أن تُؤْتِيَنى عن سيّئاتى !

وتأمّل هذه المناقشة الغريبة :

يعلَمُ اللهُ بشربى هذه الصهباء ، قِدْما
فإذا لم أحسُها لم يك عِلمُ الله عِلما

واقرأْ هذا الاستنتاج الطريف :

قال من صارت لهم فى العلم والتّقوَى الإمامَهْ :
« يُحْشَرُ المرء على ما كان إذ لاقَى حِمَامه »
فلنلازم ويحك الحســـناء دَوْمًا والمُدَامَهْ
فعسانا هكذا نُحْشَرُ فى يوم القيـــامه !

لقد كان يدرك من غير شك ما فى هذا الاستنباط الأخير من مغالطة ، ولـكنه فيما يبدو أعجبتـه النكتة فى منطقها الظاهرىّ وسترى الـكثير فى رباعياته من أمثال هذه المناقشات والمغالطات .

وشغلت فـكره قضيةُ الثواب والعقاب باعتبارها ثمرة الائتمار بأوامر الدين والانتهاء عن نواهيه ، ولـكن عقله لم يهدِه إلا إلى الإنـكار .

يا فؤادى ، لم يَرَ الجنّةَ والنـــار بشَرْ
أم أتَى من ذلك العَالَمِ آتٍ بخـــبَرْ ؟
إنَّ ما نخشَى وما نرجو مَنُوطان بشىءٍ
ليس يبدو منه إلا اُسْمٌ ووصفٌ للنظر !

ثم يُفضِى به طول التفكير فى الموضوع إلى هذه النتيجة :

كرَّ بى الفكرُ إلى أول يومٍ فى الخليقه
ناشداً فى اللّوح والجنّـــةِ والنار الحقيقه
وإذا العقـل ينادى قائلًا : ما أضيعك
ويك إنّ اللوحَ والجنـةَ والنـار معك !

ومن أهمّ ما يستغرق تفكيرَهُ كذلك مسألةُ القضاء والجبر تلك المسألة العويصة التى شغلت أذهان المفكرين فى كل زمان ومكان ، من ملاحدة ومؤمنين . وقد انتهى منها الخيام كما انتهى الكثيرون من ملاحدة ومؤمنين ، إلى أنّ الإنسان مسيَّرٌ لا خيرة له فى شيء ، من يوم خُلِقَ إلى يوم يموت . فكان ذلك من جملة الأسباب التى أدّت به إلى إنكار الثواب والعقاب ، والكفران بذات الله .

قلمُ المقـــدار أجرَوْهُ بأمرى دون أمرى !
فلماذا ساءلونى منـــه عن خيرٍ وشرّ ؟

ذهبَ الأمسُ بدونى ، وأتى اليومُ بدونى
فغداً بالله ما حجّتُهم إن حاسبونى ؟

وقد عمد إلى علم الكلام فجعل يناقش صفات الخالق فى رباعيات له وافرة العدد ، على طريقته الجدلية الرياضية . منها :

قيل لى : ثَمَّ حسابٌ وعقابٌ يومَ حشرِ
يوم يشتَدُّ الحبيبُ المرتجَى فى كلِّ أمرِ
ليس عند الخيِّر المحض سوى الخير لعمرى
فاغتبط ويك فعقبَى الأمر ليست غير خير

إننى يارب عبدٌ مذنبٌ ، أين رضاؤك ؟
وفؤادى كالدَّياجى مظلمٌ ، أين ضياؤك ؟
وإذا أعطيتنا الجنّـــة بالطاعة منـا
كان هذا منك بيعاً ، أين يارب عطاؤك ؟

يا إلهى ، أنا من قد برأتنى قـــدرتُك
وترعرعتُ عزيزاً ، دلّلتنى نعمتُـــك
سوف أمضِى فى المعاصى جاهداً سبعين عاماً
لأرى معصيتى أوســـعُ أم مغفرتُك

مقارنة بين زنديقين

أبو العلاء المعرّى أيضاً أنكر الدين وكفر ، ولـكنّه وقف عند حدّ ، أما الخيام فقد مضى فى كفرانه إلى النهاية .

ثار المعرّى على المجتمع وانتقد أخلاق بنيه وكذلك فعل من بعده الخيام ، وثار على المشعبذين من رجال الدين وحمل عليهم ، وكذلك فعـل الخيام ، وثار على الدّين كذلك وكذلك فعل الخيام ، ثم قرَّ عند هذه المرحلة وأقام .

قال المعرى فى إنكار دين الإسلام وكلّ دين :

هفَتِ الحنيفةُ والنّصارى ما اُهتدَتْ
ويهـــودُ هامت والمجوسُ مضلّلَهْ

إثنان أهل الأرض : ذو عقـــل بلا
دينٍ ، وآخرُ دَيِّنٌ لا عقـــلَ لَهْ !

ولـكنه تحيّر فى أمر البعث بعد الموت ، فأنكره مرة ، وآمن به مرة ، وتردَّد فيه طويلا . فمن إنكاره قوله :

تحطِّمنا الأيامُ حتى كأننـــا
زجاجٌ ، ولـكن لا يُعَادُ له سبْكُ

ومن إيمانه قوله :

قال المنجِّم والطبيبُ كلاهُما :
لا تُحشَرُ الأجسام . قلتُ : إليكما
إن صحَّ قولـكما فلستُ بخاسرٍ
أو صـــحَّ قولى فالخسارُ عليكما !

وكأنه نظر فى هذا إلى الخيام نفسه ، فقد كان منجِّماً وطبيباً ، فكان بذلك على صـلة وثقى بأسرار الـكون وعجائبه ؛ يُرِيه الفلكُ عظمة الأجرام الضّخمة ومسافاتها الشاسـعة لا يدركها الفكر ، ويُظهِره الطبُّ على أسرار جسم الإنسان وهو أعجب جهاز وأدقّه على سطح هـذه الـكرة الشريدة التائهة . ناهيك

بما يقترن بهذا الجرم الصغير ، الذى انطوى فيه العالم الأكبر ، من نفسٍ زاخرة بالأحاسيس وعقلٍ حافلٍ بالأخيلة والأفكار — مما يكاد يجعله على ضآلته أضخم من الأفلاك وأفسح أبعاداً .

ومن عادة المؤمنين إذا أرادوا إثبات وجود الخالق أن يتفكروا فى خلق السموات والأرض كالفلكيين ، أو فى خلق أنفسهم كالأطباء — فيستدلّوا بالصنيع على الصانع . ولكن يظهر أن المنجم والطبيب كانا مضرب المثل فى الكفر فى ذلك الزمان فقرنهما المعرى .

ولست أعلم هل كان شيخ المعرة جادًّا أم هازلا حين ردَّ على الطبيب والمنجم إنكارهما المَعَاد ، وأثبت إيمانه هو على هذا النحو الصيرفيّ ، فى حسبان الربح والخسارة . ولكنى أذكر أنى مذ وقعَت عينى على هذين البيتين ، فى صغرى ، وقع فى نفسى أنه يتهكّم .

على أن له أقوالاً غير هذا لا تهكّم فيها ، أدلّ على إيمانه بالحشر ، منها :

إذا ما أعظُمى كانت هباءً فإنّ الله لا يُعْيِيه جمعى

ولـكنه وقد آمن بحشر الجسد هنا ، نجـده يقول فى مكان آخر :

أما الجسوم فللتراب مآلها وعييتُ بالأرواح أنّى تسلكُ !

ثم يعود فيقول فى مكان آخر :

وإن صدئت أرواحُنا فى جسـومنا

فيوشك يومًا أن يعاوِدَها الصـقلُ !

ثم هو يقول مترددًا متحيِّرا :

إن يصحب الروحَ عقلى بعد مظعنها

للموت عنى ، فأجدِرْ أن ترى عجبا !

وإن مضت فى الهواء الرَّحب هالـكةً

هلاكَ جسمِيَ فى تربى ، فواشجبا !

فمن العبث إذن أن نحاول تحديد عقيـدة المعرى فى الحشر تحديدًا دقيقاً وهو نفسه حائر فى أمره ، عاجز عن تحديد عقيدة نفسه فى الجسم والروح ، وفى رأيه فى خلودهما أو فنائهما .

وأما الخيام فقد أنـكر الحشر بجملته ، فلم يذكر جسما ولا روحا :

أيّهذا الغافل الجاهلُ ما أنت نضارٌ
فيواروه الثرى كي ينشروه بعد طيِّ

هـذا إلى أنه ليس فى رباعيات الخيام ما يجحد به الروح ، بل إن له ما يدل على إيمانه بوجوده مع الجسم ، فالمفهوم من نكرانه البعث إذن أنه يعتقد بفنائه مع الجسم .

ولـكنّ المعرى آمن بالله بعد أن كفر بالدين وشكَّ فى المعاد ، أما الخيام فقد كفر بالله أيضاً .

قال المعرى :

أثبتُّ لى خالقاً حكيما ولستُ من معشرٍ نُفَاةِ

وقال الخيام :

قال لى القلبُ : هو العـــلْمُ اللدنِّيُّ خَيَـــالُ
فإذا اسطعتَ فعلِّمنِيَ منـــه ما يُقالُ !
قلتُ فاسمعْ ، أَلِفٌ . قال : تمهَّلْ ويكَ يكفِي
إن يكن فى الدار من يُسْمَى فحسى فَرْدُ حرفِ !

تناسخ الأرواح

وتوهَّم بعضُ المتوهّمين أن الخيام كان يعتقد بتناسخ الأرواح ، ستنادًا إلى رواية تزعم أنه لما كان أستاذاً فى مدرسة نيسابور شاهد مع تلاميذه حمارًا كان ينقل الآجرّ لترميم المدرسة ، حَرَنَ ووقف بالباب فلم يدخل . فتبسم الخيام ودنا من الحمار وأنشد فى أذنه هذه الرباعية على البديهة :

أيها الذاهب ، ها قد عُدتَ حيواناً أضلاّ
ويك ضاع اسمك من بين الأسامى واضمحلاّ
إن أظفارك صـــارت حافراً مجتمعاً
وغدت لحيتك الشمطاء فى عجزك ذيلا !

فدخل الحمار . فلما سئل الخيام عن ذلك قال لهم إن هـذا الحمار كان أستاذاً فى هذه المدرسة ، فلما مات تقمّصت روحُه جسمَ حمار ، فاستحيَى أن يدخل . غير أنه لما وجد أصحابه قد عرفوه لم يجد مناصاً من الدخول[1] !

(١) أحمد بن نصر الله التتوي السندي المعروف بأكبر شاه الهندى — « التاريخ الألفى » تأليف سنة ١٠٠٠ هـ . ولا نعلم المصدر الذى أخذ عنه هذه الرواية ، فهي لم يذكرها مَن تقدمه من الرواة فيما يظهر .

فإن كان لهذه الحكاية من الحقيقة نصيب ، فلقد حدثت لأحد ما ، فلما ذاعت عُزِيتْ إلى الخيام لشهرته ، فعفّى الزمان على اسم صاحبها . وإن تكن وقعت للخيام فلا بدّ أنه قال هذه الرباعية سخريةً بالبشر ، وتهكماً بالأستاذية . وله فى الأستاذية مثلاً هذه الرباعية :

قد لزِمْنَا فى صبانا مجلسَ الأســـتاذ حينا
ودُعِينـــا بعـدُ أســتاذاً ففزنا ورضينا
فاســـتمع آخرة الأمر إلى أين انتهينا :
من ثرى الأرض خرجنا ، ومع الريح مضينا

وأيًّا كان قائل هذه الرباعية الحماريّة فإن أسلوبها لا يدلّ على أن صاحبها يؤمن بتناسخ الأرواح ، فإنّ ما فيها من مزاحٍ قاسٍ وسخرية تثير الضحك يوجب علينا أن نستنتج أن قائلها — سواء أكان الخيام أم سواه — يكفر بتناسخ الأرواح ، ويهزأ به وبمن يعتقد به . وقد سخر فيلسوف المعرة كذلك من هذه العقيدة العجيبة حيث روى فى رسالة الغفران على لسان بعض النصيريّة هذين البيتين[1] :

(١) الدكتور طه حسين — « تجديد ذكرى أبى العلاء » .

إعْجَبى أُمَّنَا لصرفِ اللّيالى جعلَتْ أختَنَا سكينةَ فاره !
فازجرى هذه السنانير عنها وأُتركيها وما تضمُّ الغراره !

وإنما تنبئ رباعيات الخيام أنه كان يؤمن « بتناسخ الأجساد » إن صحَّ التعبير . تستحيل ترابا بعد موت أصحابها ، ثم تكون أجساداً لسواهم ، ثم تعود تراباً ، ثم تصير أجسادا . .

كان من قبلك فى الدنيا رجالٌ ونساء
زيَّنوا الآفاقَ ، كالأنجم لاحوا وأضاءوا
سوف يغدو جسمُك المختالُ طيناً ، فهو طينٌ
كان جسماً لألوف الناس من قبلك جاءوا

إلحادٌ وتقيَّـــة

ومن عجائب المرحوم فروغى وقد أثبت إيمان الخيام وسلامة عقيدته — أن نفَى عنه كل رباعية فيها تديُّن وإيمان ، بحجّة أنّ هذه الرباعيات الدينية على العموم ضعيفة المعنى ، لا إبداع فيها ولا عمق تفكير . والحق أن فروغى ليس وحيداً فى نبذ هذه الرباعيات ، فإن المتأخرين من الباحثين ، ولا سيما الغربيين ،

كلهم على هذا الرأي . وما كان من فروغى إلا أن شايعهم .

أما أنا الذى قلت بإلحاد الخيام على العكس من فروغى ، فأعتقد على العكس منه أيضاً ، أن للخيام رباعياتٍ دينية كأمثال رباعيات المؤمنين الأبرار . وتعليل ذلك يسير ، فقد قالها تمويهاً وتقية . يدرأ بها عن نفسه قالة السوء وتهمة الكفر ، تلك التهمة الخطيرة التى كثيراً ما أدّت بأصحابها إلى القتل حرقاً بالنار أو رجماً بالحجارة أو ضرباً بالسيف . وأمثال ابن المقفّع والحلاج ليسوا بالقليلين .

فليس ببعيد إذن أن يتّقي الخيام القتل ببضع رباعيات ينظمها إيهاماً للناس . وإخاله قد هيّأ عدداً منها فى جيب ذاكرته ، فإذا سأله أحد الشانئين عن رباعياته يريد بذلك إحراجه فى مجلس من رجال الدين مثلا — تلا عليه الخيام بعض الرُّقَى من هذه الرباعيات الدينية يتخلص بها من مأزقه . فهى سلاحٌ أشبه بسلاح سامّ أبرص ، إذا دهمه عدوٌّ ترك له ذيله يتلوّى بين يديه ويشغله ، ونجا هو بنفسه .

وعندى على ذلك أكثر من دليل . وإليك أولا مقطوعته العربية هذه ، وما أحسبك نسيتها :

تدينُ لِيَ الدنيا بل الســـــبعةُ العُلَى
بل الأُفُقُ الأعلى ، إذا جاشَ خاطرى
أصوم عن الفحشاء ، جهراً وخفيةً
عفافاً ، وإفطارى بتقـــديس فاطرى
وكم عصبةٍ ضلَّت عن الحقِّ فاهتدت
بطُرق الهـــدى من فيضِيَ المتقاطر
فإنّ صراطى المســـــتقيمَ بصائرٌ
نُصِبْنَ على وادى العمى كالقنـــــاطر

فـكفره فى البيت الأول صراح لا لَبْسَ فيه . فما اكتفى بأن تدين له الدنيا ثم السبعة العلى ، وإنما تطاول إلى الأفق الأعلى أيضا . وكلا الاصطلاحين « السبعة العلى » و « الأفق الأعلى » تعبير قرآني . وكأنَّ هذا المعنى ظل يجيش فى نفسه فلم يطق إلا أن ينفثه فى هذا البيت ويستريح ، على الرغم من خشيته مغبَّةَ هذا التجديف . ولـكن الخشية دفعته إلى أن يدسّ البيت الثانى :

أصوم عن الفحشاء جهراً وخفيةً
عفافا ، وإفطارى بتقديس فاطرى !

تمويهًا وتضليلا . وإنَّ وضع هذا البيت بعد سابقه مباشرة ليبعث الابتسام من هذه المحاولة الماكرة . ومن الطبيعى أن يكون هذا البيت — الذى قاله مكرها ليعبِّر فيه عن نقيض عقيدته — متكلَّفا ، ضعيف المعنى ، مزوَّقَ الألفاظ . ثلاث صفات ينفيها فروغى عن شعر الخيام ، فى أكثر من مكان من مقدمته .

وأحسب أن الخيام نظم فى أول الأمر ثلاثة أبيات ، ثم صنع هذا البيت فخشره مخالسةً بعد البيت الأول عسى أن يخفف من وقعه . وقد غيَّر هذا البيت معنى البيتين اللذين يليانه كل التغيير ، فإن شئت أن تعرف قصد الخيام فاحذفه واقرأ الأبيات الثلاثة من جديد . وكأنك به يقول عندئذ إنه فى الإلحاد إمام مجتهد ، له أتباع مقلدون ، يقودهم إلى سواء السبيل ، فى وادى العمى ، الذى يقصد به « الإيمان » فيما يبدو .

والتقيّة معروفٌ أمرها فى تلك العصور . ولقد أباح الشرع للمسلم اجتراح المحرمات عند الضرورة وخشية الهلاك ، من شربٍ للخمر وأكلٍ للحم الخنزير وكذب . فلئن اقترف المؤمنون المحرمات اضطراراً ، فقد أباح الملحدون لأنفسهم التظاهر

بالتقوى ، اضطراراً أيضا . وناهيك بفيلسوف العرب المعرى واستقامته فى حياته وصبره على مكاره الدنيا ، وهو الذى أخذ نفسه بعمل كل ما كان يعتقد أنه خير ، وترك كل ما كان يعتقد أنه شرّ ، حتى لقد انزوى فى بيته وقنع ببلغة العيش بعد أن عزف عن متع الحياة وطيّباتها من مالٍ وجاهٍ ومرأةٍ وخمرةٍ ولحم . ولكنه مع هذا لم يجد مناصا من التقية دفعًا للهلكة .

قال :

أُصدُقْ إلى أن تظنَّ الصدق مهلكةً
وبعد ذلك فاقعد كاذبا وقُمِ !

وقال :

لا تخبرنَّ بكُنْهِ دينك معشراً
شُطُرًا ، فإن تفعل فأنت مغرّرُ
وأصْمُتْ فإنَّ الصمتَ يكفِى أهلَهُ
والنطق يُظْهِرُ كامنًا ويقرِّرُ

وقال :

مالى رأيت دُعاةَ الشرّ ناطقةً
والرشدُ يصمت خوف القتل داعوه ؟

وقال :

إذا قلت المحالُ رفعتُ صـــوتى
وإن قلتُ اليقين أطلْتُ همسى !

ويقرب من هذا قول الخيام :

فُصِّلتْ أسرارُ دنيا كم لدينا فى الدفاتر
قد طويناها ، ففى النشر وَبَالٌ ومَخَاطِر
لم نَجِدْ فى الناس من يعقل من أهل البصائر
فغَـــدَا يُعْجِزُنَا إظهارُ ما تُخْفِي الضمائر

ويحكى لنا القفطيّ أن الخيام حجَّ البيت الحرام خوفاً على دمه « وأمسك من عنان لسانه وقلمه » وجعل بعد عودته إلى بلده يغدو إلى المساجد — تظاهراً بالإيمان . أفمَنْ يتجشَّم السفر من نيسابور إلى مكة فى ذلك العهد الذى كان فيه « السفر قطعةً من سقَر » لا يُجشِّم نفسه تزجية بضع رباعيات سقيمة متكلفة المعنى والمبنى ينجو بها بحياته ، فى ذلك العهد الذى ساد فيه التعصب ، فى نيسابور خاصة ، لسوء حظ الخيام ؟

ويذكر فردريك روزن رسالة للخيام فى مجموعة « روضة القلوب »[1] يريد ليستنبط منها عقيدة الخيام فيقول : «ولا يمكن فهم أفكاره الفلسفية فهماً كاملا من هذه النسخة أيضاً ، ولا يمكن حمل تضادٍّ أفكار عمر الخيام — كالاعتقاد بالله ورحمته من جهة ، وجور الخالق فى التقدير وغيره من جهة أخرى — إلا على سَعَة أفكاره وتنوّع نظرياته »[2] .

وأنا أستبعد أن تبلغ سعة أفكار الخيام وتنوع نظرياته من الخلط والتناقض هذا المبلغ الرائع ، وهو الرياضيّ الفذّ ، الدقيق الفكر . فالواضح أن حكيمنا الشيخ يضلّل ويراوغ ، فيقول أولاً ما يعتقد ثم يعود فيموّهه ويضيّع أثره بنقيضه ليستر إلحاده .

ولو قد فطن الدكتور فردريك روزن إلى نبوِّ البيت فى مكانه من المقطوعة العربية ، وإلى حجّ الخيام « متاقاةً لا تقية » على حد تعبير القفطى ، وإلى رباعياته التى يشكو فيها الناس لأنهم يحولون بينه وبين إعلان آرائه والإفصاح عن أسرار عقله — لغيَّر رأيه فى « سعة الأفكار وتنوع النظريات » .

---

(١) رسالة خطية موجزة كتبها الخيام لابن نظام الملك الوزير .
(٢) رباعيات حكيم عمر خيام . ص ٤٧

الصهباء والحسناء

الصهبـــاء

ما ترددّت كلمةٌ على لسان الخيام فى رباعياته تردّد الخمرة ، حتى لتخاله فى إدمانها والعكوف عليها قريع أبى نؤاس ، على حين أننا نجهل أنه قد ذاقها فى حياته قط . ولقد حدا هذا ببعضهم أن يتوهم أنه قصد بها الخمرة الإلهية ، وواضحٌ من تأمل رباعياته أنه لم يذق الخمرة الإلهية أبداً . فما كان الخيام صوفيا ، ولا كان له من الصوفية نصيب غير القناعة الأبيّة ، والعزوف عن زخارف الحياة ، واجتناب فتن السياسة ، إيثاراً للعافية ، وتفرغاً للعلم والتأمل . ولـكنه كثيراً ما حمل على المتصوفة فى رباعياته وسمّاهم بالزاهدين المنافقين ، كما فعل أبو العلاء . فإذا وجدتَ فى هذه المجموعة أو فى أى مكان ، رباعيةً فيها تشبيبٌ بالخمرة

ووجد بالحبيب ، واقتنعتَ أنها صوفية المغزى فاقتنع من فورك أنها ليست للخيام .

وإن كان أراد بالخمرة شيئاً غير بنت العنب فإنما كنّى بها عن عموم المعصية فى بعض الأحيان ، فاتّخذها رمزاً لما نهى عنه الدين من محرمات . كمثل قوله :

عِلمَ اللهُ بشربى هذه الصهباء ، قِدما
فإذا لم أحْسُها لم يك عـــلم الله علما

فهذا ينطبق على شرب الخمر وعلى كل معصية يرتكبها عمر الخيام .

ولـكن أتراه شربها قط ؟

عند استعراض رباعياته نجده إذا أخذت بخناقه الهموم دعا بالصهباء :

إســـقنى الجريال شقراء بلون الارجوانِ
أيها الساقى ، فإنى ضـــاق بالهمِّ جَنَانى
إســـقنيها تُذهِب العقلَ ولو بعض أوان
علّنى أذهل عن نفسى وأحداث الزمان !

وإذا ذكر الموت وأراد أن يغتنم فرصة الحياة دعا بالصهباء :

آتنى كأساً ودعنا اليوم نغنَمْ كلَّ أُنسِ
فغـــداً نصبح آجرًّا لقصرٍ أو لرمسِ

وإذا اشتهى أن يعتزل الدنيا مع الحبيب فالخبز والصهباء ، ثم الصهباء :

أنا إن فزتُ من القمح المنـقَّى برغيفِ
ومن الخمر بزقٍّ معه فخـــذ خروفِ
ثم أحيي وحبيب القلب فى عرضِ تَنُوفِ
فهى العيشة ، ما تاحتْ لذى الملك المنيفِ

وإذا رأيته اشتهى فخذ الخروف هنا ، فإنما هو نُقْلٌ من ملحقات الصهباء !

إن رباعيات الخيام مكتظَّة بذكر الخمرة ، يلهج باسمها أبداً هنا وهناك . فهل من المعقول أنه لم يشربها ؟

أما الذين يُؤثرون أن ينزِّهوا الخيام عن معاقرتها فيستدلُّون على ذلك بأننا لا نجد بين الروايات التى بأيدينا ما ينبئ بأنه كان يشربها . فهذا أضعف دليل . وقد رأينا أنّ معاصريه لم يكتب لنا عنه منهم إلا الأقلون ، وأن هؤلاء الأقلين لم يذكروا لنا شيئاً

فيه غناء . والواقع أن كل من كتب عنه من القدامى ، حتى الذين تلوه بقرون ثلاثة أو أربعة وكتبوا ما كتبوا على السماع والإشاعة — لم يخبرونا عنه إلا باليسير الذى لا يكاد يشفى غليلا .

انهم مثلا لم يخبرونا بشىء عن صباه ، فهل لنا أن نستنتج أنه لم يكن صبيًّا فى حياته ، وأنه إنما وُلد كهلاً عالماً قد أخذ من كل العلوم بطرف ؟ وهم لم يخبرونا كذلك بشىء عن أمه ، فهل يدلُّ ذلك على أن أباه إبراهيم قد ولده لغير أمّ ؟

وما دامت المسألة مسألة استنتاج فإنما يحق لنا أن نستنتج أنه شرب الطلا ، ولو على قلة — لأنه هو أقرَّ بشربها فى الكثير من رباعياته .

وحجةٌ أخرى يذكرها فروغى ، هى أن غيره من شعراء الفرس مثل سعدى وحافظ وجلال الدين قد ذكروا الخمر مع أن عفّتهم وزهدهم لا ترقى إليهما الرِّيَب . وهذا قول لا يخلو من وجاهة ، وقد ينطبق على مثل هذه الرباعية :

عسعسَ الليلُ فقم بالله ، يا كنزَ الدلالِ
إحتسِ الراحَ وناغِ العودَ ، حالاً بعد حالِ
فالمقيمون مقيمون إلى غـــير مطالِ
والذين ارتحلوا لن يرجعوا بعـد ارتحالِ

ولـكنه لا ينطبق على هذه الرباعية :

إنها الخمر ، حياةُ الخلدِ أو خلدُ الحياهْ
إنها حظُّك من عهـــد الصِّبا ، وهي مناهْ
ذا أوان الورد والخمرة ، والصَّحبُ نَشَاوَى
فاغنم الصَّفْوَ ، فإن العيش هـذا لا سواهْ

ولا هذه الرباعية :

إن آجرَّ سِدَادِ الدَّنِّ خيرٌ من عُلَى جَمْ
وشذا الأقداح أشهَى نكهةً من رزق مرْيَمْ
رُبَّ آهٍ يرسـلُ الخمَّارُ فى جوف الدُّجى
هى أحلَى من تسابيح أبى سعدٍ وأدهَمْ(١)

ولا هذه :

قيل لى : ثَمّة جنّاتٌ بها حُورٌ وكوثَرْ
وبها أنهار خمرٍ ، وبها شُهْدٌ وسكَّرْ !
فعلى ذكر الحميا هاتِ كأســـاً وتعجَّلْ
إنَّ نقداً فى يدى أفضلُ من ألفِ مؤجَّلْ !

---

(١) فى الأصل الفارسى « بو سعيد وأدهم » وهما صوفيان معروفان أما (جم) فاختصار لاسم جمشيد ، وهو ملك فارسى قديم .

ولا هذه :

إن أُتيحَتْ لى من الحُورِ كَعَابٌ فى الربيعِ
أتحسَّى من يديها الراحَ فى المرج المَرِيعِ
صاحِ مهما اشتدَّ قولى فى الورى قبحًا وهُجْنَهْ
فأنا أَدنَى من الكلب إذا استذكرتُ جِنَّهْ !

وهذه الرباعيات كلُّها موجودٌ فى مجموعة فروغى ، وأمثالها كثير .

فإذا كان فى مقدور فروغى أو غيره من أساطين الأدب والتحقيق أن يثبت لنا أن الخيام قصد فى هذه الرباعيات بالخمرة شيئاً غير الخمرة ، التى تُصَبُّ فى الأقداح ، وتؤخذ باليد ، وتُشرَب بالفم ، وتَلعب بالرؤوس — كان فى مقدوره أيضاً أن يبرهن لنا على أن كرة الأرض مكعبٌ قائم على قرن ذبابة لا قرون لها ! والحقُّ أن ثمة من فحول التأويل والتفسير مَنْ استطاع أن يثبت ما هو أروع من هذا من حقائق باطلة !

و إذا رجعنا إلى ما بأيدينا من روايات قليلة ألفينا أن الخمر كانت شائعة فى عصر الخيام ، وأنه كان يجالس الملوك وينادم العِلْيَة ، وقد كان لهؤلاء مجالس شرابهم ولهوهم ، فليس ببعيد على من ينادمهم أن يشاركهم .

وقد لحظتَ من غير شك أننى لم أجزم بأن الخيام كان يشرب الخمرة ، ولكنى لا أتفق مع من يجزم بأنه لم يشربها .

إنى لأتصوره أحياناً عائداً إلى بيته ، متأبطاً بعض كتبه وأوراقه ، وقد دسّ محبرته ومقلمته فى نطاقه ، وهو كئيب النفس ضيق الصدر لما لاقَى من عَنَتِ البيئة ومزعجات الزمان ، أو لما انتابه من فكر فى الموت أو تبرُّمٍ بالحياة . فإذا هو أراد أن يكتب ويؤلف عكرت عليه الأشجان صَفْوَ قريحته ، فيتناول كتاباً ليقرأ فيركبه الغمّ ويستعصى عليه الفهم ، فيلجأ إلى إبريق الصهباء يشرب من دمه القانى حتى يثمل وينام .

إشربِ الراحَ ، فإنّ العمر يتلوه الحِمَامْ
لخليقٌ أن تقضّيه بسكرٍ أو منامْ !

الحسناء

هذا شأنه مع الصهباء ، فما شأنه مع الحسناء ؟

إن دَوْرَ المرأة فى حياة الخيام لأَخْفى وأعقد . فإنّ ذكره لها فى رباعياته لكثير ، وإن يكن أقل من ذكر الخمرة . والحق أن مجال التأويل هنا أوسع ، فما أكثر مَنْ تغزّل من الشعراء

وتدلّه بلحاظ الحبيب ونهوده وأرادفه وسائر مفاتنه . وهو ليس لديه من حبيب ولا نهود ولا أرداف ولا مفاتن . وإن كان عمر الخيام قد تزوج فالظاهر أنه لم يكن موفقاً فى زيجته :

إنما الراحة فى الدنيا ، ولذات الصفاء
خُلِقتْ للمطلق الضَّارب فى كل فضاء !
فإذا أصبح فردٌ مستريحُ البال زوجاً
فلقد بُدِّل من راحته أيَّ عناء !

ولكن أتراه لم يعشق أبداً ؟

هذا أيضاً سؤال تصعب الإجابة عليه . وإن كانت الخمرة فضولاً لاضرورة لها ، فإن المرأة ضرورة موجودة فى دم الرجل كامنة فى شعوره . فلا بدّ أن يكون لها شأنها فى حياة الخيام ، حتى لو لم يكن قد ذكرها فى رباعياته .

وإخاله قد أحبّ ، مرّة أو مرّات . فما من شاعر فى الدنيا لم يعشق ، مهما كانت بيئته وظروف حياته . وأما نصيبه من وصال من أحبَّ فأمر آخر .

كانت ظروف البيئة وتقاليد المجتمع تحُول بينه و بين المرأة عن غير طريق الزواج . وأما حُبُّ الشُّوق فكان عسير المنال على من كان مثله مكانة وَوَجاهة . فهل أُتيح له أن تتصل أسبابه

بإحدى الحرائر على الرغم من تعفُّت الرقباء وشدّة نكير العذّال ؟ ليس هذا مستحيلاً .

ولو كان عاش فى أوربا لقلنا إنه كان فى حياته فسحة للمخادنة واتخاذ العشيقات . ولكن الشرق وسّع على العزّاب والمحرومين بنظام الرّقّ والتسرّى الذى كان جاريًا فى زمانه . فهل كانت له جارية أو جوارٍ مما ملكت يمينه ؟ هذا أيضاً أمرٌ نجهله كل الجهل . ولكنى أرجح نفيه ، لفقره وعجزه عن شراء الإماء وإعالتهن .

إن الموضوع بكرٌ لم يتصدَّ له أحد من الباحثين الخياميين فيما أعلم ، ولعل البحث سيكشف فيه عن جديد . ومهما يكن من الأمر فإنى اخال حياته الجنسية لم تكن طبيعية راوية ، وإنما كان يغلب عليها الحرمان . وقد أثَّر ذلك من غير مراء فى نفسه وأطواره على نحوٍ ما . فلا غرابة أن يكون ضيّق العطن سوداويَّ المزاج ، كما يروى الرواة .

وهو يذكر الحبيب فى رباعياته تارة بأسلوب يُفهم منه أنه يعنى حبيبًا بذاته قد تامَ فؤاده ، ويذكر الحسناء تاراتٍ بلهجة توحى أنه يقصد أيّ حسناء يجود بها القدر عليه ويلقيها بين

يديه . ولعل هذا آية من آيات الحرمان ومظهر من مظاهره .

* * *

ولكن هناك نقطة جديرة بالملاحظة ، وهى أنّ معظم ذكر الخيام للصهباء والحسناء إنما كان فى سياق الإفصاح عن فلسفةٍ أو الإعراب عن فكرة . وقد لحظ هذه النقطة كلُّ الذين أرادوا تبرئة الخيام من تهمة الغرام ومعاقرة المدام . ولكنى وقد افترضت انه ربما شرب الرّاح ، وجزمت انه لم يسلم من عشق الملاح ، أُسائل نفسى : بأيّ حق نحرِّم على الخيام أن يقول بضع رباعيات يفصح بها عن محض شعوره فى الحُب أو الشُّرب ؟ لقد كان شديد الحسّ ، شاعرىّ النفس ، مفتوناً بألوان الحُسْن — يهيم بالجدول المترقرق ، ويشغف بالزهر المتألق . أفيُعقل ألاّ يذهب بصوابه سحر الثغور ، وفتنة الجفون ، وتمايل القدود ، خصوصًا وهو محروم ؟ وهل يعقل أن يعبّر عن ذلك كله فى سياق الفلسفة ، دون أن يقول رباعية واحدة خالصة لوجه الجمال ؟ حتى الرباعيات التى سمّيناها معتمدة وردت فيها رباعيات لا فلسفه فيها ، خالصة للغرام والمدام . ودَعْك من تلك الرباعية السقيمة التى عددناها مدسوسة على الخيام ، والتى زعم قائلها أنه أقلع عن الصهباء لأن حبيبته قعدت على قلبه .

فى هذه المجموعة غزليات خالصة لوجه الجمال تحت عنوان «نخب الحبيب» ، وخمريات صرف لذات السلاف تحت عنوان « نخب الأنخاب » — تخيَّرتها من بين رباعيات كثيرة من أمثالها . فإن لم تكن للخيام حقاً فاقرأها على أنها ترفيهٌ للخاطر من عناء ما سبقها من فلسفته ، وإراحة للأعصاب من وطأة تشاؤمه القاسى .

كهانة وتنجيم

من سوء حظنا وحظ الخيام أنّ اقرب الرواة إليه من معاصريه الذين وصلتنا روايتهم عنه هو أحمد بن عمر بن علىّ النظاميّ العروضى السمرقندى . وقد كان له تلميذاً وبه معجباً ، فأصبحت روايته من أجل هذا تُعَدُّ عند الخياميين أوثق الروايات طرا . إلا أنه بدلاً من أن يزوّدنا بشىء فيه غناء عن رباعيات أستاذه وعلمه ، ومؤلفاته ، وأطواره ، والخطير من أحداث حياته مما نفتقر إليه أشدَّ الافتقار — نقل لنا فى كتابه « المقالات الأربع » خبرين زعم فى أحدهما أن الخيام تنبَّأَ بالغيب ، وفى الثانى أنه تكهن بالتنجيم !

حكايتان عجيبتان تدعوان إلى الحيرة ، فلا تعلم أتكذّبهما أم تصدقهما . وما كان الخيام . .

ولكن إليك الحكايتين أولا :

الحكاية الأولى — « فى سنة ستٍّ وخمسمائة كان

الخواجه (أى السيّد) الإمام عمر الخيامى والسيد الإمام مظفر الاسفزارى قد نزلا مدينة بلخ فى حيّ النخّاسين ، فى قصر الأمير (بو سعد جره) وكنت متصلاً بتلك الخدمة . وفى أثناء مجلس الصحبة سمعت من حجة الحق الإمام عمر أنه قال : ليكن قبرى فى موضعٍ تنثر الشّمالُ علىّ فيه الزهر كل ربيع . فبدا لى كلامه هذا محالًا ، وعلمت أن مثله لا يقول جزافا . فلما بلغت نيسابور سنة ثلاثين كان ذلك الكبير قد حجب وجهه بنقاب التراب منذ بضع سنين ، وأصبح منه العالم السفلىّ يتيما . وكان له علىّ حقّ الاستاذية فذهبت لزيارته ذات جمعة واحتملت معى من يدلنى على ثراه . فخرج بى إلى مقبرة الحيرة وعرجت يساراً ، فشاهدت ثراه تحت حائط بستان ، وقد مدّت أشجارُ الكمثرى والمشمش أغصانها من ذلك البستان ، ونثرت من أوراق النّوْر على ثراه ما غطى ثراه بالزهر . وذكرت تلك الحكاية التى كنت سمعتها منه فى مدينة بلخ ، فغلبنى البكاء ، فما كنت رأيت فى مكان من بسيط العالم وأقطار الربع للسكون نظيراً له قط . أنزله الله تبارك وتعالى الجنان بمنّه وكرمه » .

الحكاية الثانية — « إنى وإن كنت رأيت حكم حجة

الحق عمر إلا أنى ما رأيته قطّ يعتقد بأحكام النجوم ، وما رأيت ولا سمعت من العظماء أحداً قطّ يعتقد بالأحكام . فى شتاء سنة ثمانٍ وخمسمائة أرسل السلطانُ فى مدينة مرو شخصاً إلى السيد الإمام عمر أن يعمل اختياراً لنذهب إلى الصيد بحيث لا ينزل فى بضعة الأيام تلك ثلج ومطر .

وكان السيد الإمام عمر فى صحبة السيد وقد نزل فى قصره . فأرسل السيّد من استدعاه وأخبره بالأمر . فانصرف واشتغل بذلك يومين وصنع اختياراً حسناً ، وذهب بنفسه وأركب السلطان بالاختيار . فلما ركب السلطان وذهب مدى صيحة فى الأرض انعقد السحاب وهبّت الريح وقام الثلج والضباب فضحكوا ، وأراد السلطان أن يعود . فقال له السيد الإمام : لتطمئنّ نفس الملك ، فإن السحاب سينقشع الساعة ، وفى هذه الأيام الخمسة لن يكون بللٌ قط .

فانطلق السلطان ، وانقشع السحاب ، ولم يكن فى تلك الأيام الخمسة بلل قط ، ولم ير أحد سحابا . إن أحكام النجوم وإن تكن صناعة معروفة إلا أنه لا ينبغى الاعتماد عليها اعتماداً بعيداً ، ويجب على المنجّم أن يحيل على القضاء كل حكم يصدره » .

ولا بد أنك لحظت السذاجة والغرابة فى تعابير راويتنا السمرقندى وتفكك بعض جمله وضعف الصلة بينها — فى قالبها العربي ، ولعلها فى نصّها الفارسيّ أسوأ ، فقد عُنِيتُ بالوضوح والدقة فى ترجمتها لكيلا يفوت القارئ شيء من معناها . وإنى أتخذ من هذا أول دليل على سذاجة عقل الراوية وغرابته ، وضعف الصلة بين أفكاره ، ومن ثم على ضعف روايته . فأنا كما ترى لا أكذّبه ، ولكنى أكذب روايته فحسب .

زعم لنا فى الحكاية الأولى أنّ أستاذه الخيام قد تنبّأ بأنه سيُدفَن فى موضعٍ كذا صفته . وما أعرف أنّ أحداً من الباحثين حاول أن يفنّد الخبر . أما أنا فلا يستطيع عقلى أن يتقبّل شيئاً من التنبّؤ ، وأنا يكفينى هذا دليلا . ولكن لا بدّ من إقناع القارئ أيضاً . .

ما كان الخيام من العرافين ، ولا الأولياء ولا الأنبياء . وما عرف الغيب بشر ، حتى ولا هؤلاء . وقد جاء فى الآية «وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً ، وَمَا تَدْرِى نفسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوت » . وجاء فى آية أخرى « لو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » ، وما أبدعها كلمة . فمن كان مسلماً فحسبه هذا !

ولو استطاع عقل الخيام أن يؤمن بشيء من التنبُّؤ والغيب لكان أحرى به أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر .

ويخيل لى أن الخيام إنما أراد بكلمته أن يفصح عن مجرد رغبته فى أن يكون قبره فى موضعٍ كذا وكذا ، فتوهم صاحبنا السمرقندي أنه تنبّأ بذلك . وتقوم خرافته فيما أرى على كلمة واحدة فارسية هى « بَاشَدْ » . فهى تعنى «فليكن» قياساً ، وقد تعنى أحيانًا « سيكون » على خلاف القياس ، وهو الوجه الذى أخذ به الراوية . وإيضاحاً للأمر أحبُّ أن أنقل لك الفقرة الأولى من مقالة الخيام ، بنصّها الفارسى ، وتحت كلِّ كلمة منها ترجمتها العربية :

گور من در موضعی باشد که هر
قبر . . ى فى موضع فليكن بحيث كلّ
بهاری . . الخ
ربيع . .

فإذا أخذنا بالقياس ، وهو الأصحّ فى الفارسية لغةً ، وفى كل اللغات عقلاً — كان المعنى « ليكن قبرى . . » فالرجل إنما اشتهى أو طلب أن يكون قبره فى موضعٍ كذا وكذا .

فالجملة إذن إنشائية لا خبرية ، وما فى الإنشاء تنبُّؤ . ولكن الراوية ظنَّ المعنى : « سيكون قبرى . . »

وما أدَّعِى أنى أعلم بالفارسية من الخواجه العروضيّ السمرقنديّ ، ولكن ادّعائى أنى أعرف منه بالخيام ، ليس إلا . فهو يعتقد أن أستاذه رجل دينٍ وتقوى ، فيما يظهر . بهره منه ولا شك من التفقّه فى الدين وعلوم القرآن ما بهر شيخَ القرّاء أبا الحسن الغزّال من تفقهٍ فى القراءآت حتى لقال له : « كثر الله فى العلماء أمثالك ! إجعلنى من أدمة أهلك وأرضَ عنى . . » مما تقدّم بنا حديثه . فمن أجل ذلك وما ماثله توهّم الخواجه السمرقندي أنه من الأولياء أرباب الكرامات ، فطفق يسمّيه الإمام طوراً وحجّة الحق طورا . بينا أعرف أنا ، ويعرف معى القارئ أن الخيام كان ملحداً ، يكتم إلحاده عن السمرقندي وعن الكثيرين من أمثاله من تلاميذه وغيرهم من المؤمنين . فهو إنما يعرف من شخصية أستاذه المزدوجة ظاهرَها ، كأكثر عارفيه . ولولا أن العروضيّ قد أغفل كلّ شىء عن الخيام عدا هاتين الحكايتين ، لقلت إن فى إغفاله ذكر الرباعيات لدليلا على جهله بها وبحقيقة أستاذه .

فبعد هذا لا يدهشنى أنْ حَمَلَ قالة حجة الحق الإمام عمر محمل الخبر وهى إنشاء . فلما زار ثراه وَوَجده على تلك الصفة لم يعد يخامره الريب فى حدوث المعجزة . فبكى ، وروَى لنا الخبر !

أما دفن الخيام فى ذلك الموضع فإن لم يكن إحدى الصدف ، فأكبر الظن أنه كان بناء على وصيّته . أو لعل بعض أصدقائه أحبّ له بعد وفاته تلبية هذه الأمنية الشعريّة التى لعله كرّر ذكرها فى مجالس أخرى ، فكثر بذلك عارفوها من محبّيه ، وحققوها له .

ولولا تعقيب السمرقندي على كلمة الخيام بقوله : « فبدا لى كلامه هذا محالاً ، وعلمت أن مثله لا يقول جزافاً » لكانت الحكاية معقولة طريفة ، نمرّ بها مرّ الكرام ، ونشكره على نقلها لنا . ولكان معناها عند راويها كمعناها عندنا : « أمنيّة شاعر يحبّ الزهور والربيع . . تحققت بالصدفة أو بنحوٍ ما » ، ولحمدنا للراوى بكاءه على مثوى أستاذه العظيم . والحق أن وفاءه هذا أجمل ما فى حكايته — على شريطة ألاّ يكون بكاؤه من باب الخشوع لتوهمه حدوث المعجزة !

ولا أكتم القارئ أن نفراً من الإيرانيين لم يوافقونى على رأيى فى تأويل هذا الحديث ، وإن كان بعض أدبائهم قد فعل . وقد تراءى لى أن سلطان الرواية ومكانة الراوية هما علّة تردُّد الكثيرين فى مشاركتى الرأي ، فعمدت إلى الحيلة وجعلت أُهيِّئُ عبارةً فارسية تشبه عبارة الخيام ثم أسأل مَن أسأل أن يخبرنى عن مذهبه فى فهمها لو وجدها فى كتاب قديم — كهذه العبارة :

منزل من در ميان درختان باشد كه
دار . . ى فى بين الأشجار فلتكن بحيث

در تابستان زير سايه بماند .
فى الصيف تحت الظل تبقى .

فكلهم أجاب : « فلتكن دارى بين الأشجار . . . الخ » . فإذا أنا أطلعتهم على رواية العروضي السمرقندي ، وعرضت لهم رأيى فيها وافقنى بعضهم ، وخالفنى بعضهم منساقين مع الراوية الفارسيّ .

فإذا كنتُ واهماً فى تأويلى هذا لم يبقَ لى إلا أن أقول إن صديقنا السمرقنديَّ كاذب . وهذا أمر أستبعده كثيراً ، ولهذا أجدنى أستبعد كثيراً أن أكون واهما . .

وسواء أصحّ مذهبي فى تأويل الخبر أم أخطأ ، فأنا لا أصدّق حكاية تنبؤ الخيام ، وهذا كلّ ما فى الأمر . ولا على القارئ أن يصدقها إذا هو شاء .

* * *

وأما الحكاية الثانية فهى تنقض نفسها بنفسها ، لأن أولها يكذّب آخرها . فقد اعترف راويها أنه لم يَرَ ولم يسمع أن الخيام ولا أحداً من العظماء آمن بأحكام النجوم . وتعجبنى نصيحة السمرقندي التى يختم بها حكايته إذ يقول إن على المنجمين ألاّ يعتمدوا على أحكام النجوم كل الاعتماد ، وأن يحيلوا أحكامهم على القضاء . فهو يسمح لهم فيما يبدو بشيء من الاعتماد عليها فقط .

وأنا إلى تصديق الخيام وعظماء زمانه أميَلُ منى إلى تصديق هـذا العروضي السمرقندي الذى بكى على ضريح شيخه ظنا منه أن فى دفنه تحت حائط البستان معجزةً كبرى .

هذا إلى أنه لم يخبرنا بالمصدر الذى أخذ عنه روايته ، فلعله مصدر كأحكام النجوم لا ينبغى الاعتماد عليه كثيراً . وأحسب أنه كان أجدر به أن يحيله على القضاء ، بدلا من توريط نفسه بنقله لنا ، وتحييرنا فى أمره .

على أن الحكاية إن صحّت لا تدخل فى باب التنجيم ، وإنما هو ما يسمونه اليوم بعلم « الأنواء الجوية » يتعرّف به الخبراء ما ستكون عليه حالة الجو فى المستقبل القريب . ولكن عقل صديقنا العروضيّ السمرقندي ، وهو عقل خراقيّ كما يتضح من بعض حكاياته فى مقالاته الأربع ، لم يستطع أن يدرك أن علم أستاذه فى الفلك والرياضة والطبيعة ، قد يجدى نفعا فى التنبؤ بحال الجو ، فعزا الأمر إلى « التنجيم » و « الاختيار » — بالرغم من أنه لم ير ولم يسمع أن الخيام أو سواه من عظماء الزمان كان يؤمن بالتنجيم قط !

ولعل بعضهم قد زعم أن الخيام تنبأ بصحو الجو لخمسين يوما مقبلة بدلاً من خمسة ، ولكن السمرقندي لم تصله روايتهم فلم يأخذ بها مع الأسف . ولو قد فعل لقلنا من فورنا إنه حديث خرافة ، واسترحنا .

إنى ترويت فى الأمر طويلا وترددت كثيراً . ذلك أنى لم أجد بين الوسائل التى يستخدمها الخبراء اليوم فى التنبؤ ، من خرائط اتجاهات الرياح ، وإحصائيات الأنواء للسنوات الماضية ، وأجهزة الرصد الحديثة ، ما يمكّنهم — كلما أرادوا ، أو أمرهم

السلطان — من معرفة صحو الجو لخمسة أيام تأتى ، على ذلك النحو الجازم الذى حدثنا به السمرقندي .

ولكن الذى لا شك فيه أن الملاحظة الدائبة قد علّمت الإنسان من قديم الزمان أن بعض حالات الجوّ لا بدّ أن تتلوها حالات أخرى معينة ، على وتيرة لا تتبدل ، كما يتلو الليل النهار ؛ فإذا لاح أولها كان علامة على دنوّ تاليها . وإن فى قصص العرب الأقدمين ما يدل على أنهم ، على بداوتهم وجهالتهم قبل الإسلام ، قد عرفوا من ذلك ما مكنهم من التنبؤ أحياناً وأفادهم فى شؤون حياتهم . وما زال فى الشرق اليوم فلاحون وملاحون ، من الأميين الذين لا يخطُّون الألِف ولا يعرفون التنجيم ، يستطيعون متى رأوا بعض العلائم أن يتكهنوا بحال الجو ليوم أو يومين ، بنظرة قصيرة يسرِّحونها فى أقطار الفضاء .

ظننت أول الأمر أن حكاية العروضي السمرقندي مبالغ فيها ، وأن الخيام إنما تنبأ بيوم أو يومين على أساس من الملاحظة أو العلم ، ثم تزيَّدَ الرواة حتى أصبحت الأيام خمسةً حين بلغ الخبر السمرقندي .

ولكنى غيّرت رأيى أخيراً ، فقد اكتشفت على غير انتظار أن الخيام كان خبيراً بعلم الأنواء . ذلك أنى كنت أراجع قائمة

مؤلفات الخيام فوجدت بينها عنوان رسالة لم تكن تثير اهتمامى قبل ، على خطورتها فى هذا الباب وصلتها الوثيقة بحكاية السمرقندي . وهى رسالة « لوازم الأمكنة » ألّفها الخيام ليشرح فيها تغيُّر الفصول وشرائط تقلبات الجو فى مختلف الأمصار . وما ألَّف الخيام شيئاً ليعيد فيه ما عرفه سواه من العلماء وألف فيه ، وإنما كان يؤلف حين يأتى بجديد فى العلم أو الرأي . ولا بد أنه قد جاء أبناءَ جيله فى هذه الرسالة بالطريف القيِّم . فهذا أيضاً يدل على أن شاعرنا الحكيم لم يكن ملمًّا بعلم الأجواء وحسب ، وإنما كان متفوقاً فيه . فليس ببعيد إذن أن يكون قد استطاع التنبؤ للسلطان بصحو الجو خمسة أيام .

ولكن كيف ؟ . .

طفقتُ أتحرى وأسائل كل من صادفت من المشتغلين بالأنواء من شرقيين وغربيين فعجزوا عن تعليل الخبر . حتى اهتديت أخيراً إلى السرّ ، وإذا بهذه المسألة العويصة ككل المسائل قبل معرفتها ، شديدة البساطة ككل المسائل بعد العلم بها .

إن فترات الدفء فى المناطق المعتدلة إذا أعقبتها موجة برد وإعصار دلَّ ذلك على قدوم صحوٍ متصل رائق لا تشوبه شائبة ،

يدوم أياماً قد تبلغ الخمسة[1] . فهذا هو سرّ « تنجيم » الخيام .

وقد اتفق أن وصل رسول السلطان قبل الصحو بيومين كما يظهر من رواية السمرقندي ، فما كان من الخيام إلا أن جعل يتربص انقضاء فترة البرد . فلما انقضت ذهب إلى السلطان وأشار عليه بالركوب ، فتوهم العروضي السمرقندي أن الخيام كان منهمكاً آناء هذين اليومين فى التنجيم ورسم الرموز الغريبة الأشكال ، وحلّ أسرار الأفلاك ، فقال إنه « اشتغل بذلك يومين ، وصنع اختياراً حسناً ! » و إنه ليروى الحديث بسذاجة الأطفال ، حتى ليكاد يوهمك أن الخيام طفق يشتغل طوال هذين اليومين بما يشبه السحر إلى أن أرغم الطبيعة بتنجيمه واختياره على أن تصحو خمسة أيام كاملة ، نزولا على مشيئة السلطان واحتفالاً برغبته فى الصيد . وما كاد يُتمّ الحكاية حتى ملأه الذعر من هذا السحر ، فاستعاذ بالله ، ونصح المنجمين أن يحيلوا أحكامهم على القضاء ، تخلصاً من شرها .

ولما ركب السلطان « فانعقد السحاب ، وهبت الريح ، وقام الثلج والضباب » ظن القوم أن الخيام قد أخطأ حسابه

---

(١) توصلت إلى هذه الحقيقة بمعونة المصري السيد اميل فريد ، المتنبئ الجوى فى مطار فاروق بالقاهرة .

فضحكوا ، وهمّ السلطان أن يعود . ولكن هذا الأمر الذى خيّب رأيهم فى صدق الخيام هو الذى زاده ثقة بصحة حكمه ، فأخبر السلطان بلهجة قاطعة أن السحاب سينقشع الساعة ، وأنه لن يكون فى الخمسة الأيام التالية بلل قط . وهكذا كان . .

وهكذا تنبأ الخيام بصحو الجو على أساس من العلم لا تنجيم فيه ولا كهانة .

* * *

أما فردريك روزن فلم يشأ أن يكذّب إحدى الحكايتين ، ولكنه بالإضافة إلى تصديقهما علّق عليهما بما يفهم منه أنه اتخذهما دليلا على أن للخيام فى هذا الميدان آيات أخريات .

« كان الخيام يتنبأ بالغيب أيضا . ولما كان هذا العلم (!) سابقاً فى القرون الوسطى توأماً للهيئة فليس من كبير عجبٍ فى إقدام شخص عمر على هذا الأمر . فقد كانت هذه الحال موجودة بعينها فى بلاد الفرنجة كذلك ، وقد اضطر كپلر الفلكيّ المشهور مثلاً إلى أن يقرأ طالع القائد المشهور ڤالنشتاين سنة ١٦٠٩ م المصادفة ١٠١٨ هـ ، وينبئه بمستقبله . وبيدنا نبذتان صريحتان من تنبؤات الخيام إحداهما أن السلطان . . الخ » ويسرد النبذتين

الصريحتين ، وهما الحكايتان اللتان رويناهما للسمرقندي آنفا[1] .

ولست أدرى كيف هضم عقل الدكتور روزن هذه الرواية العسيرة ، ولا كيف قرأ كبلر طالع ثالثشتاين ، ولا فى أيّ صفحة من صفحات السماء قرأه . ولو كان فى (علم) التنجيم فائدة لما اندثر ، بل لكان ارتقى اليوم وازدهر . ولكن بما أن كلاًّ من الدكتور المستشرق والفلكيّ المتنبئ من بلاد الفرنجة ، وهى بلاد العلم ، فإنى أتهيّب مناقشتهما والردّ عليهما . وأكتفى بأن أذكّر القارئ بأمر واحد ، هو أن راويتنا قد نبّأنا بصراحة أيضاً لحسن الحظ أن الخيام لم يكن يؤمن بالتنجيم . فأنا أظن أن « إقدام شخص عمر على هذا الأمر » بالرغم من عدم إيمانه به يدعو إلى « كبير العجب » . ولو كان قد مارسه ونجح فيه هذا النجاح الباهر المزعوم لكان عدم إيمانه به يدعو إلى عجب أكبر !

---

(١) رباعيات حكيم عمر خيام — ص ٦٠ .

شخصيته

قال الخيام فى مقدمة كتابه « الجبر والمقابلة » الذى وضعه بالعربية ، ما نصّه :

« . . فإنّا قد مُنينا بانقراض أهل العلم إلا عصابة قليلى العدد ، كثيرى المحن ، همُّهم افتراص غفلات الزمان ليتفرغوا فى أثنائها إلى تحقيق ، وإتقان علم . وأكثر المتشبهين بالعلماء فى زماننا هذا يُلبسون الحق بالباطل ولا يتجاوزون حدّ التدليس والترائى بالمعرفة ، ولا ينفقون القدر الذى يعرفونه من العلوم إلا فى أغراض بدنيّة خسيسة . وإن شاهدوا إنساناً معنيًّا بطلب الحق وإيثار الصدق ، مجتهداً فى رفض الباطل والزور ، وترك المراياة والخداع استحمقوه وسخروا منه . . »

وما زالت هذه الكلمة الموجزة تفصح حتى اليوم ، فى الشرق خاصة ، عما يكابده العقل الممتاز الذى يطلب العلم لذات العلم ، من محنٍ بين من يتشبهون بالعلماء ، بما ينالون من شهادات مدرسية يدلّسون بها على الجمهور ويدجّلون ، ويتخذونها ذريعة لجرّ المغنم ،

وتسنم المنصب ، وإشباع الشهوة ، ومكافحة الإصلاح والعلم .

كان الخيام ذائع الصيت ، محترم الجانب ، مرموق المكانة ، يدنيه الأمراء والملوك إليهم ويقرّبون مجلسه ، عرفاناً لعلمه وفضله . حتى لقد « كان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء ، والخاقان شمس الملوك ببخارى يعظّمه غاية التعظيم ، ويُجلِس الإمام معه على سريره » ، كما يقول البيهقي . فكان فى هذا المحل الأرفع قادراً على أن يتسنّم ما شاء من المناصب ، ويحشد ما اشتهى من الأموال . ولكنه كان مؤثراً للعزلة والدرس ، زاهداً فى حطام الدنيا ، مترفعاً عن خدمة الرؤساء والازدلاف إليهم .

كم تُذِلُّ النفسَ فى خدمة أوغادٍ لئامِ ؟
تَنْتَحِي كلَّ طعامٍ ، كالذّباب المترامى ؟
كلْ رغيفاً كلَّ يومين ، بلا مَنِّ الأنامِ
فلأَنْ تطوِيَ خيرٌ لك من خبز الكرام !

إن أصابَ المرءُ فى اليوم رغيفاً واحدا
واحتسَى من كوزه المكسورِ ماءً باردا
فلماذا يا ترى يخدمه مَنْ دونَهُ
ولماذا يا ترى يخـــدم ندًّا سائدا ؟

ولقد مرّ بنا أنه بالرغم من غزارة معرفته فى علوم ذلك الدهر آثر التخصص فيما هو أبعد ما يكون عن منفعة مادية ، وأملٍ بالحظوة لدى عظماء الزمان ، فانصرف إلى خالص العلم من رياضة وفلك . وما عرفنا أنه تكسب بشعره أو بعلمه . وحسبنا من رأيه فى المتكسبين الذين سمّاهم « المتشبهين بالعلماء » ما تقدّم بنا من نصّ كلامه .

ويتّهمه بعض القدامَى بالضنّة بالتأليف والبخل بنشر المعرفة . وقد دفع المرحوم فروغى هذا عنه دفعاً جميلا حارًّا ، فقال : « ألحقّ أن التصنيف ليس بالأمر الواجب ، وليس التأليف والتصنيف من طبع كل عالم . وأهل العلم يأخذون بهذا الأمر أحيانا إذا دعت الضرورة ، وكذلك الخيام لما ظفر بمعلومات جديدة فى فنّ الجبر والمقابلة صنّف كتاباً فى هذا الباب ، وهو معروف ، وهو تراثه العلميّ . وله رسائل أخرى فى موضوعات أخرى ، كلها جدُّ صغير ومختصر . ويمكن التصديق على العموم أن الخيام ما كان يحب الهذر ، وهذه الصفة إن لم تكن حسنة فهي ليست عيبا . وهي على كل حال لا تدلُّ على بخلٍ وضنّة ،

إلا إذا افترضنا أن الذين وصموا الخيام بهذا كانوا مطلعين شخصيًا على هذه الصفة فيه »[1] .

وليس لديّ ما أضيفه إلى هذه الكلمة الحصيفة سوى أمر واحد ، وهو سببٌ آخر دعا الخيامَ إلى الإقلال من التأليف ، لا أدرى لمَ أغفله الخياميون وهو أحقُّ شيء بألاَّ يغفلوه ، لأنه سبب ذكره الخيام بنفسه بلسان مبين ، فى مقدمة كتابه « الجبر والمقابلة » هذا الذى طالما لهجوا بذكره .

قال الخيام عند كلامه على المسائل الرياضية التى تصدَّى لحلها فى كتابه : « .. وإنى كنت ولم أزل[2] شديد الحرص على تحقيق جميع أصنافها ، وتمييز الممكن من الممتنع من أنواع كل صنفٍ ببراهين ، لمعرفتى بأن الحاجة إليها فى مشكلات المسائل ماسّة جدا . ولم أتمكن من التجرّد لتحصيل هذا الخبر والمواظبة على الفكر فيه ، لاعتراض ما كان يعوقنى عنه من صروف الزمان . فإنّا قد مُنِينا بانقراض أهل العلم إلا عصابة قليلى العدد ، كثيرى المحن ، همُّهم افتراص غفلات الزمان ليتفرغوا فى أثنائها

(١) رباعيات حكيم خيام نيشابورى . ص ٥

(٢) النص : « وإنى لم أزل كنت » وهو فيما يبدو من أخطاء النساخين ، ولعل ما ذكرناه أقرب إلى الأصل .

إلى تحقيق ، وإتقان علم » . إلى آخر ما تقدم بنا .

وإنى فى الحق لمفتون بلهجته العصرية هذه حين يتحدث عن العلم ويحلّه هذا المحلّ الكريم الجليل من نفسه وحياته .

ولسنا نعلم على التحقيق ما هى هذه المحن التى صرفته دهراً عن تأليف هذا الكتاب ، ولكن فى مقدورنا أن نستنتج من رباعياته وبعض أخباره أنه ابتُلي بالكثير من المتاعب حالت ولا شك بينه وبين تأليف الكثير من الكتب .

لعلّ من هذه المحن خيبته فى إنشاء الرصد الذى عهد إليه السلطان ملكشاه بإنشائه ، لموت السلطان قبل إتمامه على رواية ، وبعد إتمامه على رواية أخرى — فوقف العمل فيه على كلا الحالين ، وبقيت حسرته بلا مراء فى نفس الفلكيّ العظيم . ومن كان من طبقة الخيام نبوغاً وغراماً بالعلم كان الرّصد عنده أعزّ من المال والولد — يرقب به النجوم ويكتشف مجاهل السماء . وإنى لأشعر معه بالأسف والكآبة لخيبة هذه الأمنية الرائعة .

ومن محن الزمان كذلك انقراض أهل العلم فى زمانه إلا عصابة قليلة العدد ، مع كثرة المشعبذين المتشبهين بالحكماء ، ممن يستخفون به وبأمثاله من طالبى الحق ومؤثرى الصدق ، ويؤذونهم .

ومن محن الزمان أن اتّهمه القوم بالكفر، حتى بلغ الأمر حدّ الخطر فخاف على دمه. ويروى لنا القفطيّ هذا الخبر بأسلوبه المسجوع، حيث يقول: «ولما قدح أهل زمانه فى دينه، وأظهروا ما أسرّه من مكنونه، خشي على دمه، وأمسك من عنان لسانه وقلمه. وحجّ متاقاةً لا تقية، وأبدى أسراراً من السّرائر غير نقية! ولما حصل ببغداد سعى إليه أهل طريقته فى العلم القديم، فسَدَّ دونهم الباب سدَّ النادم لا سدَّ النديم! ورجع من حجّه إلى بلده يروح إلى محل العبادة ويغدو، ويكتم أسراره ولا بدّ أن تبدو! وكان عديم القرين فى علم النجوم والحكمة، به يُضرَب المثل فى هذه الأنواع.. لو رزق العصمة.»[1]

وقد تعمّدتُ هنا إثبات الفقرة الأخيرة مع أنها لا صلة لها بسياق حديثنا، لأدلّ على ما سبق أن نوّهت به من أن القوم كانوا يقرّون له جميعاً بالعلم والتفوق، حتى من خالفه منهم فى الرأي والعقيدة. وهذا إنصاف وفضل نذكرهما لأسلافنا بالإعجاب والثناء، فهم بالرغم من فرط تعصبهم أكرم نفوساً من أبناء جيلنا ممن يجرّدون خصومهم، السياسيين مثلاً، من كل فضيلة ومكرمة.

---

(١) القاضى أكرم جمال الدين القفطي — «تاريخ الحكماء» الذى تم تأليفه بين سنتى ٦٢٤ و ٦٤٦ هـ.

لقد اضطر الخيام إذن إلى تجشم عناء السفر لكي يحجّ ، وإلى الانقطاع عن صحابته الذين تألفهم نفسه ويحنُّ إلى مجالستهم ومحادثتهم عقله . فكان الرجل فى هذه الحقبة قلقاً مضطرباً ، يعانى وحدة النفس وسجن العقل . وتهمة الزندقة فى ذلك العصر أشبه بتهمة الشيوعية اليوم ، فى اسبانيا الفاشيّة مثلا . فيا لها من محنة . . .

إن الخوف على حياته إن كان أزمة عابرة ابتلي بها حيناً من عمره ، فإن الحجر على تفكيره والعجز عن إعلان رأيه ، والاضطرار إلى تزييف شخصيته بالظهور بين الملأ على خلاف حقيقته — أمرٌ لازمه طيلة حياته العقلية . وهذا شديد على من كان مثل الخيام حريةَ فكر ورهافةَ حس ، فكان الأمر ولا شك يكرب صدره ويزعجه . وقد أفصح المعرى عن نفسه وعن الخيام ، وعن أمثالهما من الكاتمين آراءهم عن أبناء جيلهم ، بقوله :

أهوَى الحيـــاة ، وحسبي من معايبها
أنى أعيش بتمـــويهٍ وتدليسِ
اكتم حديثك لا يشعُرْ به أحـــدٌ
من رهط جبريلَ أو من رهط إبليس !

ولعل الخيام أراد أن يشكو هذه الحال حين قال :

رب سرٍّ لستُ أستطيع له فى الخلق فضحا
فاستمع موجَزَ قولى ، لا تسلنى عنه شرحا
آه من حالٍ أرانى عاجزاً عن وصفها
آه من سرٍّ طواه القلب ، لا يقبل بَوْحا

والحق أن له رباعيات كثيرة طافحة بالشكوى المرة ، والتشاؤم القانط ، والتبرم بالحياة .

هو عيشٌ يتولَّى بعضُه فى إثْرِ بعضِ
فتأمَّل كيف يمضى العمرُ بالحزن الممضِّ
إننى لم أعرف الغبطةَ والراحةَ عمرى
فســـلامٌ لحياةٍ هكذا تأتى وتمضى !

قد نزلنـــا هذه الدنيا بطاءً مذ نزلنا
وانحططنا عن عُلَى الإنسان فيها ، وذللنا
وحياةٍ زوّدتنا غـــيرَ ما كنّا أمَلْنا
ليتها كانت تولَّتْ ، فلعمرى قد ملَلْنا !

أجِدُ العالَمَ غمًّا دائماً ، والدهر غولا
وأرى الأفلاكَ آفاتٍ وظلماً وكُبُـولا
كلما فكّرت فى الدنيا أرى المرتاح فيها
ليس موجوداً ، فإن كان فقد كان قليلا !

لـكأنّ كل واحدة من هذه الرباعيات جمرة نار !

ويبدو أن الخيام خُلِق بطبعه متّقد العصب حادَّ المزاج ، فإلاّ يكن كذلك فقد كفلت له المصائب ذلك . ويبدو أيضاً أنه خلق بطبعه متشائماً كالـكثير من العباقرة ، فإلاّ يكن كذلك فيكفى ما عاناه فى حياته من آلام نفسية أن يجعله واحداً من أشدّ الناس تشاؤما .

وقد ذكره بعضهم بضيق العطن وسوء الخلق . فأما ضيق العطن فظاهرٌ أمره ، وأما سوء الخلق فلم يذكروا لنا حادثة معيّنة نفقه منها قصدهم به . ولا شك عندى أنهم لم يقصدوا لؤم الطوية وخسة النفس ، وإنما هي حدة مزاج على الأغلب لابد أن تبدر منه مع البلداء المماحكين والسخفاء ، وكثيرٌ ما هم . والمعرّى على سماحة خلقه ودماثة طبعه ، وافتخاره بالترفع عن الهجاء — لم يتمالك نفسه من أن يهجو ، يوم دخل عليه رجل يُدعَى أبو القاسم فتلا

الآية « ومَنْ كانَ فى هٰذِهِ أعْمَى فَهُوَ فى الآخِرَةِ أعْمَى وأضَلُّ سَبِيلا » ، فاستناء منه وهجاه . والظاهر أن الخيام كان مبتلَى بأمثال أبى القاسم هذا من ذوى القحة والبلادة . قال فى إحدى رباعياته :

أفتبغى أنت أن تعرف ما نار الجحيم ؟
هي فى الدنيا لعمرى صحبة الفَدْمِ اللئيم

وما فى هذا المعنى جدة ولا طرافة ، ولكنها نفثة مصدور .

والحق أن العباقرة على العموم يضيقون بالناس على العموم ، ويؤثرون الإقلال من المعارف والأصدقاء ما استطاعوا . فإن كثرة الخلطة وتشابك العلائق يضيِّع عليهم أوقاتهم التى يؤثرون إنفاقها فى التأمل والدرس من جهة ، ويخلق لهم من المشاكل ما هم فى غنى عنه ، ويعرضهم لسماع ما لا يحبون أن يسمعوا وقول ما لا يعجبهم أن يقولوا ، وعمل ما قد يسوؤهم أن يعملوا ، من جهة أخرى . ولا سيما من كان كالخيام ذا مزاج خاصّ وآراء خاصة وتفوُّق فى التفكير خاص ، فنأَى ذلك به عن ملاءمة الناس ومجاراتهم .

وقد كان مستطار الشهرة معروفاً فى الآفاق حتى لقد اجتمع

عليه أهل طريقته لما حلّ ببغداد، كما ذكر القفطي، ولكنه كان عزوفاً عن الشهرة محباً للعزلة. وليس غريباً أن يعتزل سائر الناس ما دامت ظروف البيئة اضطرته إلى اعتزال من يأنس إليهم من أصدقاء عقله.

ألسَّعيدُ الحقُّ من لم يكُ معروفَ المكانِ
لم يَصِرْ فى فوطةٍ، أو جُبَّة، أو طيلسانِ
فهو كالعنقاء، قد طار عن الدارَيْن طرًّا
لم يكن مثليَ بُوماً بين أطلال الزمانِ!

وإن كان الخيام قد ذاق الرفاهة شيئاً فى بعض فترات من حياته فقد كان فقيراً قانعاً على الجملة.

إذا قنعت نفسى بميسور بلغة
تحصّلها بالكدِّ كفّى وساعدى
أمنتُ تصاريف الحوادث كلّها
فكن يا زمانى مُوعِدى أو مُوَاعدى!

ولعل الفاقة ألحّت عليه أحيانا، فكان يعجز أن يحصّل بالكدّ حتى ميسور البلغة. ومن كان مثله أنفةً كان خليقاً أن

يعانى طول العوز والإدقاع . فكان من أجل هذا يتحسّر حيناً على المال ، ويثور أحيانا على الدهر الجائر يغدق النِّعَم على الجهلة الأوغاد ويضطهد العلماء الأحرار .

ليست الفَضَّـــةُ فى الدنيا بذخر الحكماء
بيد أنّ العادمى الفضَّـــةَ فيها سجناء !

***

يا زماناً بأفاعيـــل يدَيْه يعـــترفْ
وهو فى زاوية الجـــور مقيمٌ معتكفْ
تسبغ الفضلَ على الوغد وتُؤذِى من أَنِفْ
أنت لا تخلو من اثنين : حمارٍ أو خَرِف !

آه لو كنتُ على الأفلاك ربًّا فى سمائى
لمحَوْتُ الآن هـــذا الفلكَ الضَّخمَ البناء
ولأنشأتُ بنفسى من جـــديدٍ فلكاً
يدرك الأحرارُ فيه ما اشتهوا ، دون عناء !

وكأنه أراد فى هذه الرباعية الأخيرة أن يبنيَ المدينة الفاضلة وينشئ فيها المجتمع الأمثل . وليته كتب لنا بشىء من التفصيل

عن هـذا الفلك الفاضل الذى كان يودّ إنشاءه لنرى طريقته فى بنائه بحيث يدرك الأحرار فيه ما يشتهون ، بغير عناء — كما كتب بعض فلاسفة الشرق والغرب من عهـد أفلاطون . وإخال أنه لولا خوفه نقمة رجال الدين والسياسة عليه لفعل .

***

كان الخيام عالما كلّ عالم ، فنّاناً أىّ فنان ، شاعراً ، مرهف الحسّ . ومن كان على شاكلته من الرجال كان سريع الانفعال ، كأنّ فى عصبه مكبّراً للحسّ مثل مكبّر الصوت ، يضخّم له الهموم . ومن هنا كان الفنانون أقدر على التعبير من سواهم ، لأن إحساسهم بمؤثرات الأشياء أعظم من سواهم .

فلا غرو أن تصرفه الأشجان المكبّرة عن الدرس والتحقيق ، وتقعد به عن التأليف ، حتى أصبح همّه كما يقول افتراص غفلات الزمان . ولا غرو أن يقول :

إســـقنى الجريالَ شقراءَ بلون الارجوانِ
أيهـا الساقى ، فإنى ضاق بالهـــمِّ جنانى
إسقنيها تسلبُ العقـــلَ ولو بعضَ أوانِ
علّنى أذهلُ عن نفسى وأحداثِ الزمانِ !

وكان لحسن حظه ذوّاقةً للجمال ، مغرمًا بالطبيعة من زهور وربيع ومياه . فكان له فى متاعها عوضٌ عما زهد فيه من متاع الدنيا . وقد تمنّى كما رأينا أن يدفنوه فى مكانٍ تنثر الشّمالُ فيه الزهرَ على ثراه ، كأنه لم يشبع من الزهر فى حياته فأراد أن يستمتع به ولو من تحت التراب . وهذا كثير من الخيام ، وهو مَن نعلم إنكاراً للحشر وإيمانًا بفناء الروح .

والواقع أنه ما يفتأ يذكر من مفاتن الطبيعة هذه الأقانيم الثلاثة : « الماء والخضراء والوجه الحسن » بأسلوبه الخاص . وقد يضيف السّماع أحيانًا وديوان الشعر حينا . فهو مؤمن باللذة الإيجابية فى دعوته إلى الاستمتاع بمسرات الحياة ، وإن كان يُفهَم منه أحيانًا أنه يَعدُّ اللذة متعة سلبيَّة هي مجرّد إسكات الألم ، على المذهب الذى انتحاه المتشائم الألمانى الكبير شوپنهاور — بعد الخيام بقرون .

وقد جعله تشاؤمه المفرط ساخراً كبيراً ، كما جعل شوپنهاور كذلك ، فقد كان كلاهما يستخرج الفكاهة المضحكة القاسية من آلام نفسه ، ويسخر .

فلسفته

فلسفة الخيام هى بيت القصيد فى هذا البحث ، والزبدة من هذا الكتاب ، لأنها موضوع هذه الرباعيات التى أزجى ترجمتها إليك . وهي مزاجٌ من الفلسفة اليونانية ، ومن العقائد الباطنيـة القائمة على الجدلية الإلحادية ، ومن نزعات القرن الخامس ، ومن شخصية الخيام . وما بى حاجة إلى التوسّع فى وصف عقلية ذلك العصر ، فمن شاء فليرجع إلى التاريخ ليتفهّم ما راج فيه من تزلزل العقائد وتضارب المآرب والأفكار — فى الإمبراطورية الإسلامية .

ولا شك فى أنه تأثّر فى الكثير من أفكاره بأبى العلاء المعرى . فقد وُلِدَ حكيم نيسابور فى شيخوخة حكيم المعرة ، الذى كان صيته يومذاك قد طبق الآفاق وأشعاره تسير بها الركبان ، ومات بعده بنحو سبعين عاما . وكان الخيام يقرأ الأدب العربيّ ،

ويحفظه ويرويه ، فلا يعقل أن يهمل منه أدب المعرى وهو أقرب إلى روحه وطراز تفكيره . وإنّا لنجدُ بعض رباعياتٍ للخيام وكأنها ترجمة لبعض أشعار أبى العلاء[1] .

ولى على تأثُّر الخيام بالمعرى دليل غير دامغ ، ولكنه لا يخلو من وجاهة ، ولعلك لاحظته معى . وهو انتهاج الخيام طريقة المعرى حين التزم ما لا يلزم فى قافية المقطوعتين الاوليين من شعره العربيّ الذى مرَّ بنا آنفا . ومن يدرى ، لعله انتوى أن يؤلّف كالمعرى ديواناً من اللزوميات ، ثم أقلع .

وقد وجدتُ فى اللزوميات مقطوعة للمعرى مطلعها :

خطــوبٌ تألَّتْ لا يزال معذَّباً

أخوها ، وحلَّتْ كلَّ كفٍّ وساعدِ

وهي تتفق فى الوزن والقافية مع مقطوعة الخيام العربية التى مطلعها :

---

(١) سنذكر فى آخر الكتاب من شعر المعرى بعض ما يشابه رباعيات الخيام (المشار إليها بهذه العلامة ﴿﴾) ، لكى تتاح للقارئ فرصة المقارنة بين تفكير الفيلسوفين .

إذا قنعتْ نفسى بميسور بُلغةٍ

تحصّلها بالكدِّ كفّى وساعدى . .

فأنت ترى أن الخيام لم يكتفِ فى محاكاة المعرى بالتزام حرفى العين والدال فى مطلع مقطوعته كما فعل فى سائر أبياتها ، وإنما التزم فيه كلمتين . وقد يكون هذا من توارد الخواطر ، وقد لا يكون . وليست هذه المقطوعة من خيرة شعر المعرى لنقول إن الخيام أُعجِب بها فاحتذاها ، ولكنى لا أستبعد أن يكون جَرْسُ القافية قد علق بذهنه ، فعارضها من حيث لا يدرى .

على أنى لا أقصد أن الخيام سرق أفكاره من المعرى أو اقتبسها منه ، غير أنه من المعقول جداً أن يكون قد تأثّر به كما يتأثّر كلُّ مفكرٍ بمن يشاكله ممن سبقوه .

وكان كلّ من الشيخين يمتاز على صاحبه فى ناحية ويتخلّف عنه فى ناحية ، فالخيام أشعر والمعرِّى أفكر . شعر المعرّى منطقٌ وتفكيرٌ يكاد يخلو من شعر وطلاوة ، ومنطق الخيام وتفكيره فى رباعياته يكاد يسيل طلاوة وشعرا بالقياس إلى صاحبه . وأحسب السبب يرجع إلى الآفة التى ابتُلِىَ بها شيخ المعرّة منذ صباه ، فقد كان ضريراً لا يرى إلا بعين عقله وخياله ، فلم يلطِّف سحرُ

الطبيعة من أسلوبه ما لطّف من أسلوب الخيام الذى كان جشع الذوق فما يشبع من مشاهد الجمال . يضاف إلى هـذا أنّ حكيم العرب كان عازفاً عن المرأة والخمرة ، وهما مع الطبيعة مدار الشعر والسحر فى رباعيات حكيم الفرس .

انظر إلى قول المعرّى :

سِرْ إنِ اُستطَعْتَ فى الهواء رويداً
لا اختيالاً على رفاتِ العبـــادِ

وانظر إلى قول الخيام فى نفس المعنى :

يا زَهرِ مُونِقِ رفَّ على شِطْءِ الغديرِ
أتراه قد نمـــا فوق خدودٍ وثغورِ ؟
فتيقَّظ ، لا تَطَأْهُ باحتقـــارٍ وغرورِ
فلقد أينع من تربة وجـــهٍ كالزهورِ !

ولـكن المعرى كان أوسع آفاقاً فى فلسفته وأكثر تفاصيل . والعلة فيما أرى نفس العلة الأولى ، فقد كان الخيام مشاركاً فى كل العلوم ، ومنها ما لا يقدر عليه إلا المبصرون ، من فلكٍ ورياضةٍ

وطبٍّ وكيمياء وغير ذلك من علوم الطبيعة . فكان نشاط عقله موزَّعاً لا يستطيع أن يحبسه على الفلسفة وحدها . ومع هذا فلا شك أنه كان يعرف ويتناول فى أحاديثه مع صحبه وفى محاضراته على تلاميذه من مواضيع الفلسفة ما لم يفصح عن شىء منه فى رباعياته . فالرباعيات ليست سجلّ فلسفته ، وإنما هى كما قلنا قبلُ خطراتٌ عابراتٌ ، قال فيها ما ضاقت به نفسه فلم يجد بدًّا من قوله مما يتّصل بنفسه اتصالاً مباشراً من الأفكار . فأما ما ترك ذكره منها فأكثر بلا مراء . وهو يقول إن خوفه نقمة الجهالة كان سبب الكتمان .

جَزِعَ الدهرُ علينا مذ رحلنا وقنطْ
أن ثقبنا دُرَّةً من مائةٍ فيه فقطْ !
لهف نفسى ، كم أُلوفٍ من معانٍ فى السَّفَطْ
حالَ عن إعلانها بالناس جهلٌ وشططْ !

ولكن يلوح لى أنّ خوفه جهالة الناس لم يكن السبب الوحيد الذى حالَ دون إعلانه ألوف المعانى ، لأنه أعلن فى رباعياته فى الواقع أشدَّها وقعاً على أبناء جيله وتحدِّياً لعقائدهم من كفره وتجديفه — لا لشىء سوى أن هذه العقائد كانت تواجهه

أنّى ذهب ، وتتحدّاه . ولكنه إنما أغفل من مواضيع الفلسفة ما لا يمسّه ويضايقه . والظاهر أنه قصد بهذه الرباعية أنه لم يستطع تفصيل هذه المعانى فى كتبه ، وإنما نوّه بها إجمالا فى رباعيات سائرة تتناقلها الأفواه ، ويسعه التنصل منها وإنكارها متى دعت الضرورة . ولا كذلك الكتب .

وأما المعرى فقد كان حبيس الثلاثة من سجونه ، يملك من الوقت فراغاً كبيراً لا يدرى كيف يملؤه . فكان من أجل هذا يتسلّى بألفاظ اللغة يلعب بها ، وبالتزام ما لا يلزم فى قوافيه يروض به ذهنه[1] . وعلى هذا النحو الغريب القاسى جعل يسكب عصارة أفكاره وتأملاته وشتى ملاحظاته فى قوالب العروض .

ومهما يكن فإننا إن أردنا استنباط فلسفة الخيام والإحاطة بها لم نجد مصدراً نستمدّ منه غير هذه الرباعيات . فإن الذى كتبه نثراً لعامة القراء لا يعوّل عليه ، لأنه كان يراوغ فيه ويموّه . وأما هذه الرباعيات فقد افترضنا أنه كان ينظمها لنفسه ويقرؤها على من يطمئن إليه وحسب ، فهي لذلك تمثل فلسفته وآراءه أصدق تمثيل . . وإن كانت ناقصة .

---

(١) كشف عن هذه الناحية الدكتور طه حسين باشا — فى كتابه « مع أبى العلاء فى سجنه » .

فكيف نستخلص هذه الفلسفة من هذه الرباعيات ؟

وجدتُ بين يديَّ ركاماً منها مختلف الألوان متعدّد الأغراض . فبعضها يدعو إلى الزهد فى الدنيا والعزوف عن زخارفها ، وبعضها يدعو إلى الانغماس فى لهوها واختطاف ملذاتها . وبعضها كفر ، وبعضها غزل . وبعضها ذكرٌ للموت وتذكيرٌ به ، وبعضها تناسٍ له ودعوةٌ إلى تناسيه . وبعضها أدعاءٌ بالمعرفة الشاملة ، وبعضها إقرار بالجهل الشامل ، وتقريع للمدعين بالمعرفة ، وسخريةٌ منهم .

فما قوام فلسفته وجماع آرائه من هذا الخليط العجيب ؟

كنت أقلّب وجوه الرأي وإذا بفكرة تومض فى خاطرى ، فتراءت لى هذه الرباعيات المتنافرة وكأنها أوصال تمثالٍ رائعٍ قد تحطم وانتثرت شظاياه . فهذى كفٌّ تختلف عن الركبة ، وذاك فمٌ يباين الأذن ، وذلك أنفٌ لا يشاكل العنق . فلو جمعتُ شتيات هذا التمثال على نظام ، ووصلتُ بين أجزائه على نسق ، فوضعتُ كل شيء منها فى مكانه ، لصنعت منها هيكلا تامَّ الخلقة ، منسجم الأعضاء — ففعلت .

وإذا بالرباعيات كتاب متَّسق التفكير ، له مقدمة وله نتيجة .

يتألف من فصول يتّصل كلُّها بما قبله ويؤدّى إلى ما بعده . وإذا بهذا التناقض الظاهري أشبه بما تجده فى كتاب تفرّقُ صفحاته ثم تجمعها على غير ترتيب وتقرأ ، فيختلط عليك الأمر .

وبديهيٌّ أن الخيام لم يكتب رباعياته على هذا الترتيب الذى اصطنعته ولا على أيّ ترتيب سواه ، ولكنى وجدت تنسيقها على هذا النحو لا مناص منه لإبراز فلسفته .

وقد لخّصتُ هذه الفلسفة مستنبطةً من الرباعيات فيما سميته «فهرس الثورة» أوضحتُ فيه الصلة بين أجزاء الكتاب وفصوله .

فإلى الفهرس إذن ...

فهرس الثورة

١ — ثورة على المجتمع

كان الخيام كسواه من المفكرين المتشائمين ، ولا سيما ذوى الأمزجة الفنية الحادّة ، ساخطاً على المجتمع . ينعى على أبنائه انحطاط مداركهم ، و إنكارهم على العالِم أن يعلن عن آرائه مما لا تفقهه عقولهم . وكان يحتقر أخلاقهم و يضيق بصداقاتهم وبعشرة الأغبياء اللؤماء منهم خاصة . وكان ينقم على المجتمع سيئته القديمة الكبرى من الترفيه على كل جاهل أرعن من أبنائه وحمايته ، والتقتير على كل عالم حرّ ، و إيذائه . فأنِف من السعي إلى حشد المال صوناً لعزته ، مؤثراً للقناعة بكفاف العيش . وترفّع عن خدمة العظماء ، وسخر من حرصهم ومتاعبهم التى يضيقون بها ، ولكنهم مع ذلك يحتقرون من لم يكن حريصاً مثلهم . وتعجّب للحاكمين لِمَ يستخدمون مَنْ دونهم ، وللمحكومين لِمَ يخدمون أندادهم ؟

فزوى وجهه عن الناس ، وتقشف .. وثار على المجتمع .

٢ — ثورة على الدجالين (من رجال الدين)

لقد ضلّ الناس سواء السبيل ولا شك لأنهم لم يتّبعوا هداتهم ومرشديهم . وكان الهداة المرشدون فى تلك العصور هم رجال الدين . فألقَى عليهم نظرة فاحصة ، فألفى أكثرهم جهلةً دجّالين ، يتّهمون بالكفر والفلسفة كل من تفكر فى كنه نفسه أو تدبَّر فى خلق السموات والأرض . وسخر من ضيق أذهانهم ، يشاحنون من تأمّل فى قدرة الصانع وصنعته من أهل النظر ، وهم منهمكون فى أحكام الحيض والنجاسات . ثم يتبجّحون بالزهد وهم أشدّ تهالكاً على الحطام الفانى ، وينهون عن شرب الكاس ثم هم يشربون دم الناس . ويلزمون المحراب رياءً وغروراً ثم يبيعون دينهم من وراء ستار الزهد والتقوى .. فثار على الدجالين من رجال الدين .

٣ — ثورة على الدين

إنهم ضلّوا وأضلوا . ولو قد اتّبعوا الدين الذى باسمه يعملون ما يعملون لاهتدوا وهدوا . فما هو الدين إذن ؟ نظر الخيام إلى الدين نظرة رياضية صرفاً ، وكأنه كتاب فى الجبر والمقابلة . فجعل لا يأخذ إلا بالدليل ، ولا يخرِّج إلا بالقياس . فرأى الدين يحرم العاصيَ من الجنة ، وهو يعتقد أن الناس كلهم عصاة[1] ، فاستنتج أن الجنة ستظلّ خاويةً على عروشها . ووجد أنّ ثواب الطاعة هو الحور والخمور ، فتساءل لِمَ نحرِّمها على أنفسنا هنا وهي العاقبة المرتجاة ، ولعلنا لا نظفر بها ، هناك ؟ فأنكر الثواب وأنكر العقاب . وانتهى إلى أن الجنة والنّار واللّوحَ الذى سُطِرت فيه مصائر الإنسان كامنة فى نفس الإنسان ، لا وجود لها فى خارجه ، فهى من أوهامه وصنع خياله . وارتأى أنّ على المرء أن يصنع الخير ولا عليه بعد ذلك أن يخرج على الدين ، ويُحِلّ لنفسه ما اشتهى من محرماته . وجحد الحشر بعد الموت .

وطفق يناقش هذا وأمثاله من مسائل الدين فأنكرها . . وثار على الدين .

---

(١) الرباعية — ٣٢ .

٤ — ثورة على السماء

ذلك أن عقله لم يطمئنّ إلى أنه الدين الحق .

والدين الحق هو الدين المنزل من السماء طبعا ، فلا بدّ لمعرفته والاهتداء إليه من معرفة السماء أولا .

رفع الخيام بصره إلى السماء فصدمت عقلَه قبل كل شيء مسألة القضاء والقدر . فقد خُلِق الإنسان ولا خيرة له فى خلقه . وخُلِقت معه أهواء وآمال ، فإذا هو جرى مع أهوائه وتعلّق بأهداب آماله حوسب على ذلك وعوقب . وقد قدَّر الله عليه أن يفعل كذا ثم نهاه عن فعله ، وخلقه شريراً ثم أراد منه أن يكون خيّرا . وإن لم يكن الله قد قدَّر عليه فعل الشرّ فقد كان يعلم منذ الأزل أنه سيفعله ، فلو امتنع الإنسان عن فعله لما كان علم الله علما .

ثم راح يناقش صفات الله . فهو كريم ، فلِمَ يبيع الجنة بالطاعة ؟ وهو ربٌّ ، إذا جازى عبده على السوء بالسوء فما الفرق ما بينه وبينه ؟ وهو رحيم ، فلِمَ يعذِّب ؟ ويتمسّك الخيام بالرحمة فيقول إنها إنما يستحقها المذنبون ، لأن المتقين لا يحتاجون إليها ،

فليذنب إذن لينعم بها . والله خيرٌ محض ، وليس عند الخيرِ سوى الخير ، فلا تخشَ العاقبة إذن ! وهو واسع المغفرة ، فليَتمادَ الخيام فى المعصية طول حياته ، ليرى أيهما أوسع — معصيته أم مغفرة الله ؟

وهكذا يمضى فى مناقشاته حتى يدور رأسه ، ويقرّ بعجزه وعجز أعلام الورى عن معرفة ذات الله . ويسترسل فى إنكاره حتى يقول إن هذه السماء العالية ، بأجرامها الزاهية ، قد حيَّرت أفهام الباحثين . لهذا فهو ينصح بالتمسك بالعقل ، لأنه لا تدبير فى السماء . . وهكذا ثار على السماء .

٥ — ثورة على الدهر والأفلاك

فمَن للدبرِّ إذن ؟ أهو الدهر ؟ كلا . فالدهر جائر يغدق نعمته على كل نذل لئيم ، وينزل نقمته بكل حرٍّ كريم ، فهو إمّا حمار وإمّا خرف ! أهو الفلك إذن ؟ كلا أيضاً . فالفلك كالدهر فى جوره وحمقه . ولو كان الخيام ربًّا لمحق هذا الفلك ، ولأنشأ فلكا آخر ينال الأحرار فيه ما يشتهون . فلا تحيلوا على الأفلاك خيراً ولا شراً ، فهي أعجز منكم ألف مرة . ولقد أخبره الفلك بذلك حين همس فى أذن عقله يقول : أنا لو كان دورانى بأمرى

لأرَحْتُ نفسى من التجواب والدوار .. وهكذا ثار على الدهر ، وثار على الأفلاك .

٦ — هل من مُنَازِل ؟ (ألغاز الوجود)

فيا ويح الخيام إذ ينتهى إلى هذه النتيجة ، ويعود من بحثه صفر اليدين ، قانطاً ، ساخطاً على الأرض والسماء . مَنِ المسؤول إذن عن هذا الوجود الهائل ليتَّجه إليه الخيام ويناقشه الحساب ، ويثور عليه إذا دعا الأمر ؟ مَنْذا يخبره فيم جاء إلى الحياة ، ومن أجل ماذا سيفارقها ؟ بل من أين جاء وإلى أين سيذهب ؟ وماهي حال الذاهبين يا ترى ؟ وأنتَ يا هذا الروح من أجل ماذا حلَلْتَ هذا البدن ، ما دمت سترحل بعد حين ؟ وما كان قصدُ نقاش الأزل لما خلقنى وأحسنَ صورتى ثم ألقانى على المسرح — فى مَلْهَى التراب ؟ ثم ما باله يهلكنى بعد ذلك ويفنينى ، كأنه الخزاف يتأنَّقُ فى صنع الجام ثم يضرب به الأرض ؟

وهذا الكون الشاسع ما بدؤه ومانهايته ؟ كيف شرع الفلك يدور كأنه الطاس الذهبيّ ؟ وكيف سيندثر وينهار كأنه البناء الشامخ ؟

ألغاز تحيَّر فيها الخيام .

٧ — ثورة على العقل

منذا يحلّ له هذه الطلاسم ؟ ألعقل ؟ . . ألحقُّ أنه بعد أن ثار على كل شيء ، وجحد كل شيء ، لم يَعُدْ له ما يلوذ به ليأخذ بيده فى هذا الليل الداجى سوى العقل . فلو كان آمن بالدين لتلمّس الجواب على هذه الأحاجى لدى الدين ، ولو كان آمن بالله واليوم الآخر لفوّضَ أمره إلى الله واصطبر إلى اليوم الآخر .

ولكن سرعان ما خاب أمله فى هذا العقل الضئيل المسكين ، فقد طفق يتلفتُ ويتطلّع فلم يفقه مما حوله شيئا . إنه لم يدرك من العالم إلا تشبيهاً : الكون فانوسُ خيال ، مصباحه الشمس ، ونحن نتسكّع فيه كالصُّوَر ! أما ما قال القائلون ، وادّعى المدّعون ، فكله هراء وظنون . وأما الحقيقة فلم يدركها أحد .. الأستاذ فى ذلك كالمبتدئ . وأما الذين توهّم الناسُ أنهم محيط العلم ومصابيح الهدى ، وأنهم ثقبوا دُرَّ المعانى ، فإنما قصُّوا أساطيرَ ولفّقوا خرافات .. ثم ناموا . فيا لأسرى العقل والتمييز ، ما كان نصيبهم إلا أن هلكوا فى حسرة الموجود والمعدوم . وما كان جهدهم إلا كجهد من يحتلب الثور ! ويا ضلّةَ العقل ، ما أبخسه . إنه اليوم

لا يُبَاع به ضغثٌ من كراث !

لقد توسَّعتُ فى كل معرفة ، ووغلتُ بعقلى على كل سرّ ، حتى لعلمتُ كلّ معلوم . بيد أنى اليوم وقد نيَّفتُ على السبعين ، راجعت عقلى فعرفت أنى لم أعرف شيئا قط .

فاطلب الجهل إذن أيها العاقل ، بدلاً من طلب العلم . أما الجاهل الحقّ فهو من لا يدرك الجهل !

٨ — الموت فى الميدان (فناء البقاء)

هنا ، فى هذه الحيرة القانطة ، والقلق القاتل .. يتراءى من وسط الظلمة الطاخية الموحشة شبحٌ هائل مروِّع ، ينعقد لرؤيته لسان الخيام ، وتنسدُّ عليه مسالك الحيلة ، ويتعطَّل التفكير . شيء لا كالأشياء . جبّار ، مخوف ، يلتهم كل شيء .. هو الموت !

إنه يلتهم الناس أفراداً وجماعات ، والقصور والقبور . ويأتى على الأفكار والآمال والأعمال . ويطمس الخير والشر ، والبؤس والنعيم ، فلا يُبقِى على شيء .

فما الحيلة ؟ لا حيلة . وأين المفرّ ؟ لا مفر .

صار شبح الموت يتمثّل لعيني الخيام حيثما التفت . فهذا

جسدك كان طيناً لأجساد الغابرين ، وسيصير طيناً لأجساد الآتين . وهذه حياتك ليست إلا موتاً ، ففى كل ليلة يموت منها يوم . ولتأكلنَّك الأرض ، فإن كان غرَّك أنها لم تأكلك بعدُ فاصطبر ، فما فات الأوان .

ألموت ، الموت . فى كل مكان وفى كل زمان ، وفى كل شيء . أصبح الخيام يرى الأجساد فى كل جماد . يمشى على الأرض فيشفق أن يطأ العيون الناعسة والثغور اللعساء ، ويضع شفتيه على جام المدام فيتوهَّم أنه يقبّل شفة كاعب حسناء ، تكلِّمه وتذكّره أنها كانت مثله . ويرفع بصره إلى شرفات القصور فيرى فى لَبِناتها كفَّ مليك أو رأس وزير .

إذا وقعت عينه على كوز قال إنه إنسان باعتبار ما كان ، وإذا أبصر إنسانا قال إنه كوز باعتبار ما سيكون . وإذا شاهد الوجه الجميل تذكّر أنه سيُدفَن فى التراب فتنمو منه الزهور ، وإذا نظر إلى الزهور قال إنها نَمَتْ من الوجه الجميل .

وربَّ طينٍ يركله الإنسان بقدمه فيسمعه الخيام يقول مستعطفا : « لقد كنتُ مثلك ، فارعَنِي ! » أو مهدِّداً : « مهلا ، فلتذوقنَّ الركل مثلى ! » . فيا ويح الخزّافين يصفعون الطين ويلكمونه غافلين ، وما يدرون أنه تراب الآدميين .

انظر إلى هذه الوردة الرائعة ، تستيقظ مع الفجر وتقصُّ حكاية لنسيم الصَّبا ، فما تكاد تتمّ حكايتها حتى تنتفض انتفاضة الموت ، وتهوِى . أفهكذا ؟ فى عشرة أيام وحسب ، تنبثق برعماً صغيراً حبيباً كالطفل الوليد ، ثم تنمو كما تنمو الصبيّة الكاعب ، ثم تكتمل كما تكتمل الغادة الناهد ، ثم تموت ؟.. يا لغدر الدهر .

لو كانت هذه السُّحُب تحمل الترابَ كما تحمل الماء ، لأمطرت حتى القيامة من دماء الأحباب .

أوّاه . ما أكثر ما ستبقى الدنيا بعدنا . لم نكن فى الكون فما كان به نقص ، وسنغادره وسيبقَى كالذى كان ! فما أحقر شأننا .

ما كره الخيامُ شيئاً كما كره الموت . ولا هابَ شيئاً كما هاب الموت ، ولا شغل فكره شيء كما شغله الموت . ولكن الشيء الوحيد الذى لم يثُرْ عليه ولم يناقشه الحساب هو الموت .

إنى حللتُ مشكلات الكون كلَّها ، ووثبتُ من كل أحبولة نصبها الخداع لاقتناصى . ففضحتُ كلَّ الأسرار . . . إلا سرّ الموت .

٩ — فشل الثورة (مآسى الحياة)

ما جدوى هذه الحياة إذن ؟ ها قد أدبر الشباب ، وأخفقت الآمال ، وتراكمت المحن والأحزان . فوا أسفاً على مثل هذا العمر ، مضى عبثاً كما تمضى ليلة السكر ، ومرقت فيه الآمال مروق السمك من الشبك !

ما نحن إلا لعبة بيد الفلك ، لعِبَ بنا برهةً على مسرح الدهر ، فى حياة كلها خيبة آمال وقنوط ، ثم جمعتنا يده الجبارة واحداً واحداً وألقتنا فى صندوق العدم . ألا ليت الإنسان يعود بعد دهور إلى الحياة ، ولكن هيهات .

أخذ الخيام يتلفّت إلى الماضى الضائع والمستقبل المكفهّر ، ويجترّ الآلام . فجعل يتلمَّس العزلة ، وينتظر الأجل . ثم صار يتمنى لو لم يكن ، أما وقد كان فليته يعاجله الفناء فقد ملَّ المقام . ثم جعل ينعى نفسه سلفاً فى شيء من الاستسلام ، ويخبرنا عن ذلك الخيام الذى خاط خيام الحكمة ، كيف قطع أطنابَه مقراضُ الأجل ، وباعه رخيصاً دلالُ الأمل . ثم هو يتطامن ويسألنا ألاَّ نحزن عليه إذا مات ، فقد أفلت من قبضة الردى .. وهكذا فشلت الثورة .

١٠ — فرار الثائر (عدم الوجود)

لا تأْسَ إذن على ما فاتك من أوطار الحياة ومباهجها ، ولا تبتئس لما أصابك من أشجانها وكوارثها . فما دامت العاقبة هي الفناء ، فكلا الأمرين سواء .

لعمرى ما الكون إلا أوهام ، وما الأقاويل إلا ترّهات ، ولا الدنيا كلها إلا هذه اللحظة القصيرة ، العابرة . لقد درسنا على الأساتذة زمناً ، وفرحنا يوم صرنا فى عداد الأساتذة ، فإليك آخر حكايتنا : خرجنا من التراب ، ومضينا فى الريح . فهل الحياة إلا منام ، وخيال ، وضلال ، وغرور ؟

يا فؤادى . . هَنْكَ حقَّقتَ أوطارك كلَّها ، واستمتعت بمباهج الدنيا كما تتشهَّى ، فكأنى بك قطرة طلّ ، باتت ليلةً على الزهر ، ثم تبخَّرتْ فى الصباح .

وهبك قرأتَ أسرار الوجود ، وسخّرت الدهر ، وملكت البرَّ والبحر ، وعشتَ قرنا كاملاً ، أو قرنين . فهل لذلك كله من نهاية غير القبر ؟

وما دام المعدوم موهوما ، والموجود منقوصا ، فهَبِ المعدوم موجوداً والموجود معدوما ، واسترح .

ولو فكّرتَ فى البداية والنهاية ، لوجدت الأفراح والأتراح ، والطِّيبَ والخبث ، والحسن والقبح ، والهناء والشقاء — كلها سواء بسواء ، وهباء فى هواء .

عبثٌ إذن رؤيتك الدنيا ، وعبثٌ كل ما قلتَ أو قيل لك . وباطلٌ أن ركضت فى الآفاق ، أو قبعت فى بيتك !

باطلٌ جسمك هذا أيهذا الغافل ، وباطلٌ هذا الفلك المنمَّق الحافل . ولئن أسِرنا برهةً فى دار الكون والفساد ، فلا تكتئب . فهذا أيضا باطل !.. وهكذا فرَّ الثائر .

١١ — فى المنفى

(١) نخب الهموم

فشلت الثورة ، وفر الثائر ، وإذا هو مقهورٌ يائس فى جزيرة الحياة ، كأنه نابليون فى سنت هيلانة . فكيف الصبر على هذه المحنة ؟ أما من دواء لتخفيف الألم ؟ أما من حيلة لإنامة الأفكار ، والقلق ، والهواجس ؟

بلى . . أيها الساقى ، إنّ العلاج لديك . لقد ضاق صدرى وركبتنى الهموم — هموم الحياة والموت ، والدين والناس ، والأرض والسماء ، فاسقنيها شقراء بلون الارجوان . إسقنيها تسلب العقل ولو هنيهة يسيرة ، عسانى أذهل عن نفسى وأحداث الزمان . فلنغسل أشجان الدنيا بماء العنب . وارفق بنفسك المُعَارة الحبيسة ، وأَرِحْهَا بالصهباء من عقال العقل .

آه يا صهباء ! مالى فى الدنيا صديق صافى الدخيلة ، خارج الجام . أيها الساقى فلا تقبض يدك عن الكاس ، فلم يبقَ باليد سواه ! أنت تدرى أنّ هذه الحياة ليست غير ريح ، فاسقنيها عسى أن تمضى بسرعة الريح . وإنك لتعلم أن الدنيا صائرة إلى الخراب ، فكن بالسلافة أنت أيضا خربا ! أما ترى أننا فى الصَّحْوِ لا يكمن لنا غير الحزن فى كل شيء ؟ فمتى ثملنا فليكن ما يكون . فالحميا إذن راحة روحك ، وطبُّ جروحك . فتعلَّق بها كلما اجتاحك طوفان الأسى ، فهي فلك نوحك !

لا تحسب أنى خليع سكير ، فأنا لا أشرب الخمر طلبًا للنشاط أو الطرب ، ولا ابتغاء المروق على الدين أو الخروج على الأدب ، وإنما أشتهى الغفلة عن نفسى قليلا . وهذا كل ما فى الأمر .

(ب) نخب الموت

وهل من ملاذٍ غير الخمرة والعمر يمرق من الأيدى مروق الزئبق ؟ فما لى أحمل الهمّ لفقرى أو ثرائى ، وشقائى أو هنائى ؟ أفلا يستوى الحلو والمرُّ إذا تصرَّمت حبال الحياة ؟ فهات الكأس أنعَم به ، فإنى أخشى أن يدهمنى الأجل قبل أن أشربه .

يا صديقى . كفكف من أنانيتك ، وخفِّف من غلوائك ، وعليك بالصهباء ، فإنّ حياة يعقبها الممات لخليقة بأن تقضيها بالسكر أو بالسبات ! لقد زرع الدهر من أمثالنا كثيرين ، ثمَّ احتصدهم . فلِمَ الغمّ ؟ هاتِ قدحًا آخر ، فإن الكائن كائن ! إن المقيمين سيرحلون ، والراحلين ليسوا بالعائدين . إنهل كأس خمر ، فمتى حان الحَيْن لن يمهلنا هذا الفلكُ العابسُ الحقود أن ننهل كأس ماء . فلا تدَعْ رغبةً تفُتْكَ ولا لذةً تفلت منك .

انظر إلى هذا البدر شقَّ نُورُه جلبابَ الدياجى . فهل تطمع بأجمل من هذه الآونة ؟ لا تفكر يا حبيبى واشرب الراح ، فكم سيطلع هذا البدر ويغشَى الأرض بنوره ، يفتّش عنّا فلا يجدنا . . إذ نحن تحت التراب .

ها قد أشرق الصبح بهيجًا طيبًا ، فصبَّ ما بقي لنا من خمرة الأمس ، وهاتها يا حلو فى الكأس قبل أن تصنع الأفلاك من طيني ومن طينك الدّن . لقد ألصقتُ شفتى بشفة الكوزة ذات مرّة لعلها تنفحنى طول الحياة ، فقالت لى همسًا : إننى عشتُ كما عشتَ ، فعاشرنى قليلا !

تأمّل هذه الخمائل الناضرة ، والزهور العاطرة ، فلقد أينعت من ثرى الأسلاف ، وستذوى وشيكا . فلنستمتع بها قبل أن تنمو من ثرانا .

(ح) شيوخ الحانة

عرجتُ أمس على الحانوت ، فرأيت شيخاً يحمل على منكبه الدّن ، فقلت له : ألا تخجل من الله تعالى ؟ قال : أللهُ كريم ، فاشرب واسكت ! ورأيتُ شيخاً ثانيًا يحمل القدح بيدٍ والسجادة بيد . فقلت : ماهذا يا شيخ ؟ فقال : خذ قدحًا ، فإن الكون ريح ! ورأيت شيخاً ثالثاً قد اجتمع حوله السامرون يحدّثهم . فقلت له : خبِّرنا عن الغابرين ؟ قال : اشرب ياصاحبى ، فقد ولّى الغابرون ولم يأت عنهم خبر ! ورأيت شيخاً رابعًا قد انطرح منهوكاً من فرط ماشرب . وإذا هو يتمتم : أللهُ لطيف بعباده !

(ز) نخب الزاهد الدجال

فيا أيها الزاهد الدجال ، المغنّى بقصير الحياة ، لا تقل لى : أين ذهابى بعد الموت ؟ أعطنى الكأس واذهب حيث شئت !

حسبك تشهيراً بالسكارى ، ومخاشنةً لمن هم أفضل منك وأكرم . وانهل الراح ، فلست بشربها أو تركها تدخل الجنة إن كنت من أهل الجحيم . إن جرعة من الصهباء خير من عروش المالكين ، وأنيناً يرسله الخمار فى جوف الدجى لخيرٌ من تأوُّه الزاهدين الكاذبين .

(ح) نخب الدين

لقد سَئِمَتْ نفسى طول النفاق ، فقم أيها الساقى وبِعْ سجادتى بكأسٍ من الشَّمول ، وادفع طيلسانى أيضاً — لكي يصيح افتخارى بما يبقى لى بعد ذلك ! وربَّمَا قائل يقول لى : إن شرب الخمر يؤدِّيك إلى النار فى الآخرة . دعونى من أطماع الآخرة والدنيا ؛ فإن جرعة من بنت العنب خيرٌ من كليهما !

يا فؤادى فاتَّخذ الجنة هنا من طلعة الحبيب وابريق الحميا ، فقد لا تدرك الجنة هناك . و إنّ نقداً فى اليد خيرٌ من ألف نسيئة . فدع كل صلاة وصيام ، إلا إذا توضَّأْتَ فى الحان بالمدام ، أو تيَمَّمت بثراه ، لعلك فى الخمارة تسترجع عمراً غابراً ضيّعته فى المدارس . ولعمرى إن الذى يحسو أفاويق الطِّلا مستريحٌ من المحاريب خليٌّ من الديور ، فارغ البال من الأديان والمذاهب ، وأمل الرحمة وخوف العذاب . فمن أراد أن يعرف دينى فهو الفراغ من الدين والكفر !

(و) الله كريم

وربَّ قومٍ يقولون لى : « تُبْ لله ! » فإذا لم يُرِد اللهُ لى كيف أتوب ؟ كلا . إن الله لا يقبل توبتى ، و إنى لن أتوب ولو قبلها !

اغتنم اللذات ياصديقى ، واظفر بمتاحات الأمانى ؛ فإن الله غنيٌّ عن تقواك ومعصيتك جميعاً . ألا تدرك أن من يخلق هذه الأكوان لا يبالى بشاربَيْ مثلك أو لحيةِ مثلى ؟ اللهم فاحفظنى صريعاً بالحميّا طول عمرى ، فمن الغفلة لا أعرف ما يقلق فكرى !

(ز) نخب العقل وألغاز الوجود

إننا لا ندرى ماذا وراء الستار .. ولا نعلم كيف حلول الروح فى الجسم .. ولا مثوى لنا غير التراب . فحتّامَ هذه الحكايات ؟ وإلامَ نبقى أُسارى بيد العقل العاجز ؟ إنْ هذى إلّا أساطير كلها لا نفع فيها . وما القديم والحديث بعد أن نموت ؟ حسبنا نتفكّر من أين جئنا وإلى أين سنذهب ، ونتحيّر فى الأربعة (العناصر) والخمس (الحواسّ) والستّ (الجهات) والسبعة (الأفلاك) ، ونتجادل فى الواحد والكثير ، ونعبأ بما يكون فى الدهر كأنّما أُنيط بنا تدبير الكون . إننا نُعَنِّى أنفسنا بتحصيل العلم ثم لا نظفر بغير الشك ، وأما اليقين فلا يقين . أفنفْنِى حياتنا القصيرة فى هذا العبث ؟ عليك بالراح ، ففى ظلام الجهل يستوى السكران والصاحى ! أما أنا فلأَصُبَّنَّ جرعةً من الخمر على هذا العقل الفضوليّ حتى ينام ! بل لأُطَلِّقَنَّ العقل والدين ثلاثاً ، وأتزوّجنَّ بنت الكرم !

(ح) نخب اللحظة الحاضرة

الأمس مضى وفاتك ، فلا تعاود ذكره . والغد غيبٌ لمّا يجئ ، فلا تتدبّر أمره . إنك إنما تملك من حياتك كلها هذه اللحظة الحاضرة ، فاغتنمها .

أَلقِ عن قلبك أثقال الأسى والأحزان ، وأنسَ ما لم يكن وما كان ، وأطَّرح هموم الجاه والمال ، وتحرّر من الآلام والآمال . إن هذه الأنفاس فى جسمك عارية ، فاغتنم عارية العمر وعشها عارية !

إيه يا خيام . إن شربت السُّلافَ فاسكر واطرب ، وإذا جالست الغادة الحسَّانة فتمتَّع والعب . آخرُ الدنيا فناء فافترض أنك فانٍ ، وبما أنك موجود فتنعم بما يتاح لك من لذائذ الحاضر وغبطته .

هلَّا حاسبت نفسك ماذا جلبت معك يوم أتيت ، وماذا ستحمل معك إن توليت ؟ فأين أنت من صافية الراح وحسناوات الملاح ؟ إنّ كل نَفَسٍ ينقضى إنما ينقضى من عمرك هذا الذى لا تملك فى الكون سواه ، فهو رأس مالك . فلا تقضه بغير اللهو والسرور ، واعلم أنه ينقضى كما تقضيه أنت . وإيّاك أن تتوب ، عن الخمرة أو غيرها من نعم هذه الدنيا . ها هي الأزهار تفوح والأطيار تنوح .. أفى وقتٍ كهذا يجوز المتاب ؟

لا تفكّر بعد اليوم فى ماضٍ ولا آت ، بل اغنم الحال . اغنم الحال ، فإن المقصود من الحياة هو هذا .

(وهنا ينتهى الفيلسوفُ إلى حيث يبدأ رجُلُ الشارع وينتهى ، فيلتقيان على متاع اللحظة الحاضرة ، ونسيان كل ماضٍ وآتٍ ، وانصرافٍ عن شؤون الفكر والدهر . فهذا هو مقصود الحياة على حدِّ تعبير الخيام — يدركه العامة بغريزتهم الجاهلة ، من غير ثورة ولا فلسفة . ولكن مع فرق واحد ، هو أنهم لا يخلّفون للأجيال كنزاً من الرباعيات . ولو قال الخيام إن مقصود الحياة هو عمل الخير للمجتمع ، الذى لا يمكن بدونه أن تتهيأ المتعة للجميع ، لكان أقرب إلى الصواب والواقع . ولكن فشل ثورته وتشاؤمه القانط جعلاه سلبياً لا يروم غير التهرب من الهموم) .

(ط) نخب الحبيب

ولئن كنت آسفُ على شيء فإنما آسف على ما انقضى من عمرى بغير حبيب وشمول . فلا أَضْيَعَ فى حياتك من يوم يمضى فى غير غرام . ولست أقصد الحبَّ المجازيّ ، فهو لا رواء فيه ولا نضارة ، كأنه الجمرة الهامدة ما فيها حرارة . وإنما أقصد ذلك العشق المحرق الذى لا يستمرئ المدنف معه طعاماً ولا مناماً ، ولا يقرّ له قرار . فلأبا كِرْ فرصة البهجة إذن فى الروض الظليل ، بيدٍ فرع الحبيب ويدٍ كأس الشمول .

ويح العاذلين يقولون لى : « ما عذرك فى لهوك وسكرك ؟ » إن عذرى لثغر الحبيب وأبريق الصبوح ! فأيُّ عذر يا ترى أوضح من هذا يكون ؟

تعال هنا يا وثنى كرامةً لقلبى ، وفرِّج بحسنك كربتى . وهاتِ كوز الصهباء قبل أن يصنعوا الكوز من طيننا . فلنتبع نهج دراويش الحان ، لا نبتغى غير الراح والحبيب والسَّماع . ولندع أقاويل الهراء ، إلا ديواناً من الشعر . وما دمتَ معى ما أبالى أن أعيش فى قفرٍ ببابك ، فإن ذلك أحلى عندى من ملك السلاطين . ولسوف ترانى ذات يوم قد صرعتنى الشَّمول ، فهوَى رأسى على قدمك وجداً وذلاً ، ووقعت الكأس من يدى والعمامة من رأسى . . هائماً بجمال وجهك ، كأننى من عبدة الأوثان !

(ى) نحب الأنحاب

ويا صهباء ، إنك لأنتِ شرابى الفاضحى بين العباد ، فلأشرب منك ما يذهب بصوابى ! ومهما هتكت سترى فلن أقلوك وفى نفسى رمق ، أنت التى لم تقع عينٌ على أحسنَ منك . فيا عجبى للبائعك ، ما عساه يشترى أفضل مما يبيع ؟

إنى لا أحتمل العيش بدونك ، ولا طاقة لى بحمل هـذا الجسد الثقيل . فما أحلى ساعةَ يقول لى الساقى : « إليك قدحاً آخر » ، وأنا لفرط السكر لا أستطيع !

لقد عرفتُ ظاهرَ كلِّ موجودٍ ومعدوم ، واطَّلعتُ على باطن كلِّ رفيعٍ ووضيع ؛ فلأخجلْ إذن من كل علمى إن كنتُ أعرف مكانةً فوق السكر !

يا أحبائى ، فاجعلوا الحميّا قُوتى ما حييت ، واغسلونى بهـا متى وافانى الأجل . ثم أعدُّوا تابوتى من الـكرمة ، ثم فاصنعوا من ترابى جاماً لعلى أحيىٰ فيه إذا امتلأ من بنت العنب . وما أبالى بعد الموت فخراً ولا ذكراً ، فاطمسوا قبرى ، واجعلوا سيرة حالى عبرة للعالمين . ولـكن لا تنسوا أن تصبُّوا الراح على ترابى ، وأن تصنعوا من جسمى سِدَاداً للخوابى . ومتى اجتمعتم لمعاقرتها بعدى ، وجاء دورى ، فاذكرونى ، واقلبوا كأسى .

١٢ — ستار الخيام

الآن وقد انتهينا ، فلنتأمّل قليلا . أيهما أصوب يا ترى : سكارى الحان أم أحلاس المحاريب ؟ يقول الخيام إنّ كلا الفريقين على ضلال ! وعلى أيّة حال لم يكن هو من أهل الدير ولا المسجد . أما إذا أردتَ أن تعرف حقيقته ، أجابك أنها لا يعرفها إلا من جبل ترابه . إنه فى الدنيا أشبه بالكافر المعدم والمومس المحرومة من نعمة الجمال — قد خسر الدنيا والآخرة ، وقطع الرجاء من الجنة .

ترى ، هل عرفنا الخيام على حقيقته ، وهل صدق حدسنا فى فهمه ؟

قال قوم إنى زيرُ نساء زقُّ خمر ، وقال آخرون إنّى وثنيّ كافر . فليقل مَنْ شاء فيَّ ما شاء . غير أنى ملك نفسى ، كيفما أكن أكن ! ..

فهو يعدُّ تحرِّينا أمره تطفلاً وفضولاً كما ترى .

طهران : ٥ أيار ١٩٤٩ — عبد الحق فاضل

الباب الثانى

صوت الخيـــام

(الرباعيــات)

١

ثورة على المجتمع

— ١ —

فُصِّلتْ أسرارُ دنياكم لدينـــا فى الدفاترْ
قد طويناها ففى النشر وبالٌ ومَخاطرْ
لم نجِدْ فى الناس من يَعقلُ من أهل البصائرْ
فغَدَا يُعجِزُنَا إظهـــارُ ما تُخفِى الضمائرْ !

— ٢ —

جَزِعَ الدهرُ علينا مذ رحلنـــا وقنَطْ
أن ثقبنا دُرَّةً من مائةٍ فيـــه فقطْ !
لَهف نفسى ، كم أُلوفٍ من معانٍ فى السَّفَطْ
حَالَ عن إعلانها بالناس جهلٌ وشططْ !

— ٣ —

ربَّ سرٍّ لستُ أسطيع له فى الخلق فضحا
فاستمع موجَزَ قولى ، لا تَسَلْنى عنه شرحا !
آه من حالٍ أرانى عاجزاً عن وصفها
آه من سرٍّ طواه القلبُ لا يقبل بَوْحا

— ٤ —

أُكتُمُ الأسرارَ عمَّنْ سفلوا وأُبتُذِلوا
وصُنِ الحكمة عن كلِّ عمٍ لا يعقلُ
وتأمل .. فى مكانِ الناس ماذا تعمل ؟
وتوقَّع مثل هذا منهمُ أن يفعلوا

— ٥ —

أنا بالنفس أُفدِّى كلَّ حرِّ النفس أهلِ
إن أضع رأسى على رجلَيْه لم أشعر بذلِّ
أفتبغى أنت أن تعرف ما نارُ الجحيمِ ؟
هي فى الدنيا لعمرى صحبةُ الفَدْمِ اللئيمِ

— ٦ —

عاشِرِ الأطهارَ من كلِّ كريمٍ عاقلِ
ومن الأشرار فاهربْ ألفَ ميلٍ مائلِ !
إشرب السُّمَّ إذا أعطاكه أهـــلُ الحجى
وأهرق الشهد إذا أعطته كفُّ الجاهل !

— ٧ —

صاحِ أقْلِلْ ما تمكّنتَ عديدَ الأصدقاءِ
واصطحبْ إن شئت أهلَ الدهر ، لكنْ من بعيدِ
إنَّ من تركَنُ فى الدنيـــا إليه بالولاءِ
ليس فى باصرة العقل سوى خصمٍ لدودِ !

— ٨ —

إن رعىَ عهدى غريبٌ كان لى من أقربائى
وإذا خانَ قريبٌ كان بعضَ الغرباءِ
أنا إن أسقمنى الترياق فالترياق دائى
أو شفانى السُّمُّ كان السمُّ طبّى ودوائى !

— ٩ —

يا لها محبوبة ، طالَ كأشجانى بقاها !
بدأتْنى اليومَ إحساناً جديداً من نداها
نظرتْ فى ناظرى وانصرفت ، أي يا أخى
إصنع الخير وفى الماء أرمِهِ ، لا تتباهَى !

— ١٠ —

لا تجرِّع أحداً غصَّـــةَ حزنٍ بَطَرا
لا ولا تُصْـلِ بنار الغيظ مرءً فى الورى
وإذا أحببتَ أن ترتاح حقاً عُمْرا
فاحمـلِ الحزن ولا تُحْزِنْ لشيءٍ بشرا

— ١١ —

إنما الراحة فى الدنيا ولذّات الصفاء
خُلِقتْ للمطلق الضَّارب فى كلِّ فضاء !
فإذا أصبح فردٌ مستريحُ البال زوجاً
فلقد بُدِّلَ من راحتـــه أيَّ عناء !

— ١٢ —

ليس فى ميزان هذا الدهرِ نفعٌ للعقولِ
إنما يربحُ فيه كلُّ مأفونٍ جهولِ
فاسقنيها تُذْهِبُ العقلَ ذهوباً منكَرَا
فعسى أن يُحسِنَ الدهرُ إلينا النظرا !

— ١٣ —

ليست الفضَّةُ فى الدنيـــا بذخرِ الحكماءْ
بيد أن العادمى الفضَّةَ فيهـــــا سُجَناءْ
أطرقَ النَّسرينُ بالرأس لعُدْمٍ وسَغَبْ
بينما يضحك ثغرُ الورد فى كيسِ الذَّهَبْ !

— ١٤ —

ليس فى الإمكان تغييرُ الذى خَطَّ القلمْ
فالأسى لا خير فيـــه غير تأريثِ الألمْ
لو قضيتَ العمرَ فى حزنٍ على الدنيا وحسرَهْ
لم تَزِدْ ما هو موجودٌ ولا مثقالَ ذَرَّهْ !

— ١٥ —

لِمَ هذا الحزن للآتى الذى لم يحضرِ ؟
إن طول الهمِّ من حظِّ البعيدى النظرِ !
لا تضيِّق سَعَةَ الدنيا على قلبك ، فافرحْ
لن تزيد الرزقَ أو تنقصه بالكدر !

— ١٦ —

إن ما تَطعَمُ أو تلبسُ مما تبتغيهِ
أنت معذورٌ بما تكدحُ كيما تقتنيهِ
أيها العاقل ، والباقى فضولٌ ، ورخيصٌ
فتحذَّرْ أن تبيع العُمرَ الغاليَ فيه !

— ١٧ —

كم تُذلُّ النفسَ فى خدمة أوغادٍ لئامِ ؟
تَنْتَحِي كلَّ طعامٍ ، كالذُّباب المترامى ؟
كُلْ رغيفاً كلَّ يومين بلا مَنِّ الأنام
فلأَنْ تطوِيَ خيرٌ لك من خبز الكرام !

— ١٨ —

إن أصابَ المرءَ فى اليوم رغيفاً واحدا
واحتسى من كوزهِ المكسور ماءً باردا
فلماذا ياترى يخدِمه مَنْ دونَه ؟
ولماذا ياترى يخدم ندًّا سائدا ؟

— ١٩ —

أنا إن فزتُ من القمح المنقَّى برغيفِ
ومن الخمر بزقٍّ ، معه فخذُ خروفِ
ثم أحيْي وحبيب القلب فى عرض تنوفِ
فهي العيشة ، ما تاحت لذى الملك المنيفِ

— ٢٠ —

إنَّ من صاروا عظامَ الناس من أهل المناصبْ
سئموا أنفسَهُم من فرط حرصٍ ومتاعبْ
وإذا هم أبصروا غيرَ حريصٍ مثلهم
لم يَرَوْهُ آدميًّا مثلهم . . يا للعجائب !

— ٢١ —

ربَّ سهمٍ ترشقُ الآجالُ لا درعَ تصدُّهْ
وثراءٍ يحشدُ الإنسانُ لا يجديه حشدُهْ
كلما فكّرتُ فى الدنيا عدَدْتُ الخيرَ خيراً
وبدا لى ما عداه باطلاً لستُ أعدُّهْ

— ٢٢ —

أنا آثرتُ من الدنيا رغيفين وخلوَهْ
وصرفتُ النفسَ عن كلِّ غِنى فيها وسطوَهْ
إننى أُبتَعْتُ بروحى كلَّها دَرْوَشَـــةً
فلكم ألفيتُ فى متربة الدرويش ثروَهْ !

— ٢٣ —

ليس فى إيوان هذى النيِّراتِ الدائراتِ
من ســـعيدٍ قطُّ غير اثنين من أهل الحياةِ
مُدرِكٍ يفقه كنهَ الدهر من خيرٍ وشرٍّ
وجهول غافل عن نفسه والكائناتِ !

— ٢٤ —

لاح ثورٌ فى السَّما يُدْعَى الثريَّا ، ظاهرُ
واختفَى تحت طباق الأرض ثورٌ آخَرُ
فإذا ما نظرتْ واعيةُ العقل البصيرِ
شاهدتْ بين كلا الثورين سرباً من حميرِ !

٢

ثورة على الدجالين

(من رجال الدين)

— ٢٥ —

يتظنّى الشانيُّ الواهمُ أنى فيلسوفُ !
علمَ اللهُ بأنى لا كما قال السخيفُ
غير أنى وأنا فى وكر أتراحٍ وبؤسِ
لا أقلَّ الآن أن أعرف فيه كنهَ نفسى !

— ٢٦ —

كلَّ شىء قلتَ عنى كان عن حقدٍ جَلِىّ
أبداً تزعمُ أنى ملحـــدٌ لا دينَ لى
إننى نفسى بنفسى عارفٌ معـــترفٌ
أفأهلٌ أنت أن تسألنى عن عملى ؟

— ٢٧ —

سيِّدى أنت فقيهٌ ، لست تدرى ما الخبَرْ
ما الذى تنكر بالله على أهل النظـــرْ ؟
هم أطالوا الفكرَ فى الصانع أو صنعته
وتفقَّهتَ بحيضٍ ، ونجاســـاتٍ أُخَرْ !

— ٢٨ —

سيّدى ، هلا تكرَّمتَ علينا بمـــرامِ ؟
أَعْفِنا ناشدتك الديَّانَ من هذا الخصامِ
مستقيمٌ سَيْرُنَا .. لكنَّ فى عينيك زَيْغاً
فالتمسْ طبًّا لعينيك ، ودعنا فى سلامِ !

— ٢٩ —

أيها الزاهد ، ما مثلِيَ مَنْ يجهل مثلك
فالتمس غيرى غريباً جاهلاً يذكر فضلك
قلتَ لى : إن تَجْنِ ذنباً تَكُ فى النار ! فمهلك
أيها الزاهد قل هذا لمن يجهل فعلك !

— ٣٠ —

أيها القالى الحميّـــا ، لا تندِّدْ بالسكارى
لا تشيِّدْ بالأساطير وبالتدجيـــل دارا
إن تحرَّجتَ من الخمر فلِمْ تُزْهَى اغترارا ؟
كم فعالٍ لك تَخْزَى الخمرُ منه وتوَارى !

— ٣١ —

أنا أحسو الخمر ، لـكن ما أدَارَ السكرُ رأسى
ويمينى لم أطِلْها صوبَ شيءٍ .. غير كأسى !
أفتـدرى ويك ما سرُّ افتتانى بالحميَّـــا ؟
ذاك أنى لم أكن مثلك مفتوناً بنفسى !

— ٣٢ —

كان سُـكرى وطِلابى الراحَ مقدوراً جرَى
فلماذا أُولِعَ الخلقُ بعـــذلى يا ترى ؟
أتمنَّى لو غَـــدَا كلُّ حرامٍ مسكرا
عندها ما كنتُ ألقَى صاحيًا بين الورى !

— ٣٣ —

إننا أكثرُ شغلاً منك ، يا مفتى القضاء
وبهـذا السُّكرِ أصحَى منك ، عند العقلاء
كم شربتم دَمَ قومٍ ، وشربنا دم كرْمٍ
فأجبنى . أيُّنا أنكرُ شرباً للدماء ؟!

— ٣٤ —

قال شيخٌ لبغيّ : أنتِ ذى سكرَى ، فسحقا
كلَّ آنٍ لك غاوٍ فى أحابيلكِ مُلقَى
فأجابت : أنا يا شيخُ كما تحكى وأشقى !
فأجبنى عنك ، هل أنت كما تَظْهَر حقا ؟!

— ٣٥ —

إنّ شُربَ الخمرِ والصَّبوةَ بالغيد الحسانِ
كان خيراً من تعاطى الزهد زوراً باللسانِ
إنْ تكنْ عاقبـةُ السكّير فى نار الأبدْ
فلعمرى لن يرى الجنـة مِ الناس أحد !

— ٣٦ —

إننى أفخر بالحانِ ، فأهلُ الحانِ أهلُ !
ولدى الإنصاف حتى سُوؤها حلوٌ وسهلُ !
إنّ دُورَ العلم لم تُنجِبْ حكيما ذا أصاله !
فاهدموا هذى الزوايا ، إنها دور الجهاله !

— ٣٧ —

إنّ قوماً لزموا المحراب عمراً لحميرْ
فلقد ناؤا بأوساقِ رياءٍ وغرورْ
وعجيبٌ أنهم تحت ستار الزهد باعوا
دينَهم بيعاً ، فهم أنكر من كل كفورْ !

— ٣٨ —

كن حماراً بين جهّالٍ رأوا بالحذلقه
أنهم فى الأرض أهلُ العلم طرّا والثقه
كم تجنّوْا من حماريّتهم واتّهموا
كلَّ من ليس حماراً مثلهم بالزندقه !

٣

ثورة على الدين

— ٣٩ —

قيل إنّ الشاربَ الخمرَ إلى النار يصيرُ
قالةٌ لا يركنُ القلبُ إليها ، فهى زورُ !
إن يكُنْ منقلَبُ الشاربِ والعاشقِ نارا
فغداً سوف ترى الجنَّة كالراح[1] قفارا !

— ٤٠ —

قيل فى الجنـة حُورٌ قاصرات الطَّرْفِ عِينْ
وخمـــــورٌ جارياتٌ فى نهورٍ وعيونْ
أيّ ضَيْرٍ إن طلبنا الحورَ والخمر هنا ؟
إنّ هذا هو عقبى الأمر . . فيما يذكرون !

(١) جمع راحة ، وهي باطن الكف .

— ٤١ —

قال مَنْ صارت لهم فى العلم والتَّقوَى الإمامهْ :
« يُحشَرُ المرءُ على ما كان إذ لاقَى حِمامه »
ولهـــــذا نلزم الحسناء دوماً والمدامه
فعسانا هكذا نُحشَر فى يوم القيـــامه !

— ٤٢ —

قيل لى : ما أطيب الجنَّاتِ بالحور الحسانِ
بيـد أنى قلتُ : ما أطيبها بنت الدنانِ !
فدع القرض ، عليك الآن بالنقد الوكيدِ
يا صديقى ، إنّ صوتَ الطبل يحلو من بعيدِ !

— ٤٣ —

يا فؤادى ، لم يَرَ الجنّةَ والنارَ بشرْ
أم أتى من ذلك العالَمِ آتٍ بخبرْ ؟
إنّ ما نخشى وما نرجو منوطانْ بشىءٍ
ليس يبدو منـه إلا اُسمٌ ووصفٌ للنظر !

— ٤٤ —

آه ، كم أبنى على الماء من الوهم قصورا ؟
سئِمتْ نفسِيَ أوثاناً لعمـــرى وديورا
أيها الخيام ، مَن قال لنا ثَمَّ جحيمْ ؟
من تولَّى فى جحيمٍ أو تدلَّى من نعيمْ ؟

— ٤٥ —

كرَّ بى الفكرُ إلى أول يومٍ فى الخليقه
ناشداً فى اللَّوح والجنة والنار الحقيقه
وإذا العقل ينـادِى قائلا : ما أضيعك
ويك إنَّ اللوح والجنة والنـار معك !

— ٤٦ —

إكرع الراح ، فإن صرتَ تراباً فى الترابِ
صار مثواك تراباً لكؤوس وخوابى !
دع حديث النار والجنة وأفرغ منهما
لِمَ يغـترُّ بشيء مثل هذا ذو صواب ؟

— ٤٧ —

أهمِل السُّنةَ والفرض ونصَّ الشارع
وأبذل اللقمة لا تبخل بها عن جائع
ثم لا تؤْذِ عباد الله أو تغتَبْ جليسا
وأنا الضّامن بالأخرى .. فهات الخندريسا !

— ٤٨ —

إخدِمَنْ كلَّ خليع ماجن فى الندماء
وأطّرح اعباء صـــــوم وصلاةٍ ودعاء
إسمع الحقَّ من الخيّام ، ما فيه مراء :
إصنع المعروف .. وأحسُ الخمر واطرب بالغناء !

— ٤٩ —

إسمع العقلَ الذى يبحث فى سُبْل السعاده
إنه ينبيك ألفاً كلَّ يوم ، وزياده :
أنّ إبّانك هذا العمر ، لا عمر سواه
لستَ بالكرّاث ينمو بعد إذ أنهَوْا حصاده !

— ٥٠ —

قُلْ لهم يأتوك بالخمـــــرةِ كالورد الجَنيِّ
قبـل أن تدهمك الأشجانُ فى الليـل الدجيِّ
أيهـذا الغافل الجاهـل ، ما أنت نضارٌ
فيواروه الثَّرَى كى ينشروه بعـــد طيِّ

— ٥١ —

دونك الـكأسَ ، فنى اللحد ستُلْقَى مفردا
مفرداً ، دون أنيسٍ ، أو قرينٍ ، أو خليلِ
هاكه سرًّا مصوناً ، لا تُذِعْهُ أبدا :
أبداً لا تزهِر الوردة من بعد الذبولِ !

— ٥٢ — ✲

أيها الناتج من أربعـــة فى ظلِّ سبعَهْ
وهو فيهـــا دائبُ الفكر ، أخو همٍّ ولوعه
إشرب الخمر .. فقـــد قلنا وقلنا لك ألفاً :
إن تولَّيتَ توليتَ ، فليست لك رجعه !

— ٥٣ —

لي يدٌ تأخذ بالمصحف والأخرى بجامي
وحيـــــاةٌ تتقضَّى في حلالٍ وحرام !
فأنا في الدهر لا النِّيء ولا الناضج حقا
لست بالكافر إطلاقاً ، ولا المسلم صدقا !

— ٥٤ —

أسفاً أنّ يداً تأخـــذ جام الراحِ محضا
كيدى تأخذ بالمنـــبر والدفتر أيضا !
أنت عفٌّ يابسٌ ، لـكننى غاوٍ نديٌّ
ولهيب النار لا يُورِى نديًّا يا أُخَيُّ !

— ٥٥ —

يزعم اللُّوَّامُ أنى فاســقٌ حِلفُ الخنا
وأنا المظلوم ، فانظـــر للتظنِّى ما جنَى !
أنا يا أهـــل التُّقى لم أرتكبْ فى الشرع إثماً
طول عمرى ، غير كفرانٍ وسُكرٍ وزنا !..[1]

(١) هذبنا الشطر الرابع من هذه الرباعية كما ذكرنا فى المقدمة .

— ٥٦ —

لا يَميزُ القلبُ بين الحبِّ فى أشراكِ صائدْ
فهنا لهوُ الحميّا ، وهنـــا تقوى المساجدْ !
بيـــد أنّا فى هوى المحبوب والـكاس المصفّى
فى الحوانيت هنا أنضجُ منا فى المعـــابد !

— ٥٧ —

ليَ ذنبٌ فادحٌ يكسر ظَهر الدين كسرا !
فاضحٌ ، يكسر سوقَ العابدى الأصنام طرا !
باهضٌ ، أخشى إذا ما وزنوه يوم أُقْضَى
مرّةً أن يكسر الميزان يوم الحشر أيضا !

— ٥٨ —

ربَّ درويشٍ رأيتُ أقتعد الأرضَ سنينْ
حاد عن كفر وإســـلام ، وعن دنيا ودينْ
وأشـــاح الوجهَ عن حقٍّ وشرعٍ ويقينْ
يا ترى أجرأ فى الدارين منـــه من يكون ؟

٤

ثورة على السماء

— ٥٩ —

أنت يا ربِّ خلقتَ الحسنَ فى هـــذا المحيّا
زِنْتَه بالورد والريحان ، فتّاناً شهيّا
قلتَ لا تنظر إليـــه ، مثل قول المرء : هيّا
اقلب الكأسَ ولكن لا تُرِقْ منه الحميّا !

— ٦٠ —

نَثَرَ الحبَّ على الأشراك صـــيَّادُ الأزلْ
فحَوَتْ صيداً دعاه آدماً جـــدَّ النِّحلْ
كلُّ ما يحدث فى العالم من خـــيرٍ وشرّ
فهو يأتيه ، ويعتلُّ على الخلق العِلَلْ !

— ٦١ —

ربَّ مسكين رَمَوْهُ فى بوادى العِلَلِ
دبَّروا من دونه الخطَّةَ للمستقبلِ
إنهم يختلقون اليومَ شتَّى حُجَجٍ
وغداً يحدث ما قد بيَّتوا من حِيَل !

— ٦٢ —

ما بخورُ الدَّيْرِ يُرْجى ، أو سراجُ المسجدِ ؟
وخَسَارُ النار ، أو ربح النعيم السرمدِ ؟
أنظر اللَّوحَ تَجِدْ ثَمَّةَ أُستاذَ القضا
خَطَّ فيه ما هو الكائنُ حتى الأبدِ !

— ٦٣ —

ويلتى ، مذ جَبَلوا فى قالب الخلقة طينى
كم أثاروا الشرَّ من هذا الترابِ المستكين ؟
ليس فى مقدرتى أن أغتدى أفضل منى
هكذا من مصهر التكوين كانوا أفرغونى !

— ٦٤ —

عند ما صوَّرنا البارئُ من هـــذا الترابِ
كان يدرى ما سنأتى من أثام وصـــوابِ
إننا لم نَجْنِ ذنباً ليس من تقـــديره
فلِمَ التعذيبُ فى النَّار إذن يوم الحساب ؟

— ٦٥ —

قلمُ المقدار أجْرَوْهُ بأمرى ، دون أمرى !
فلماذا ساءلونى منه عن خيرٍ وشرِّ ؟
ذهب الأمسُ بدونى ، وأتى اليومُ بدونى
فغداً بالله ما حجتهم إن حاسبونى ؟!

— ٦٦ —

سُطِر الكائنُ من خيرٍ وشرٍّ واُحسِمْ
ولقد كلَّ بما خَطَّ على اللوح القلَمْ !
كلُّ ما يحدث قد قُدِّرَ من يوم القِدَمْ
فهباءٌ كلُّ ما ننفق من سعيٍّ وهمّْ !

— ٦٧ —

إن أمرَ الحيِّ والميِّت يا ربّى إليك
ولك الأفلاك لا يخرج ما فيهـــا عليك
إننى عبـــدك مهما كنتُ مرذولا ، فقل لى
أيُّ ذنب لابن أُنثَى هو من صنع يديك ؟

— ٦٨ —

إننى يا ربِّ عبـــدٌ مذنبٌ ، أين رضاؤك ؟
وفؤادى كالدياجى مظلمٌ ، أين ضياؤك ؟
وإذا أعطيتنا الجنّـــة بالطاعة منا
كان هذا منك بيعاً ، أين يارب عطاؤك ؟

— ٦٩ —

ربِّ قل لى ، من هو المعصوم من إثم وعَيبِ ؟
ربّ كيف أستطاع أن يحيا أمروٌ من غير ذنبِ ؟
أنا عبـــد أصنع السُّوءَ فتجزينى بسوء
فإذن ما الفرق ما بينى وما بينك ربّى ؟!

— ٧٠ —

أنت يا ربِّ كريمٌ ، أنت ذو لطفٍ ومَن
فلماذا تطرد العاصيَ عن جنّـــة عَدْنِ ؟
ليس جوداً منك أن تعطِيَنى عن حسناتى
إنما جودك أن تؤتِيَنى عن سيِّئاتى !

— ٧١ —

وكأيٍّ من نديمٍ كان حرَّ النفس أهلا
كان مثلى شُربُه الراحَ بعين العقل سهلا !
عـــلمَ اللهُ بشربى هذه الصهباء ، قِدما
فإذا لم أحسُها لم يكُ عـــلمُ الله علما !

— ٧٢ —

قل لمن هان عليـــه الذنبُ لا يخشَى مآله
هذه النكتة إن كان أريباً ذا أصاله :
جعلوا عـــلّةَ كلِّ الذنب علماً أزليًا
إن هذا عنـــد أرباب النُّهى عينُ الجهاله !

— ٧٣ —

زيَّن الصانعُ تركيبَ طباع البشرِ
فلماذا شانَهَا بالنقص أو بالوَضَرِ ؟
إن تكن جاءت ملاحاً .. فلماذا خَرْبُها ؟
أو تكن جاءت قباحاً .. فعَلَى مَنْ عيبُها ؟!

— ٧٤ —

فيمَ يا خيّامُ هذا الحزن للذنب الكبير ؟
والأسى ليس بمُجْدٍ فى قليلٍ أو كثير ؟
إنَّ من لم يَجْنِ ذنباً لم يكن للعفو أهلا !
ويك من أجل المعاصى كان غفران الغفور !

— ٧٥ —

تعمُرُ الحانةُ مِمَّا نحتسى فيهـا المداما
وعلينا دَمُ ألفَيْ توبةٍ بين النّـدامَى !
ما جَدَا الرحمةِ إن لم أقترف إثماً جساما ؟
زينة الرحمـة مما نجتنى نحن الأثاما !

— ٧٦ —

أنا لم أقنط مع العصيان والجـــــرم العظيمِ
من رجاءِ الخالق الغـــــافر والربِّ الرحيمِ
إن رقدتُ اليوم سكرانَ صريعاً ، خَرِباً
فغداً يغفـــر كلَّ الذَّنبِ للعظم الرميمِ !

— ٧٧ —

قيل لى : ثَمَّ حسابٌ وعقابٌ يومَ حشرِ
يوم يشتدُّ الحبيبُ المرتجَى فى كلِّ أمرِ !
ليس عنـد الخيِّر المحض سوى الخير لعمرى
فاغتبط صاحِ ، فعقبى الأمر ليست غير خيرِ !

— ٧٨ —

يا إلٰهى أنا مَن قد برأتنى قـــدرتُك
فترعرعتُ عزيزاً ، دلَّتنـــى نعمتُك
سوف أمضى فى المعاصى جاهداً سبعين عامًا
لأرى معصيتى أوسعُ أم مغفرتُك !

— ٧٩ —

قلتَ لى : إنى لمُصْلِيك سـعيراً يالعينْ
خبرٌ ما ازددتُ خوفاً منه بين المذنبينْ
فلعمرى لا عذابٌ فى مكانٍ أنتَ فيه
ومكانٌ لستَ فيه أين يا ربِّ يكونْ ؟

— ٨٠ —

إن فى المسجد والبِيعة من شتَّى العبادِ
من يخاف النارَ أو يرجو نعيماً فى المعادِ
بيد أن العارفين اللهَ عرفانَ سدادِ
أبداً لم يزرعوا بذراً كهذا فى الفؤاد !

— ٨١ —

هامَ قومٌ بجزافٍ فثَنَوْا للعُجْبِ جِيدا
ومضت طائفةٌ تطلب حُوراً وخلودا
لو أميطَ السترُ يوماً لتبدَّى أنهم
وقعوا منك بعيداً ، وبعيداً ، وبعيدا . .

— ٨٢ —

إن من هم صفوة الدنيا وأعلام الورى
ببراق الفكر يطوُون الثريَّا والثرى
كلهم فى فهمهم ذاتَك مثـــل الفلكِ
مستهامون حيارَى ، خبطوا فى حَلْكِ

— ٨٣ —

لو درَى القلبُ على التحقيق أسرارَ الحياةِ
لدرى سرَّ الألوهيّـــة أيضاً فى المماتِ
إنك اليوم مع النفس ولا تدرى بأمرِ
فغداً بالله إن فارقتها ماذا ستدرى ؟

— ٨٤ —

قال لى القلبُ : هوى العلم اللدنِّيّ بنفسى
فإذا أُوتيتَ حظًّا منـــه فانفعنى بدرسِ
قلتُ : فاسمع ، ألِفٌ . قال : تمهَّل ويك يكفى
إن يكُنْ فى الدار من يُسْمَى فحسبى فردُ حرفِ !

هذه الأجرام فى إيوانها العـــالى المكين
حيَّرت أسرارُها أهلَ العقـــول الباحثين
لا تضيِّع رأسَ خيطِ العقل ، واعلم أن مَنْ
عندهم تدبير هذا الكون صرعَى ذاهلون !

٥

ثورة على الدهر والأفلاك

— ٨٦ —

يا زماناً بأفاعيل يدَيْه يعـــــترفْ
وهو فى زاوية الجـــــور مقيمٌ معتكفْ
تُسبغ الفضلَ على الوغد وتُؤذِى من أنِفْ
أنت لا تخلو من أثنين : حمارٍ أو خَرِفْ !

— ٨٧ —

لستُ فى نهجك يا دهرُ بِراضٍ أو سعيدِ
فُكَّ عنّى القيدَ ، ما مثلى خليقٌ بالقيودِ
إن يكن مَيْلُك يا دهرُ مع الدُّونِ البليـد
فأنا لستُ بذاك الباذخ القـدر الرشيد !

— ٨٨ —

فلكَ النقمة ، تؤتى النـــذل ما عزَّ وجلاَّ
فله الحمّامُ ، والطاحون ، والقصر المعـــلَّى
بينما يرهن حـــرٌّ ثوبَه فى قوتِ يوم
فلكٌ مثلك أولَى هدمه عُلواً وسِـــفْلا !

— ٨٩ —

آه لو كنتُ على الأفـــلاك ربًّا فى سمائى
لمحوتُ الآن هذا الفلكَ الضَّخمَ البنـــاء
ولأنشأتُ بنفسى من جديدٍ فلـكاً
يدركُ الأحرارُ فيه ما اشتهوا ، دون عناء !

— ٩٠ —

إنّ فعـــل الخيرِ والشرِّ لفى طبع البشرْ
وأرى الأفراحَ والأتراحَ من فعل القدَرْ
لا تُحِلْ شيئاً على الأفلاك قد أكبرتَ أمرَهْ
فهى أشقَى فى طريق العقل منكم ألفَ مرَّهْ !

قال لى فى أُذْنِ قلبى الفلكُ الدوّارُ همسا :
أتظنُّ الحكمَ حكمى فى الورى سعداً ونحسا ؟
أنا لو كان بأمرى دَوَرانى فى مدارى
لأَرَحْتُ الآن نفسى من هيامى ودُوَارى !

٦

هل من مُنَازل؟

(ألغاز الوجود)

— ٩٢ —

جاء بى فى البدء مضطرًا إلى دنيـــا الترابِ
حائراً ما أزدَدْتُ فيها غير جهلٍ واضطرابِ
ثمّ ولّيتُ برغمى .. غـــيرَ دارٍ فى ايابى
لمَ قد كان مجيئى ، ومُقَـــامى ، وذهابى !

— ٩٣ —

ما أفاد الفلكُ الدوّارُ ربحاً من حيـــاتى !
لا ولا زاد جمـــــالاً أو جلالاً بوفاتى !
أنا لم أسمع مدى عمـــــريَ فى دار الشتات
ما هو المقصود فيها من حيـــاتى ومماتى ؟

— ٩٤ —

ومَدَارٍ فيـــــه جئنا وذهبنا نتقلَّبْ
خَفِيَ الأوّلُ والآخرُ منـــه وتحجَّبْ
أفما من فطِن يأتى برأيٍ صـــائبٍ
منبئاً من أين جئنا ، وإلى أين ســـنذهب ؟

— ٩٥ —

بَلْقَعٌ يُولد فيـــه وجَلٌ أو خطرُ
لم يزدنى فيـــه إلا حيرةً ما أنظرُ
ليس معـــلوماً إلى أين ومن أين نرى
فيـــه ركباً يتوارى وســـواه يظهرُ

— ٩٦ —

ويح قلبى ، ضاع رأسُ المال من أيدى الأملْ
ولكم أدْمَتْ من الأكباد أظفارُ الأجلْ
لم يجئْ من ذلك العالَمِ من أسأله :
كيف صارت حالُ من أمسى من الدنيا ارتحل ؟

— ٩٧ —

إنما حظك يا قلبُ جِـــراحٌ وضَنَى
كلَّ يومٍ لك حالٌ بعد حالٍ تتحوَّلْ
ولماذا أنتَ يا روح حللتَ البـــدَنا
برهةً ما دمتَ فى عاقبة الأمر سترحل ؟

— ٩٨ —

قطرةٌ كانت من الماء إلى البحر مضَتْ
ذرَّةٌ كانت من الأرض إلى الأرضِ انتهتْ
فأجبنى ، جئتَ هذا الكون من جرّاء ماذا ؟
بقَّةٌ جاءت فطَنَّتْ ، ظهرت ثم اختفتْ !

— ٩٩ —

أنا إن كنتُ فريدَ الحسن ، موفور الشبابِ
وردةً خدِّى ، وسرواً قامتى ، غضًّا إهابى
فلماذا ليت شعرى زَان خَلقى واعتنَى بى
مُذْ جلانى الصانعُ السرمدُ فى مَلهَى التراب ؟

— ١٠٠ —

هو جامٌ أعجبَ العقـــــلُ به حتى تدلَّهْ
ولقد قبَّـــــله من كَلَفٍ سبعين قُبلَه !
يا لَخزَّاف القضا ، يُبدع جاماً مثـــــل هذا
وتراه يضربُ الأرضَ به من غير عـــلَّه !

— ١٠١ —

هيَ كأسٌ حَسُنَتْ صنعاً ، فما أرشـــقها !
يا ترى هل يملك السكرانُ أن يسحقَها ؟
كم خدودٍ لغـــــوانٍ ، ونهودٍ ، وقدودٍ
حبَّ مَنْ ألَّفهـــا ، أو حقدُ مَنْ مزَّقها ؟

— ١٠٢ —

ربَّ طاسٍ ذهبيٍّ — كيف أسرَى فى البدايه ؟
وأساسٍ مُحكمٍ — كيف سيهوِى فى النهايه ؟
ذاك سرٌّ ليس يُدْرَى بقياس وعنـــايه
لا ولا يوزن فى ميزان عقل ودرايه

٧

ثورة على العقل

— ١٠٣ —

ليس هذا الفلكُ الجارى الذى فيه اختلفنا
غير فانوسِ خيالٍ ، شَبَهاً منه عرفنا
هو فانوسٌ كأنّ الشَّمس مصباحٌ له
وكأنَّا صُوَرٌ فيه ، أتينا وانصرفنا !

— ١٠٤ —

لا تَسَلْ ما ذلك النقشُ المجازيُّ العَجَبْ
إن أقُلْ ما هو ، طال الشرحُ فيه وأنشعبْ
هو نقشٌ جاء من أعماق بحرٍ فبدا
وإلى أعماق ذاك البحر ولَّى فاحتجبْ !

— ١٠٥ —

إنه بحرُ وجودٍ جاءَ من طيِّ الخفـــاء
دُرَّةٌ للبحثِ لم تُثْقَبْ بعـــلمٍ أو ذكاء
كلُّهم جاءَ بقـــولٍ من تَظَنٍّ وهراء
غير أنَّ الحقَّ لم يَظْهَـــرْ عليه ابْنُ فناء

— ١٠٦ —

لم يُتَحْ قطُّ لإنسٍ حلُّ أسرارِ الأزلْ
أو خروجٌ عن حدود الطبع شبراً، أو أقَلْ
انظرِ الناسَ من الأستاذِ حتى المبتدى
لا تَجِدْ عند ابْنِ أنثَى غير عجزٍ باليد !

— ١٠٧ —

أيكةُ التحقيق لم تثمر بأرضٍ أو زمانِ
ذاك ألَّا كُفءَ فى غمرة هذا المعمعانِ
كلُّهم هزَّ بكفٍّ العجـــزِ غصنَ الأملِ
فافرضِ اليوم كأمسٍ، وغداً كالأزل !

— ١٠٨ —

لا أنا الدَّارِى ولا أنت بأسرار الأزلْ
لا أنا القارِى ولا أنت المعمَّى قد عَضَلْ
إن ما أحكى وما تحكى لمن خلفِ ســـتارِ
لا أنا الباقى ولا أنت إذا الستر زَحَلْ !

— ١٠٩ —

إن من صاروا محيطَ العـــــلم بين العالمينْ
وغدَوْا فى الفضـــل مصباحَ الهُدَى للمهتدينْ
لم يشـــقُّوا من دجى الشكّ طريقاً ليقين
إنما قصُّـــوا أساطيرَ وناموا بعد حينْ !

— ١١٠ —

رُبَّ جهّالٍ قُدَامَى ثقبوا دُرَّ المعـــانى
قد هذَوْا فى الفلك الجارى ضروب الهذيانِ
ثم لما عجزوا عن دَرْكِ أسرار الحياةِ
أطرقوا بالذقن حيناً ، ثم غطُّوا فى السُّبات !

— ١١١ —

يا لَرَهْطٍ طَوَّفُوا الأرضَ وجابوا الخافقَيْن
ذرعوا فى طلب الدنيـــــا فجاجَ الدنيوين
لستُ أدرى ، أتراهم بعد هـــذا كلِّه
عرفوا شيئاً من الحقِّ بإحـــدى الحالتين !

— ١١٢ — ❊ ﴿﴾

حارَ قومٌ بين شكٍّ ويقينٍ ، يا صديقُ
وأطال الفكرَ فى المذهبِ والدينِ فريقُ
أنا أخشى أن يُنَادَى ذاتَ يومٍ : أن أفيقوا
أيها الجُهَّال ، لا هـذا ولا ذاك الطريقُ !

— ١١٣ —

يا لَأَسرى العقل والتَّمييز ، كم أضواهُمُ الغَمّْ !
فى هوى الموجود والمعدوم لاقَوْا أمَّ قشعَمْ !
فاطلب الجهل وعاقرْ بنتَ عنقودٍ ، فكم كمْ
عالِمٍ صار زبيباً وهو لمَّـــــا يتحصْرَمْ !

— ١١٤ —

هؤلاء المنفقون العمرَ فى عقلٍ وفكرِ
عبثاً — هيهات أن يحتلبوا ضرعاً لثورِ !
كان أولَى لهمُ أن يرتدوا بزَّةَ جهلِ
فلعمرى ما يباع اليومَ كرَّاثٌ بعقلِ !

— ١١٥ —

يا فتَى مِنْ صولجان الدهر كالأكْرَةِ يجرى
سرْ شَمَالاً ويميناً ، ثم لا تنطق بأمر
إن من ألقاك فى المحنة من كَرٍّ وفَرِّ
هو يدرى ، وهو يدرى ، وهو يدرى ، وهو يدرى !

— ١١٦ — ✲

إن قلبى أبداً لم يُحْرَمِ العلمَ لعمرى
وقليلٌ ما اختفَى عنِّيَ مِن مكنونِ سرِّ
بيد أنى اليوم فى السبعين إذ راجعتُ فكرى
صرتُ أدرى كيف أنى أبداً ما كنتُ أدرى !

أطلبِ الجهلَ ، أخا العقل ، وعِشْ فى جذَلِ
تشربِ الخمرةَ من أيدى سُكارَى الأزل !

أيها الجاهل ، ليس الجهلُ فنًّا لك مُلْقَى
إن من لا يدرك الجهلَ هو الجاهل حقا !

٨

الموت فى الميدان

(فناء البقاء)

— ١١٨ —

ذهبَ الأحبابُ طراً من خليلٍ وجليسِ
مذ ترامَوْا تحت أقدام المنايا فى الرموسِ
مجلسُ العمـــرِ سَقَانا من شرابٍ واحدٍ
فإذا السَّكرةُ تَعْرُو الصَّحبَ قبلى بكؤُوسِ !

— ١١٩ —

يا قبوراً صار أهلوها صعيداً فى الصعيدِ
وتجافَوْا ذَرَّةً عن ذرّةٍ تحت اللحـــودِ
أيّ جامٍ ذا الذى لم يفرغوا من شُرْبِهِ
فإذا هم ذهلوا عن كلِّ شيءٍ فى الوجود ؟

— ١٢٠ —

خبِّرونى ، أين محصولُ مجيئى وذهابى ؟
وشِبَاكٌ نُسِجَتْ من خيط عمرى ورغابى ؟
كم نحورٍ ، وخصورٍ ، وشعور للحسانْ
أحرَقَ الدهرُ فصارت عَدَماً ، أين الدخانْ ؟

— ١٢١ — ✲

أيها العينُ انظرى الأجداث إن كنتِ ترَيْنْ
وانظرى الآفات فى الدنيا ملأْنَ الخافقين
كم رجالٍ ضمَّت الأرضُ ملوكاً ورعايا
ووجوهٍ أكل النملُ كأقمار اللجين

— ١٢٢ — ✲

أيُّ لونٍ القُدَامَى والحديثون الجُدُدْ
ركضوا خلفَ الأمانيِّ قليلاً أيَّ ركضِ
إنه كونٌ قديمٌ ليس يَبقَى لأحدْ
قد أتينا وسنمضى ، وسيأتى من سيمضى !

— ١٢٣ —

فى ذُرَى قلعـــة طُوسٍ بَصُرَتْ عينى بطيرِ
يتروَّى قحفَ (كيكاووسَ) طوراً بعد طورِ
ويناجيـــه حزيناً : لهف عمرى ، لهف عمرى
أين أجراسٌ وأطبالٌ تدوِّى ، ليت شعرى ؟

— ١٢٤ —

يا لَجَمشيدَ وقصرٍ كان فيـــه يشربُ
وَلَدَتْ فيه ظبـــاءٌ ، واستكنَّ الثعلبُ
يا لَبَهرامَ الذى كان يصيد العَـــيْرَ عمراً
أرأيتَ القبر كيف اصطاده لا يَرهبُ ؟

— ١٢٥ —

ربَّ قصرٍ زَحَمَ الأفـــلاكَ يومًا منكباه
ومـــــلوكٍ عفَّرَتْ حُرَّ النَّواصى فى ثراه
وقعتْ عينى على فاختـــــةٍ فوق ذُرَاه
قعدت تندبُ أهليه وتنعَى مَنْ بنـــــاه

— ١٢٦ —

إنما التدميرُ من حقدك يا هـــذا الفلك
والأذَى والجـــورُ دأبٌ من قديمٍ كان لكْ !
أســـفاً يا أرضُ ، لو يُفْتَحُ عن صدرك يومًا
فلكم من جوهرٍ فيـــــه نفيسٍ قد سَلَكْ

— ١٢٧ —

أيها المفتون بالدنيـــا ، ألا كفكِفْ جواك
أفلا فكَّرتَ فى صَرْفِ الليـــالى إن دهاك ؟
إذَّكِرْ آخرَ أنفاسك ، واستجمع نُهـــاك
وتأمَّـــلْ ما أفاعيل الليـــالى بسواك !

— ١٢٨ —

كان من قبلك فى الدنيا رجالٌ ونساء
زيَّنوا الآفاق ، كالأنجم لاحوا وأضـــاؤا
سوف يغـدو جسمُك المختالُ طيناً ، فهو طينٌ
كان جسماً لألوف الناس من قبلك جاؤا !

— ١٢٩ —

كان من قبلى ومن قبلك ليـــلٌ ونهارُ
ونجومٌ زاهراتٌ فى السَّـــمٰوات تدَارُ
فاعتبر وامشِ على الأرض رويدًا ، حين تمشى
إنمـــا مَوْطِئُ نعلَيْك لَعَـــيْنٌ أو عذار !

— ١٣٠ —

نحن إمّا ارتحل الروحُ غداً عن جسدَيْنا
ركزوا آجُرَّتَيْ طـــينٍ برأسَيْ مرقدَيْنا
فإذا هم طلبوا آجرَّ لحـــدٍ لسوانا
سكبوا الصَّلصالَ فى القالب من حافرتَيْنا !

— ١٣١ —

كم إلى كم يتصبَّاك هوى لونٍ وريحِ ؟
وإلى كم تقتفى كلَّ جميلٍ وقبيحِ ؟
إن تكن ماء حياة الخلد أو ينبوعَ زمزَمْ
فستمضى غائراً فى الأرض يوماً ، فكأن لم ..

— ١٣٢ —

أفتدرِى ما يريد الديكُ فجراً بالصياحِ ؟
وهو لا ينفكُّ يَزْقُو فى صريخٍ ونُوَاحِ ؟
هو يعنى : عرضوا فى لوح مرآةِ الصَّباحِ
أنَّ يوماً مات من عمرك إذ لستَ بصاحى !

— ١٣٣ —

كنتَ لا تحتـــاجُ نوماً وطعاماً ودَعَهْ
قبل أن يحوجهنَّ الشركاء الأربعـــهْ
كلها يأخذُ ما أعطاك يوماً عن سَعَه
فستغدو كالذى كنتَ متى ما أُسترجعـه !

— ١٣٤ —

ويح أرضٍ قطُّ لا تشبع من أكل الوَرَى !
وسمـــاء قطُّ لا تسمع أمراً للفتى
إنمـــا غرَّك أنَّ الأرض لم تأكلْكَ ، فاصبِرْ
لا تعجِّل ، ستوافيك ، فما فات المدى !

— ١٣٥ —

إنّ من جاءوا وفاروا فى شؤونٍ وشجونْ
مستهامين بدلٍّ ، أو بخمرٍ منتشينْ
شربوا كأساً فضجُّوا ، وتهاوَوْا ذاهلينْ
وهُمُ معتنقون اليومَ فى نوم المنونْ !

— ١٣٦ —

إننى أُلقِى على فرشِ التراب النائمينْ
وأرى تحتَ طباق الأرض رهطَ المختفينْ
كلما سرَّحتُ طرفى فى مفازات المنونْ
بصُرَتْ عينى بمن لم يَقدَموا والراحلينْ !

— ١٣٧ —

طالما طُفْنَا بعمرانٍ وشاهدنا يبابا
وسلكنا فى فجاج الأرض غوراً وهضابا
لم نَجِدْ مَنْ عادَ من هذا الطريق المترامى
سكَّةٌ مَنْ سارَ فيها لم يجِدْ منها مآبا !

— ١٣٨ —

ربَّ طاسٍ جوَّدُوا الصـــنعةَ فيه ماهرين
حَطَمُوه ورَموْه فى طريق العـــابرين
فاحذروا لا تطأُوه إن مشيتم ، سادرين
فلقـد صاغوه من طاس رؤوس الغابرين !

— ١٣٩ —

إننى حطَّمتُ دنًّا للحميّا مَوْهِنـــا
ثملاً كنتُ فكان الفعلُ منى أرعنـــا !
فسمعتُ الدنَّ يشكو قائلاً : يا ابنَ الفنـــا
إننا مثلك كنا ، وســـتغدو مثلنا !

— ١٤٠ —

كان هذا الكوزُ مثلى ، عاشقاً جدَّ كئيبِ
سحرته طرّةُ المحبوبِ بالحسن العجيبِ
وتأمَّل عروة فى جيـــده مُونقةً
فلقد كانت ذراعاً طوَّقتْ جِيدَ حبيبِ !

— ١٤١ —

ربَّ كوزٍ يشرب الماءَ به كلُّ أجـــيرِ
صنعوه من مآقى المَلِكِ أو قلب الوزيرِ
كلُّ جامٍ فى يد المخمور قد صاغوه من
عارضَيْ سكرانَ أو ثغرِ حَصَـــانٍ فى الخدورِ

— ١٤٢ —

إننى أُبتَعْتُ من الكوّاز كوزاً ذاتَ مرَّهْ
فحكى لى الكوزُ ما لاقَى ، وأفشَى ليَ سرَّهْ
قال : إنى كنتُ سلطاناً من العسجد جامى
وغدوتُ الآن للخمَّار يا ويليَ جـــرَّهْ !

— ١٤٣ —

نابَنِي فى معمل الكوّاز فكرٌ فى الأمورْ
ههنا الأستاذُ يحثو عنـــد دولابٍ يدورْ
منشئاً للكوز رأساً ويداً — يا لَلْجَسور
من محيّا مَلِكٍ أو كفِّ شحاذٍ فقـير !

— ١٤٤ —

أُنظر الكوّازَ فى معمله عن كثَبِ
مبدعاً من طينه كلَّ طريفٍ مُعْجِبِ
كلما أبصرتُ كوزاً — وإن كان الغبى
لا يرى شيئاً — أرى فى كفِّه طينَ أبى !

— ١٤٥ — ✲

لاح لى فى مصنع الخزّاف إذ جئتُ أراهُ
ألفُ كوزٍ ، ناطقٍ أو صامتٍ أطبق فاهُ
سألتنى إذ رأتنى بلسان الحال : مَنْ
بائعُ الكوز ، وشاريهِ ، وكوّازٌ بَرَاهُ ؟

— ١٤٦ —

ولقد شاهدتُ خزّافاً دؤوباً لا يَنِى
يركلُ الطينَ على الدكّة كالممتهنِ !
وإذا بالطين يشكو بلغاهُ قائلاً :
كنتُ يوماً مثلك اليومَ ، فأسْجِحْ وارْعَنِى !

— ١٤٧ —

شُفْتُ فى بعض المبانى رجلاً فرداً حقـــــــيرا
يركلُ الطينَ برجليـــــــه امتهاناً وغرورا
فسمعتُ الطين نادَى بلسان الحال : مهلاً
أنت أيضاً ستقاسى مثليَ الركلَ كثيرا !

— ١٤٨ —

أيها الكواز ، أمْسِكْ وارتدِعْ إن كنتَ تفهَمْ
كم إلى كم تزدرى طينَ الورى لا تتأثَّمْ ؟
أنت فى الدولاب تُلْقِى كفَّ كيخسرو المعظَّم !
وأساريرَ فريدونَ ، فمـــــاذا تتوهَّمْ ؟

— ١٤٩ —

ويح خزّافين بالطين لهم حِذقٌ مبـــــين
فليطيلوا الفكر فيـــــه ، علَّهم يدَّكرون
كم أهانوه بصفعٍ وبلَكْمٍ غافلـــــين
إنه تربة أجسادٍ ، فماذا يحســـبون ؟

— ١٥٠ —

قِفْ تأمَّلْ فى ترابٍ تحت رجل الحَيَوَانِ
كان أطرافَ الأحبّاءِ وأعطافَ الغوانى
كلُّ آجُرَّةِ طينٍ فى ذُرَى هذى القصورِ
لهِيَ كفٌّ لمليكٍ ، أو جبينٌ لوزيرِ

— ١٥١ —

صاحِ ما من ذَرَّةٍ فى الأرضِ من شرقٍ وغربِ
لم تكن طلعةَ محبوبٍ سَبَتْ مهجةَ صبِّ !
فترفّقْ بالثَّرى تنفضُه عن خدِّ حِبِّ
فهو أيضاً كان خدًّا لحبيبٍ كان يَسبِي !

— ١٥٢ —

يالَزهرٍ مُونقٍ رفَّ على شِطْءِ الغديرِ
أتراه قد نما فوق خدودٍ وثغور ؟
فتيقَّظَ ، لا تَطَأْهُ باحتقارٍ وغرور
فلقد أينع من تربةِ وجهٍ كالزهور

— ١٥٣ —

كلما شاهدتَ فى البطحاء أزهار الشقائقْ
فتذكَّر أنها قد نبتت من دَمِ عاشقْ !
وتأمل هذه الزهرة من هذا البنفسجْ
فهي خالٌ كان فى خدِّ مليحٍ يتوهَّجْ !

— ١٥٤ — ✲

أُنظر الوردةَ فكَّتْ جيْبَهَا ريحُ الصَّبَا
فانتشى البلبلُ وجداً ، وتغنَّى طربا
إجلس الآن إلى الورد ، فكم من مرّةٍ
خرجَ الوردُ من الأرض وفيها احتجبا !

— ١٥٥ —

وردةٌ قصَّتْ حديثاً للصَّبا وانتفضَتْ
نَضَتِ الثوبَ صباحاً ، ثم مالت فقضَتْ !
يا لَغدرِ الدهر ، فى عشرة أيامٍ قصارٍ
برعماً صارت ، فصارت وردةً ، ثم مضت !

— ١٥٦ —

تبّتِ الأفلاكُ ، لم تُخْرِجْ من الأرضين زهره
مرّةً إلا ووارتها الثرى ثانيَ مرّه !
لو أقلّت بدلَ الماء الثّرَى تلك الغمامه
أمطرت من دمِ أحبابٍ إلى يوم القيامه !

— ١٥٧ —

كم ستبقَى بعدنا الدنيا ونبـــلَى فى اللحودْ
حين يعفو الرسمُ والأسماءُ منا والعهودْ
لم نكن قبلُ فمـــا كان اختلالٌ فى الدُّنى
وسنمضى وسيبقَى كالذى كان الوجودْ !

— ١٥٨ —

قد حَلَلْنا معضـــلاتِ الكون طرًّا للمِلَلْ
من حضيض الأرض تالله إلى أوجِ زحلْ
ووثبنا من أحابيل خـداعٍ وحِيَـــلْ
فقضحنا كلَّ سرٍّ .. ما عدا سرَّ الأجلْ !

٩

فشـــل الثورة

(مآسي الحياة)

— ١٥٩ —

غبرتْ دنيا شبابى ، وانطوت طيَّ الكتابِ
فتبدَّلتُ شتاءً من ربيعٍ مستطابِ
ويح طيرٍ غَرِدٍ كان يُسمَّى بالشباب
لا أرى كيف أتى أو كيف ولَّى ، يا صحابى !

— ١٦٠ —

حَنَتِ الأيامُ عودى ، ورمتنى من عَلاءْ
وتردَّت بى أمورى ، ومضى عنى مضائى !
قلتُ لما أزمع الروحُ رحيلاً : قد تولَّى !
قال : إن الدَّار تنهار ، فقل لى ما بقائى ؟

— ١٦١ —

ويح عمـرى ، كله إخفاقُ سعيٍ وضجَرْ
أبداً ينقصُ فيه الصَّـفْو أو يربو الكدرْ !
أحْمَد الله ، فما من محنـةٍ أحوجنى
قطُّ أن أطلبهـا من أحدٍ بين البشرْ !

— ١٦٢ —

يا لمن أعطَى ضحوكَ الثَّغرِ للغيـد الوِضاء
كيف أعطى دامىَ القلب لرهط التعسـاء
فإذا لم يُؤْتنا البهجـة لم نَأْسَ عليها
قد حبانا ألفَ مأساةٍ ، فأكثِرْ بالعطاء !

— ١٦٣ —

هو عيشٌ يتولَّى بعضُه فى إثْر بعضِ
فتأمَّلْ كيف يمضى العمرُ بالحزن الممضِّ !
إننى لم أعرف الغبطةَ والراحةَ عمـرى
فسلامٌ لحياةٍ هكذا تأتى وتمضى !

— ١٦٤ —

قد تولَّتْ سَمَكاً من شَبَكٍ آمالُ عمرى
ومضى العيشُ كما تمضى سدًى ليلةُ سكر !
وحياةٍ لحظةٌ منها تُساوِى كلَّ دهرِ
كيف ضاعت من يدى فى غير شيءٍ ، يا لَخُسْرى !

— ١٦٥ —

يا خليليَّ ، تعبنا عبثاً حتى بَلِينا
ورمانا منجلُ الدهر شمالاً ويمينا
لهف نفسى ، لهف نفسى ، لم نكد نفتح عيناً
فى حياةٍ لم تكن وفق المنى حتى فَنِينا !

— ١٦٦ —

كالعصافير وقعنا فى أحابيل الزمانِ
متعَبى القلبِ ، حيارَى بين أيدى الحدَثَانِ
حولنا دائرةٌ لا بابَ أو سطحَ لها
لم نجئْ فيها ولم نذهب وفاقاً للأمانى !

إن هذا الدهر لا يجرى كما نرجو ونهوَى
فمِنَ التفكير والسَّعيِ نُرَجِّى أيَّ جدوَى ؟
قد قعدنا أبداً فى حسراتٍ آسفين
أننـــا جئنا بِطاءً وسنمضى مسرعين

— ١٦٨ —

لستَ تدرى لمَ صار السَّرْوُ والسوسنُ سِيره
أبداً تمضغها الأفواهُ فى كلِّ عشـــيره
فلهـــذا ألسنٌ عشرونَ ، لـكنْ صامتاتٌ
ولذا ألفُ يدٍ ممدودةٍ ، لـكن قصـــيره !

— ١٦٩ —

لُعَبٌ نحن بأيدى الفلك اللاعب نجرى
ليس هذا بمجازٍ ، بل هو الحقُّ لعمرى
ولعبنا برهةً فى مسرح الدهر الخِضَمّ
واختفينا كلُّنا فى جوف صندوق العدَمْ !

— ١٧٠ —

ليت للراحة مثوى يُبْتَغَى ، أو مستقرًّا
أو لهذا الدَّرب من آخرةٍ تُرجى وتُدْرَى
ثم ليت المرءَ من بعد دهور داهراتٍ
يُرتَجَى كالعشب أن ينبتَ فوق الأرض أخرى !

— ١٧١ —

إنها كالطَّاس مقلوباً هوَتْ هذى السماء
تحتها خرَّ ذَوُو الأفهام ، صرعى تعساء
أنظروا للحبِّ بين الدنِّ والكاس ، أنظروا
لشفاهٍ تتلاقى ، بينها تجرِى الدماء !

— ١٧٢ —

يا لقلبى المستهام المتداعِى الخاسرِ
ما صحا المسكينُ من عشقِ الحبيب الساحرِ
منذ أعطَونى شرابَ العشق يوماً بيدى
مزجُوا كأسيَ مزجاً بدماء الكبدِ !

— ١٧٣ —

وحبيبٍ بالتجافى لوَّعَ القلبَ العليـــــلا
ذاقَ مثلى فى مكانٍ آخَرَ الحزنَ الطويلا !
أنا مالى أطلب البرءَ لنفسى فى الهـــوى
وطبيبى بات مثلى يشتكى الداءَ الوبيـلا ؟!

— ١٧٤ —

آه .. لا يبلغُ وردَ الخدِّ صبٌّ فى جهادِهْ
دون أن يبلغ شوكُ الدهر ســـوداءَ فؤاده
أنظر المشط ، لقـد شُقَّ له سبعون ضلعاً
قبل أن يظفر من فرقِ مليحٍ بمراده !

— ١٧٥ —

يا فؤادى ، لا تَرُمْ عارفةً عند الزمانِ
لا تَرُمْ منـــه ثراءً أو عَلاءً فى مكانِ
إن تطلبت دواءً زدتَ فى دائك داءً
فارضَ بالداء ولا تطلب من الدهر شفاءً

— ١٧٦ —

صـــاح مهما زيَّنوا الكونَ ومهما زخرفوا
لك — فاصدِفْ عنه ، فالعاقل عنه يصدفُ
كم نظيرٍ لك يمضى ونظـــــيرٍ لك يأتى
فاختطف حظَّك منـــه قبلما تُخْتَطَفُ !

— ١٧٧ —

يا صديقى ، كم طوافُ الأرض أو طيُّ البلادِ ؟
تتوخَّى حاجةَ الجسم وأطماع الفـــؤادِ ؟
ســـنولِّى مثل من ولَّوا ، ويأتى من يولِّى
دون أن يحظى ابنُ أنثى فى حياةٍ بالمـــراد

— ١٧٨ —

إن تكن طالت همومى واستبدَّتْ بيَ حقبه
وتولَّتك المسراتُ فما فاتتك رغبـــــه
فذَرِ الحالين ، لا تركَنْ إلى أيِّهمـــــا
إن هذا الدهرَ خلفَ السِّتر يُخفِى ألفَ لعبه !

— ١٧٩ —

إنما تَطْعَمُ من مطبخ دنيـــــاك الدُّخَانا
فإلى كم همُّ ما لم يكُ فى الدهر وكانا ؟
هذه الدنيـــا على أبنائها خُسْرٌ جسامٌ
فاترك الخسرَ يكنْ حظُّك ربحاً وأمانا !

— ١٨٠ —

إستمع نصحيَ يا صفوةَ صحبى القـــــدماء
لا تضِق ذرعاً بكونٍ دون سِـــفْلٍ وعَلاء
إتّخذ زاويةً تقبعُ فيهـــــا قانعاً
وأشهدَنْ ألعوبة الأفلاك فى هـــذا الفِنَاء !

— ١٨١ —

ألسَّعيدُ الحقُّ من لم يكُ معـــروفَ المكانِ
لم يَصِرْ فى فوطةٍ ، أو جُبَّـــةٍ ، أو طيلسانِ
فهو كالعنقاء ، قد طَارَ عن الدَّارَيْن طـــرًّا
لم يكن مثـــليَ بُوماً بين أطلال الزمانِ !

— ١٨٢ —

لم نُصِبْ إلا عناءً وبـــــلاءً ومضَرَّهْ
فى زمانٍ قد نزلنا فى مكانٍ منـــه مَرَّهْ
وقضينا العمر ما أُنحلَّت لنـــــا مشكلةٌ
فتولَّينا وفى الأنفس منـا ألفُ حسره !

— ١٨٣ —

هـــذه الأفلاك لم تجرِ على مرجُوِّ حُرِّ
فافترضها سبعةً أو تسعةً إن شئتَ تجرى !
والفتى يفنَى ويفنَى ما تمنَّى ، فســـواء
من غذا النمل بقبرٍ ، أو غذا الذئب بقفر !

— ١٨٤ —

سألتِ[1] البطَّةَ فوق النار يوماً سمكه :
أيعودُ الماء فى الوادى ، ويَجرِى مسلَكه ؟
فأجابت : إننـــا مُتْنا وأصبحنا كبابا
فلتكن من بعدنا الأرضون بحراً أو سرابا !

(١) أى سألت . وكثيراً ما وردت هكذا فى شعر العرب .

— ١٨٥ —

قالت الوردةُ : إنى يوسفُ الرّوضِ المحبَّبْ
وفمى المملوء بالعسجد ياقوتٌ مذهَّبْ !
قلتُ : هاتى حجَّةً إن كنتِ حقاً يوسفاً
قالت أنظر لقميصى بدمٍ كيف تخضَّبْ ؟!

— ١٨٦ —

قالت الوردةُ : لا حسنَ إلى حسنى تسامَى
فعَلامَ الضيمُ من عاصر مائى ، وإلاما ؟
فأجاب البلبلُ الشادى شجيًّا مستهاما :
آه ، مَنْ يضحكُ يوماً ثم لا يُجهِشُ عاما ؟

— ١٨٧ —

كنتُ أسعى أمسِ فى إثرِ الحمّيا والحبيبِ
فبدت لى وردةٌ ذاويةٌ قرب لهيبِ
قلتُ : ما أجرمتِ كى يُصْلُوكِ ناراً ، يا جميله ؟
فأجابتنى : تبسَّمتُ قليلاً فى الخميله !

— ١٨٨ —

أين من يحفظُ سِرًّا فأُنَبِّيه لفورِهْ
ما الذى مرَّ على آدمَ من أوّلِ أمرِه ؟
مُبتلَى ، صُوِّرَ من طينةِ غمٍّ ووَجَلْ
جالَ فى الدنيا شريداً — برهةً ثم ارتحلْ !

— ١٨٩ —

إنما الأفـــــلاكُ من أعمارنا الرثَّةِ لمحَهْ
إنما جيحونُ من مدمعنا المخضوبِ سفحَهْ
وجحيمُ النار من حَرِّ الأسَى الباطلِ قدحه
ونعيمُ الخـــلد من راحتنا فى العيش نفحه

— ١٩٠ —

أجِدُ العـــالَمَ غمًّا دائماً ، والدهرَ غُولا !
وأرى الأفـــــلاك آفاتٍ وظلماً وكبولا
كلما فكرتُ فى الدنيـــا أرى المرتاح فيها
ليس موجوداً ، فإن كان فقد كان قليلا

— ١٩١ —

هذه الأفـــلاكُ لا تغدقُ إلا الكَمَد
أعطتِ اليومَ لكى تسلب ما أعطت — غدَا !
لو دَرَى من لم يجيئوا بعدُ دنيانا ســـدى
ما نقاسى من بلاء لم يجيئـــوا أبدا !

— ١٩٢ —

إن يكن حقًّا مماتى ، فأجبنى ما حياتى ؟
ولمَ الأطماع والأوهام فى دار الشتات ؟
منزلٌ لا يُتْرَكُ النازلُ فيـــــه وادعًا
لِمَ يرضى فيـــــه أن يبقى ويهتمّ لآتى ؟

— ١٩٣ —

آه ، لو كان مجيئى بيدى ما كنتُ جئتُ
آه ، لو كان ذهابى باختيارى ما ذهبتُ !
كان خـــــيراً ليَ فى دار الفنا لو أننى
لم أكن جئتُ ، ولا عدتُ ، ولا كنت أقمت !

— ١٩٤ —

لم أكن يوماً طليقاً قطُّ من أصفاد دهرى
لا ولا ذقتُ هنـــاء لحظةً من كلِّ عمرى !
قد تلمـــــذتُ على الدهر طويلاً ، غير أنى
لم أصِرْ بعدُ بعلم الكون أستاذاً لعمـــرى !

— ١٩٥ —

كلما باعدتُ نفسى زدتُ من نفسى دُنُوًّا !
وأرانى أتدلَّى كلما رمتُ عُـــلُوًّا !
يا لها خمـــر وجودٍ أحتسيها ، بيـد أنى
كلما أُزددتُ بها سكراً أرانى أُزددت صحوا !

— ١٩٦ —

نحن منا تنبع البهجة والحزن ، وفينـــا
نحن أصل العـدل والجور ، أبَيْنا أم رضينا
قد سَمَوْنا وانحطَطْنا ، وكملنا ونقصـــنا
إننا جامٌ تألّقنـــا ، ومرآةٌ صَـــدِينا !

— ١٩٧ —

نحن أطهـــاراً أتينا ، فاكتسينا وَضَرا
مستريحى البـــال كنا ، فامتلأنا كدَرا
وجرَينـــا من لهيب القلب فى ماءِ المآقى
وطرحنا العمر فى الريح ، وصرنا فى الثرى ..

— ١٩٧ —

قد نزلنـــا هذه الدار بطاءً مُذْ نزلنا
وانحطَطْنا عن عُلَى الإنسان فيها ، وذَلَلْنـــا
وحياةٍ زوَّدتنا غير ما كنّا أَمَلْنَـــا
ليتها كانت تولَّت ، فلعمرى قد مَلَلْنا !

— ١٩٩ —

إننى فى الفلك الدائر مكروبٌ جَنَـــانى
ناقمُ النفس على خِسَّة طبعى ، وهوانى
لم يَصِـــلْ علميَ أن أفقه أسرار الزمان
أو يصل حزميَ أن أفرغ من دنيا الأمانى !

— ٢٠٠ —

خَاطَ للحكمة خيامٌ خيـــــاماً وارتحلْ
مذ هوَى المسكين فى أتون حزنٍ ، واشتعل !
قطعتْ أطنابَ دنيـــــاه مقاريضُ الأجل
ورخيصاً باعه فى الســـــوق دلالُ الأمل !

— ٢٠١ —

ألقَتِ الأفلاكُ يا خيـــــامُ فى برِّ الأزلْ
خيمةً كبرى ، وسدَّتْ باب قولٍ وجدَلْ
ولقد أحدث ساقى الدهر فى جام القضا
ألف خيامٍ لعمرى ، كالحبـــاب المرتجل !

— ٢٠٢ — ✲

قد ترحّلنا ، فما فى جور هـــــذا المنزلِ
غير قبض الريح من مســـــتقبل أو أملِ
فاكروا موتيَ لا بالحزن ، بل بالجـــــذل
فقد أسطعتُ خلاصاً من عوادى الأجل !

١٠

فـــرار الثــائر

(عدم الوجود)

— ٢٠٣ —

دع شرابَ العيش يصفو تارةً أو يتعكّرْ
ولتكن كسوتنا الطِّمْرَ أو البُرْدَ المحبَّرْ
كلُّ هذا عند ذى النُّهية جهلٌ وهراءْ
أفسهلٌ حادث الموت لدى عقلٍ تدبَّرْ ؟

— ٢٠٤ —

يا أخا العقل ، حديثُ الغد أوهامٌ فطيره
والتباهى بالأقاويل أُدِّعاآت غريره
يعلم اليومَ لعمرى كلُّ دارٍ ذى بصيره
أن هذا الكون طرًّا .. لحظةُ الحال القصيره !

— ٢٠٥ —

قد لزمنا فى صبانا مجلسَ الأســـتاذ حينا
ودُعِينا بعدُ أســـتاذاً ففزنا ورضينا !
فاستمع آخرةَ الأمر إلى أين انتهَيْنا :
من ثرى الأرض خرجنا ، ومع الريح مضَيْنا ..

— ٢٠٦ —

دعك مما تطلبُ الأفراحَ ، فالعمرُ قصـــيرْ
والثرى أشلاءُ جمشـــــيدَ وبهرامَ الجسورْ
إنمـــا أحوالُ هذا العيش فى دار الفنا
لمنـــامٌ ، وخيالٌ ، وخداعٌ ، وغرورْ

— ٢٠٧ —

أنت لا تهلك إلا مرّةً ، يا ابن الفنـــــاء
ويك فاهلك مرّةً وارتَحْ ، فما هـــذا الشقاء ؟
إنها حفنـــــة أنجاسٍ وجلدٍ ودماء
فافترضها لم تكن قط ، ودع عنـك البكاء !

— ٢٠٨ —

إن ملكتْ الصينَ والرُّومَ ، وسخَّرت العبابا
وحكمتَ الأرض طرًّا ، وتبوّأتَ السحابا
فتيقَّن أنَّ حظَّينا من الدنيـــــا أخيراً
عشرةٌ أذرعَ بـــزٍّ ، وذراعان ترابا ..

— ٢٠٩ —

يا فؤادى ، هَبْك حقَّقتَ الذى رجَّيتَ كلَّه
فازدهى روضُ مسرَّاتك فى أبهج حُلَّه
فـكأنى بك طَلٌّ ظَلْتَ فوق الزهر ليـــله
وتبخَّرت صباحاً ، فـكأن لم تكُ وهـــله !

— ٢١٠ —

إفرض الدهرَ بما تأمرُ مَرَّا ثم ماذا ؟
وافترض أن قد قرأت الكونَ سِفرا ثم ماذا ؟
هَبْك قد عشتَ سعيد القلب عصرا ثم ماذا ؟
ثم بعد العصر عصراً ، أو فدهرا ثم ماذا ؟

— ٢١١ —

إن تعِشْ قرنين أو ألفين في دار الفناء
فستُلْقَى خارج المنزل ، من غير مراء
ولتكن شحَّاذَ سوقٍ ، أو أمير الأمراء
فكلا سعرَيْهما في آخر الأمر سواء !

— ٢١٢ —

يا صديقي ، كلُّ معدومٍ هباءٌ في هواء
كلُّ موجودٍ به نقصٌ وسرٌّ للعَفاء
فهَبِ المعدومَ موجوداً ودع عنك الأسى
وهب الموجود معدوماً ودع عنك العناء

— ٢١٣ —

إن من فكَّر في الدنيا ابتداءً وانتهاء
وجد الأفراحَ والأتراحَ في الدنيا سواء
ومصيرُ الطِّيبِ والخبثِ إذا كان الفناء
فلتكن إن شئتَ داءً كلّها ، أو فدواء !

— ٢١٤ —

يستوى حسنٌ وقبحٌ فى عيون الباحثين
وجحيمٌ ونعيمٌ فى مثاوى العاشقين
وحريرٌ وبَلاسٌ كسوةً للبائسين
ووسادٌ وحجارٌ لرؤوس اليائسين

— ٢١٥ —

أنت إن عشتَ سعيداً بالحميّا والحيّا
وتمتّعتَ بأقصى لذّةٍ، ما دمت حيّا
فستمضى آخرَ الأمر إلى دنيا فناء
فإذا كلُّ الذى شاهدتَ فى دنياك رؤيا !

— ٢١٦ —

عبثٌ رؤيتك الدنيا .. فهوِّن ما رأيت !
عبثٌ ما قلت أو أسمعتَ ، من كيتَ وكيت !
عبثٌ ركضك فى الآفاق فاُرْبَعْ ، ولعمرى
عبثٌ سعيُكَ فى البيت دبيباً ، لو دريت !

باطلٌ جسمك هـذا ، أيهذا الغـافل
باطلٌ هذا السِّماكُ الذهبيُّ الحـافل
وأُسِرنا برهةً فى دار كونٍ وفسـادِ
فاطرح الهمَّ ، فهـذا هو أيضاً باطلُ !

١١

في المنفى

— ٢١٨ —

إسقنى الجـــريالَ شقراءَ بلون الارجوانِ
أيهـــــا الساقى فإنى ضاق بالهمِّ جنانِى
إسقنيها تسلب العقـــلَ ولو بعض أوان
علّنى أذهـــل عن نفسى وأحداث الزمان !

— ٢١٩ —

جئتُ لـكن لم أجِئْ عن رغبتى أو طلبى
وسأمضى لا بتِـــــدبيرى ولا عن أربى !
أيها الساقى فشمِّر ، وتقـــــدَّم بالطِّلا
فلنطهِّرْ شجَنَ الدنيـــا بماء العنب !

— ٢٢٠ —

قم وجئنى بدواءٍ يبرئُ القلبَ المعـــــنَّى
جئْ بتلك الراح ، كالمسك شذا والوردِ لونا
كما رمتَ دواءً مفرحاً يُفرِج عنّـــــا
فبياقوت الحميّا وحرير العـــــود جئنا[1]

— ٢٢١ —

إشرب الراح ، وفرِّح قلبك الجمَّ الشجونْ
ثم أقللْ ذكرَ ما كان وما سوف يكونْ
إنمـــا عارية النفس لكالعانى السجين
فأرِحْها من عقال العقل حيناً بعد حين !

— ٢٢٢ —

إننى اليـــومَ — وهذا هو إبّانُ شبابى
أحتسى الراح ، فإن الراح أُنسى ورغابى
لا تَعِبْهَا . . مُرَّةٌ لكنَّها طيِّبَـــــةٌ
مُرَّةٌ حقاً ، ولكن كحياتى يا صحـــابى !

(١) كان الياقوت والحرير يعدّان من الأجزاء المفرحة فى الطب القديم .

حبذا الخمـــرة كالوردِ على وردِ الخميله
فاسقنى من دمِ هذا الجام ، وأسفك سلسبيله
ويح نفسى ، ليس لى فى هـذه الدنيا جميعاً
خارجَ الجام صديقٌ طيّبٌ صافى الدخيله !

— ٢٢٤ —

آه ، لم يبقَ ســـوى أسمٍ من هناءِ ودَدِ
أو سلافٍ غرَّةٍ من صاحبٍ ذى رَشَـــدِ !
صاح لا تقبِضْ يداً عن كأس هذى الصَّرخدِ
إنه لم يبقَ غير الكأس شيءٌ باليـــد . .

— ٢٢٥ —

إســقنى من ذلك الياقوت فى الجام الأغرِّ
من أليفٍ مؤنسٍ كلَّ كريم النفس حُرِّ
أنت تدرى أن دنيا الأرض ليس غير ريحٍ
فاسقنى الصهباء كى تسرع كالريح وتجرى !

— ٢٢٦ —

إشربِ الجريالَ ما ساعفَ دهرٌ ، وأطرَبَا
وأدَّكِرْ أن لن يعود العمـــر إمّا ذهبا
أنت تدرى أنَّ عقبى هذه الدنيـــا خرابٌ
فكُ دوماً بالحميّـــا أنت أيضاً خَرِبا !

— ٢٢٧ —

فليكُ الصبُّ معنَّى القلب ، موصولَ الجنونْ
دائمَ السكرة ، مفضوحاً ، على مَرِّ السنينْ !
إننا فى الصَّـــحوِ نَلقَى كلَّ شيءٍ ترِحين
فإذا نحن ثملنا . . فليكن ما قد يكون !

— ٢٢٨ —

إحتسِ الصهباء واعلم أنها راحةُ روحك
وشـــفاءٌ لمآسيك ، وطبٌّ لجروحك
كلما اجتاحك طوفانُ الأسى من كلِّ صَوْب
فتعلَّق بالحميّا ، فالحميّـــا فُلْكُ نوحك !

— ٢٢٩ —

لستُ أحسو الخمر من أجل نشاطٍ أو طَرَبْ
أو خروجٍ عن طريق الدين أو حدِّ الأدبْ
غير أنى أشتهى الغفلة عن نفسى قليلاً
إننى من أجل هـــذا أحتسى بنت العنب !

— ٢٣٠ —

يا نديمى ، حين أصحُـــو يجتوينى كلُّ بِشرِ
وإذا أسكرُ يخبو النورُ فى مشكاة فكرى
إن بين الصَّحوِ والسُّكر لحالاً وَسَطاً
أنا أهواها لعمـرى ، فهى العيش لعمرى !

— ٢٣١ —

إن شربتَ الراح فاشربها مع الواعى الذكيِّ
أو مع الدمية ذات الخـدِّ كالورد الجنيِّ
ثم لا تُكثِر ، ولا تُدْمِن ، ولا تشتِفَّ جهرا
بل أصِبْ منها قليلاً ، ثم غِبًّا ، ثم سِرّا !

— ٢٣٢ —

يمرق العمرُ من الأيدى مروقَ الزئبقِ
فاسكب الجِـــريال يا ساقى ، وأطفئ حُرَقى
هذه نارُ شـــــباب المرء ليست غير ماء
وأرى اليقظةَ ليست غير نومٍ مطبـــقِ !

— ٢٣٣ —

أنا مالى أجرع الغمَّ لفقـــرى أو ثرائى ؟
ولهذا العيش يمضى فى شقاء أو هنـــاء ؟
أعطنى الكاس دهاقاً ، لست أدرى أسأحيى
نَفَسًا آخرَ أم فى نَفَسى هـــذا انقضائى !

— ٢٣٤ —

إن تقضَّى العمر يا صاحِ أستوى حلوٌ ومرُّ
وإذا ما طفح الكاس أستوى مصرٌ ومصرُ
إشرب الراح ، فكم بدرٍ سيتلوه محاقٌ
حين نفنَى ، ومحاقٍ دامسٍ يتلوه بدرُ

— ٢٣٥ —

ومَدَارٍ ليس يبدو منه غورٌ أو قرارُ
إرتشف فيه الطلا ، فهو على الجور يُدَار !
وإذا ما جاءك الدَّورُ فلا تجزع بحالِ
فهو جامٌ كلُّهم ينهلُ منه بالتوالى

— ٢٣٦ —

قم فشمِّرْ واطَّرِح همَّ الحياة الفانيه
واقضِها باللهو وأسعَدْ بالأمانى الغاليه
لو غَدَا فى خُلُق الدنيا وفاءٌ لقرينْ
لم يجِئْ دَوْرُك فيها بعد دور الآخرينْ !

— ٢٣٧ —

أيها الغارس دَوْحَ الحزن فى القلب ليشقى
أُتْلُ آيات الهنا ، وأحيَى رخيَّ البال طلقا
إشرب الراح وخلِّ القلبَ ينعَمْ بالأمانى
فمن المعلوم كم فى هذه الدنيـــــا ستبقى

— ٢٣٨ —

كم تقضِّى العمر بالإثْرة لا يثنيك قصْدُ ؟
متعَباً ، فى أثَر الموجود والمفقود تعـدو ؟
إشرب الراح ، فإنّ العمر يتلوه الحِمَامْ
لخليقٌ أن تقضِّـــــيه بسكرٍ أو منامْ

— ٢٣٩ —

إنهب اللذّاتِ نهباً من قطوفٍ دانيـــــه
فسيأتى يوم تغشَى كلَّ حيٍّ غاشـــــيه
إكرع القرقف ، لا تجرع هموم الفانيـــه
وذَرِ الهمَّ لمن يُؤْتَى حيـــــاةً باقيه !

— ٢٤٠ —

ليست الدنيـــــا مُقاماً لك أو دارَ مثابِ
فلبيبٌ من غدا فيهـــــا خراباً بالشرابِ !
صبَّ من ماء ابنـــة الكرم على نار الأسى
قبـل أن تُلقَى ، وفى كفك ريحٌ ، فى التراب !

— ٢٤١ —

زرع الدهرُ كثيراً مثلنا واحتصدا
فالأسى الباطل لا ينفع منـا أحدا
صُبَّ لى الراح وضعها فى يدى ، يا ذا المفاتِنْ
أنرشَّفْ قدحاً آخرَ ، فالكائن كائن !

— ٢٤٢ — ✲

عسعسَ الليـــلُ ، فقم بالله يا كنز الدلالِ
إحتسِ الراحَ وناغِ العودَ ، حالاً بعـد حالِ
فالمقيمون مقيمون إلى غير مطالِ
والذين ارتحلوا لن يرجعوا بعد ارتحال !

— ٢٤٣ —

دع فراش النوم ، وانهض نرتشِفْ بنت الدنانِ
قبل أن نجرع كأسَ المُرِّ من كفِّ الزمان
إن هذا الفلك العابس لن يمهلنا
برهةً نشربُ فيها الماء يوماً فى أمان !

— ٢٤٤ —

ذر هموم الغدِ يا صاح ، وصبِّحنا بجامِ
واغنم اليوم قصيرَ العيش ، واظفر بالمرامِ
فغداً إما برحنا مرَّةً دَيْرَ الفنا
نتساوى مع من قد رحلوا مذ ألفِ عام !

— ٢٤٥ —

هذه الأفلاك ترمى لمماتى ومماتك
ولها نيّةُ سوءٍ فى حياتى وحياتك !
فارتشف جاماً على الأزهار فى نضرتها
قبل أن تزدهِى فوق رفاتى ورفاتك !

— ٢٤٦ —

خذ كهذا السَّوسن الغضِّ بيمناك القـــدح
ومع الحسناء فاشربها ، إذا الحظُّ سمح
إن هـذا الفلك الأزرق طاغٍ إن جمح
وعَدَا — ألقاك أرضاً كالتراب المطَّرَح !

— ٢٤٧ —

فلكُ النقمـــــة ما باح بسرٍّ لأحد
قد قضَى ألفَ مليكٍ ، وتجنَّى واستبد
فاحسُبها ، لن يهبوا عمـراً جديداً لامرىء
كلُّ من غادر هذى الدار يوماً لم يعد

— ٢٤٨ —

لا تعـــــاند قطُّ هذا الفلكَ المستهترا
وارتشفها ما قطنتَ العالَمَ المشـــتجِرا
أنت فى الأوّل والتـــالى ثرىً يا صاحبى
فافترض تحت الثرى نفسك ، لا فوق الثرى !

— ٢٤٩ —

عش سعيداً وأطّرِح همّ الزمان الغـــادرِ
وكُنِ العـــــادل فى هذا الطريقِ الجائرِ
آخِرُ الدنيا فنـــاء ، فافترض أنك فانٍ
وأحيَ فى دنيـــاك حرًّا مستريح الخاطرِ

— ٢٥٠ —

كم تعانى من تصاريف الزمان الدائره ؟
ترِحاً ، قلبك دامٍ ، والمآقى فائره ؟
إشرب الصهباء وافرحْ ، واغنم اللذاتِ وامرحْ
قبل أن تُلقَى غداً خارج هذى الدائره !

— ٢٥١ — ✲

مَنْ مِنَ الغادين فى هذا الطريق المستطيلِ
عادَ كي أسأله عن بعض ما يشفى غليلى ؟
إحترس ، فى مفرق الرغبة والحاجة هذا[1]
لا تدَعْ شيئاً ، فما من رجعةٍ بعد الرحيل

(١) المفرق بفتح الراء وكسرها : الموضع الذى يتشعب منه الطريق .

— ٢٥٢ —

شَقَّ نورُ البـــدر جلبابَ الدَّياجي حين لاح
فهو آنٌ لا تُرِدْ أطيبَ منـــه أن يُتَاح
لا تفكِّر ، واشرب الراح .. فهـــذا قمرٌ
كم سيبدو فيرانا هجَّعاً تحت الصـــفاح !

— ٢٥٣ —

لم يُصِبْ من غدِه فى الدهر إنسانٌ ضمانا
فاغنم الآنَ ، وأســـعِد قلبَك التَّواقَ آنا
إحتسِ الصهباء يا بدرى ، هنا فى ضوء بدرِ
كم سيغشَى الليلَ بالضوء ولـكن لا يرانا !

— ٢٥٤ —

جاء من حانوتنا صوتٌ ينادِى سَـحَرا :
يا خليع الحيِّ ، يا مجنوننـــــا المستهترا !
قم بنـا نترع من الصهباء كاساً قبلمـــا
تترع الأيامُ يوماً كأسَـــنَا المنتظَرا !

— ٢٥٥ —

إنهض أنهض من فراش النوم ياساقى الشمولِ
هاتِ هاتِ الراح أصفى من زلال السلسبيلِ
صُبَّ فى الطاس من الكوز رحيق الخندريسِ
قبل أن يصطنعوا الكيزان من طاس الرؤوسِ !

— ٢٥٦ —

أشرق الصبحُ بهيجاً طيِّباً ، فدَّتك نفسى
فأَدِرْ فى الجام ما ظلَّ لنا من خمرِ أمسِ !
آتنى كأساً ودعنا اليوم نغنَمْ كل أُنس
فغداً نصبح آجرَّا لقصرٍ أو لرمس !

— ٢٥٧ —

إسقنى المُسطارَ كالمسك شَذا والورد لونا
تُلقِ عبءَ القيل والقالة عن قلبى المعنَّى !
هاتها فى الكاس يا ساقى الندامى قبلما
تصنع الأفلاكُ من طينى ومن طينك دنَّا !

— ٢٥٨ —

بفمِ الكوزة ألصقتُ فمى أشفِى الغليلا
أبتغى منها التى تنفحنى العمر الطويلا
فحكت لى بلسان الحال هذا السرَّ همساً :
إننى عشتُ كما عشتَ .. فعاشرنى قليلا !

— ٢٥٩ —

طرِبَ الزهرُ ورفّ العشب يا ساقى وطابا
فتيقَّنْ أن سيغدو بعد أسبوعٍ ترابا
إجنِ زهراً واُحسُ جريالاً ، ففى كرَّة طرفٍ
تجدُ الزهرَ تراباً ثَمَّ والعشبَ هبابا !

— ٢٦٠ —

غسل الغيمُ خدودَ الرَّبع فى وجه الربيعْ
وصحا الدهرُ الكسيرُ القلب من بعد هجوعْ !
فاشرب الراح مع الغادة فى الرَّوضِ على
ذكرِ مَنْ فوق ثراه أينع الروضُ يضوعْ !

— ٢٦١ —

يا فؤادى ، إن هذا الدهر يُوليك الشَّجَنْ
وستقلو هـذه الروحُ غداً هذا البـــدنْ
فاجلس اليـوم على الخضرة وأنْعَمْ بهواك
قبل أن تزدهر الخضرةُ يوماً من ثراك !

— ٢٦٢ —

غسل الغيمُ ضحى النيروزِ أعطافَ الشقيقِ
فأتِنا بالجام تزهو الخمرُ فيـــه كالعقيقِ
إن فى الأزهار إمتـــاعاً لك اليوم ، فأيقِنْ
أنْ ستنمو من ثرى لحدك يوماً ، يا صديقى !

— ٢٦٣ —

عادتِ السُّحبُ على الأعشاب تبكى هاميه
أفيحلو العيشُ من دون المدام القانيـــه ؟
ها هي الخضرة ذى نزهتنـــــا ، نزهةُ مَنْ
سوف تغدو يوم تغدو من ثرانا زاهيه ؟

— ٢٦٤ —

إشرب الخرطومَ كالورد على مشهد وردِ
كلما أُوتيتَ وردَ الخدِّ فى سروةِ قدِّ
قبلما يمسى قميصُ العمر فى ريح الحِمام
فجأةً مثل قميص الورد مُلقَى فى الرغام !

— ٢٦٥ —

إحملى الدنَّ مع الأقداح ، يا سحرَ حياتى
وأخطرى بين الأزاهير على شطِّ الاضاةِ
فلكم أحدث هذا الدهرُ أقداحاً ودناً
للحميّا .. من قدود الغانيات الفاتنات !

— ٢٦٦ —

أمس عرَّجتُ على الحانوت ليلاً فى طريقى
فإذا شيخٌ على منكبه دنُّ الرحيـــق
قلتُ : ما تخجل يا شيخ من الله تعـــالى ؟
قال : أللهُ كريمٌ ، فاحسُ واسكُتْ ، يا صديقى !

— ٢٦٧ —

غادَرَ الحانةَ شـــــيخٌ ثملٌ كاد يطيحُ
بيدٍ سَجَّادةٌ والـكأسُ بالأخرى تفوحُ !
قلت : ما تصنع يا شيخ ، وما حالك هذى ؟
قال لى : ويحك خذ كأساً ، فإن الـكون ريحُ !

— ٢٦٨ —

وبدا لى فى وصيد الحـــان شيخٌ يسمُرُ
قلت : ياشـــيخ ، ألا حدَّثتَ عمَّن غبروا ؟
قال لى : خذها شمولاً ، فكثيرٌ مثلنـــا
غبروا لم يأتِ عنهم منـــذ ساروا خبرُ !

— ٢٦٩ —

وجَثَا فى الركن شيخٌ نام سكران الفؤاد
تخِذَ الشكَّ مقاماً وجفا دار الرشـــاد
شرب الخمرةَ واُســـتغرق مضنى فى الرقاد
وهو يتلو ثَمَّ : أللهُ لطيفٌ بالعبـــاد !

— ٢٧٠ —

أيها الذاهب بالتدليس فينا كلَّ مذهبْ
ألمعنَّى بقصير العمر ، يحتاج وينْصَبْ
قلت لى : أين ذهوبى يا ترى بعد الردى ؟
أعطنى ويلك جام الخمر ، واذهب حيث تذهب !

— ٢٧١ —

لا تشهِّر بالسكارى من أفاويق الكروم
أو تخاشنْ فئةَ الأبرار من كلِّ كريم
إشرب الراح ، فما فى شربها أو تركها
تدخل الجنة إمّا كنتَ من أهل الجحيم !

— ٢٧٢ —

هاتِ جاماً فى أوانِ الورد كالورد دمه
وارتشفها مع لحن النـــاي أو شُهد اللّمى
إننى أشربُ جذلان فؤادى ، فإذا
كنت تأباها فمـــا أصنع ، فاشرب علقما !

— ٢٧٣ —

إنّ آجرَّ سِـــداد الدنِّ خيرٌ من عُلَى جَمْ
وشذا الأقداح أشهى نكهةً من رزقِ مريمْ
ربَّ آهٍ يرسِلُ الخمّارُ فى جوف الدجى
هي أحلى من تسابيح أبى ســـعدٍ وأدهم

— ٢٧٤ —

صاحِ ما أطيبَ شُربَ الراح من راح الجميلِ
صاح ما أطيبَ لحن الناي فى نأيِ العـــذولِ
وغبيٍّ زاهدٍ لم يَدْرِ ما جام الشـــمولِ
صاحِ ما أطيب أن يبعدَ عنّا ألفَ ميـــلِ !

— ٢٧٥ —

سئمتْ نفسى أباطـــــيلَ نفاقٍ وتمارى
فتعجَّل أيهـــــا الساقى ، وجئنى بالعقار
قم فبِـعْ ســـجّادتى بالراح ، وادفع طيلسانى
أيها المحبوب ، كي يصبح بالباقى أفتخارى !

— ٢٧٦ —

قيل شربُ الخمر يُوليك سقاماً وندامه
ويؤدِّيك إلى النار غداً يوم القيامه
صدقوا .. لـكنَّ خيراً من جميع الدنيوين
أن يكون المرء سكران ، ولو طرفة عين !

— ٢٧٧ —

قوّةُ الجسم وقوتُ الروح كأسٌ ذاب تبرا
خمرة تكشف لى من كلِّ خافٍ ما أُستسرّا
فدعونى من طماعات حيـــــاةٍ ومماتٍ
جرعة الصهباء خيرٌ ليَ من دنيـــا وأُخرى !

— ٢٧٨ —

إنَّ ركْبَ العمر يمضى عَجِلاً لا يترقَّبْ
فاقضِه يا صـــاح بالأفراح واللذات واطربْ
أيها الساقى ، إلامَ الفكرُ فى حشرٍ ونشرٍ ؟
أعطنى الكأس على الكاس ، فإن الليل يذهبْ!

— ٢٧٩ —

قم بنا نعزفْ على القيثار ألحان الغـــرام
نحتسى الراح ولا نحفـــــلُ صيتاً فى الأنام
فلنبع ســـجَّادة التقوى بكأسٍ من مدام
ولنحطِّم فى الثرى قارورةَ الزهد العُقَام !

— ٢٨٠ —

يا فؤادى ، أنت لا تدرك أسرارَ السِّماكْ
لا ولا تدرك أهل العـــــلم والفهم نُهاكْ
هٰهنا فاتَّخذ الجنَّـــةَ من جامِ طِلاكْ
فغداً قد تدرك الجنَّـــــة أو لا .. هٰهناكْ !

— ٢٨١ —

قيل لى ثَمَّةَ جناتٌ بها حُورٌ وكوثَرْ
وبها أنهارُ خمرٍ ، وبها شهدٌ وسكَّرْ !
فعَلَى ذكر الحميّا هات كأساً وتعجَّلْ
إن نقداً فى يدى أفضل من ألفِ مؤجَّلْ !

— ٢٨٢ —

أنا لا أعلم هل قدَّر ربِّى إذ برانى
أن سأغدو من فريق النار أو أهل الجنان
قدحَ الصهباء ، والحسناء ، والعُودَ ، وروضا
أعطنى ذلك نقداً ، وخذ الجنَّـــة قرضا !

— ٢٨٣ —

إن أُتيحت لى من الحور كَعَابٌ فى الربيع
أتحسَّى من يديها الراحَ فى المرج المَرِيع
صاح مهما أُشتدَّ قولى فى الورى قبحاً وهُجْنَهْ
فأنا أدنَى من الكلب إذا أُستذكرتُ جنَّه !

— ٢٨٤ —

إلزم الحـــورَ ، يَزِدْنَ العيشَ حسناً ويَزِنَّهْ
والطّلا ، والروضَ ، والجدولَ . . ما فزت بِهِنَّهْ
لا تَرُمْ أطيبَ من هذا ، ولا تُضرِم جحيماً
إنما الجنـــــة هذى . . إن يكن ثَمَّة جنَّهْ !

— ٢٨٥ —

أنا مهما كنتُ بالاثم شـــقيًّا ، يا نديمى
لستُ مثـل العابدى الأصنام فى يأسٍ مقيمِ
فمتى أقضِ لفرط السُّكر وهناً فمَرُومى
هو كأسى وحبيبى . . فى نعيم أو جحيم !

— ٢٨٦ —

قيل شهرُ الصَّـوم أوفَى ، وأتانا من جديدِ
فغدًا حوضُ الحميّا غير ميســور الورودِ
أنا فى آخر شــعبانَ سأحسو من مدامى
ما سأهوِى ثملاً منه إلى العيد السَّعيدِ !

— ٢٨٧ —

ويك حتَّامَ صيامٌ وصــــلاةٌ ساهيه ؟
إشرب الخمر ولو مستعطياً فى النــاحيه !
كم سـيَبْرِى من ثرى جسمك يا خيام قومٌ
تارةً دنًّا ، وطوراً قدحاً ، أو خابيه . .

— ٢٨٨ —

ليس فى الحان وَضُوءٌ بســوى الراح يباحُ
وإذا السمعةُ ساءت لم يحسِّنها صــلاحُ !
فاسقنيها . . لقد أنشقَّ حجابُ الستر شقًّا
لم يَعُدْ ينفع رتقٌ فيــه أو يُخشَى افتضاحُ !

— ٢٨٩ —

خرقةَ الزهدِ خلعنا ، وعلى الدنِّ وضعنا
وتيمَّمنا صعيدَ الحان وجداً .. وركعنا !
فعسانا ههنا فى الحان نسترجع عمراً
غابراً فى حُجُرات الدَّرس كنا قد أضعنا !

— ٢٩٠ —

نحن والقينةُ والصهباء إبّان الصبوحِ
لا تُرجَّى قطُّ منا نيَّةُ التَّوبِ النَّصوحِ
أيها الساقى ، فكم تتلو لنا قصَّة نوحِ ؟
قم فعجِّل واُسقنى يا حلوُ من راحة روحى !

— ٢٩١ —

أَخرِجَنْ باللهِ من رأسك أوهامَ المحالِ
وأنهل الراحَ بكأسٍ مُتْرَعٍ طولَ اللَّيالى
عِشْ سعيداً مع بنت الكرم ، فالبنتُ حراماً
فى مجالى حسنها أشهى من الأُمِّ الحلال !

— ٢٩٢ —

هو صـــــفوٌ هيَّأ الدهرُ فعنه ليس يُغْضَى
وحبيبُ القلب إن خانَ فعنه ليس يُرْضَى
إغتنم يا صـــــاح عمراً فى يديك الآن غضًّا
إنه ليس صـــــلاةً ، فإذا ما فات يُقْضَى !

— ٢٩٣ —

إنّ هـــــذا اليوم يُدْعَى فى الورى بالجُمعَهْ
فاكرع الصهباء بالكاسِ دِهاقاً مُتْرَعَهْ
أيها الشَّاربُ منهـــــا كلَّ يومٍ قدحاً
إن هذا ســـــيّد الأيام ، فاشرب أربعه !

— ٢٩٤ —

إنَّ قرآناً دَعَوْه فى الورى خيرَ البيـــــانِ
ليس يُتْـــلَى دائماً ، بل بين آنٍ وأوان
وعلى الأقداحِ خُطَّتْ آيةٌ بيِّنـــــةٌ
أبداً تُقـــرأ ، فى كلِّ زمانٍ ومكان !

— ٢٩٥ —

إنه فصـــــل زهور ، وطيور ، وغديرِ
ورياضٍ تتهـــــادَى فى رباها بضعُ حور
هاتِ كاساً .. فالذى يحسو أفاويق الطلا
مستريحٌ من محاريبَ ، خليٌّ من ديور

— ٢٩٦ —

ألطلا تنفِى أسى الكثرة والقـــــلة كُلَّهْ
وتنحِّى فِكَر الثِّنتين والسبعين ملَّهْ !
فاشرب الصهباء واطرب ، لا تَصُمْ عن كيمياء
جرعةٌ واحدةٌ منهـــــا تداوى ألفَ علَّهْ !

— ٢٩٧ —

أنا والخمرةُ والمحبوبُ فى ركن الخـــرابِ
والحجَى والجامُ والجبّـــةُ رهنٌ بالشراب !
فارغٌ من أمل الرحمـــة أو خوف العذاب
وأسًى ماء ، ونارٍ ، وهواء ، وتراب ..

إنّ ديني هو أن أفرغَ من دينٍ وكفرِ!
وحياتي هي أن أحيْي أخا سُكرٍ وبِشْرِ
قلتُ يوماً لعروس الدهر : ما مَهْرُك حقا؟
فأجابت : يا حبيبي ، قلبك الجذلان مهري!

— ٢٩٩ —

أنا إن لم يسقنى مُحْيِيَـــــةَ النفس الحبيبُ
لم تقبِّـــــل رجليَ الأفلاكُ ألفاً وتنيبُ !
قال لى الأصحاب : تُبْ لله فالحينُ قريبُ
فإذا لم يُرِد اللهُ لنا كيف نتوب ؟!

— ٣٠٠ —

ألورى فانٍ ، فإنى عن سوى الفنِّ رغوبُ
وسوى الراح ولهو العيش عنـــدى لا يطيبُ
قال قومٌ : قَبِل البـارئُ منك التَّوبَ .. كلا
ربِّ لا تقبل ، وإن تقبل فإنى لا أتوب !

— ٣٠١ —

باكرِ اللذاتِ والخيراتِ من سـير الزمانِ
وخذ الكأسَ على عرش الهوى والعنفوانِ
ربُّنـا اللهُ غنيٌّ عن معاصٍ وتُقى
فاغتنم فى هذه الدنيـا متاحاتِ الأمانى

— ٣٠٢ — ✲

إسمع الحقَّ صراحاً ، يا صديقى ، وعِ قولى
لا تفارق كأسَ جريالٍ ولا طرّةَ خِلٍّ
وتعـلَّم أنَّ ربًّا خلق الأكوان خلقاً
لا يبالى شاربَيْ مثلك أو لحيـةَ مثلى !

— ٣٠٣ —

ربِّيَ افتحْ ليَ باباً يتأتَّى منـه رزقى
وابعث القوت إلى حلقى ، بلا مِنَّـة خلق
ربِّ واحفظنى صريعاً بالحميّا طولَ عمرى
فمن الغفلة لا أعرف ما يقلق فكرى !

ز — نخب العقل

— وألغاز الوجود

— ٣٠٤ —

ليس مَنْ أدركَ ماذا حجَّبتْ تلك السدولُ
أو درى كيف حلول الروح ، أو فيم الحلولُ
ليس للانسان غير اللحد مغنَى أو مَقِيـــــلُ
فاكرع الصهباء .. هاتيك حكاياتٌ تطولُ !

— ٣٠٥ —

ليس وجه الكونِ إلا نقشُ وهمٍ وخيـــالِ
والذى يجهل هـــذا ليس من أهل الكمال
فاقترب يا صـــاح واشربْ قدح الجريال واطرب
وانسَ هذا النقشَ ، وافرغ من خيالات المحال !

— ٣٠٦ —

ما لنا بالله أسرى بيد العقـــــل العقامِ ؟
ما حياة المرءِ يوماً واحداً أو ألفَ عامِ ؟
فافتح الراقود وأملأ من رحيق الراح جامى
قبـــل أن نصبح فى السُّوق جراراً للأنام

— ٣٠٧ —

منذ عهدٍ ومديحُ الخمر تسبيحى ووِردى
ومعدَّاتُ الحميّا كلُّ ما حولى وعندى !
إن يكن أستاذك العقل ، أخا الزهد ، هنا
فتنعَّم .. إنَّ أســـتاذك تلميذى أنا !

— ٣٠٨ — ☆

ليس للمرء مقـــامٌ فى ذَرَى الدهر المقيمْ
فَقِلا الخمرة والمحبوب تقصـــيرٌ عظيمْ
كم أقاويلُ قديمٍ وحديثٍ يا حكيمْ ؟
أنا إن متُّ فمـــا المحدث عندى والقديم ؟

— ٣٠٩ —

أيهـــا القادم من عالَمِ روحٍ وسرائرْ
وهو فى الخمسة والســـتَّة والسبعة حائرْ
أنت لا تعلم أنَّى جئتَ أو أين ستذهبْ
فاشرب الصهباء واطرب واغنم اللذاتِ والعبْ

— ٣١٠ —

كم حديثُ الخمس والأربع فى دار الفنا ؟
أيّ شيء مشكل الواحد والألف لنا ؟
إنما نحن ترابٌ ، فتغرَّدْ يا مغـــنِّى
إننا ريحٌ ، فجئنا أيها الساقى بدنِّ

— ٣١١ —

فيمَ هـــذا الهمُّ للكائن فى الدنيا الولودِ ؟
وإلامَ الفكر فى كلِّ قريبٍ وبعيـــدِ ؟
عش سعيداً واقضِ أيامك فى أنسٍ وعيـــد
فلعمـــرى لم ينيطوا بك تدبيرَ الوجود !

— ٣١٢ —

أنت أولَى لك أن تهرب من درس العلومِ
فتعلَّقْ بعـــذار الحِبِّ كالخشف الفطيمِ
إبتهج واُسفح دماء الجام فى الكاس إزاءك
قبل أن يسفح هـذا الدهرُ يا هذا دماءك

— ٣١٣ —

نحن لا نملك فى الواقع حقًّا ويقينـــا
أَفَنُفْنِي العمرَ فى الشكّ حيارى قاعدينا ؟
صاح لا نُلقِ كؤوسَ الراح من أيدى المَرَاح
فسواء فى ظلام الجهل سكرانُ وصاحى !

— ٣١٤ —

نَفَسٌ من منزل الكفر إلى منزلِ دينِ
نَفَسٌ من عالَمِ الشكِّ إلى دنيـــا اليقين
فتعهَّد طِيبَ هـــذا النفَسِ الفذِّ الثمين
إنه محصولنا من هذه الدنيـــا الخؤون

— ٣١٥ —

إنّ أقوامًا تولّوا ، أيها الساقى المليحُ
قد تولّوا فى غرور ضمّهم منه ضريحُ !
فامضِ واحسُ الراح ، واسمعْ لكلام الحقِّ منّى
أيها الحلو التثنّى ، كلُّ ما قالوه ريحُ !

— ٣١٦ —

يا خليلىَّ ذرانى أرتشفْ بنتَ الدِّنانِ
يصطبغْ خدِّى من الراح بلون الأرجوان
لأصُبَّنَّ على العقل الفضوليِّ قليلاً
من سلافٍ ، علّه إن نام خلّانى وشانى !

— ٣١٧ —

سوف أحسو اليومَ بالجام الذى يملأ رطلا
وبجامين سأغدو موسرًا جدِّيَ أعلَى
فلا طلِّقْ يا نديمى الدينَ والعقلَ ثلاثًا
فسأبنِي بابنة الكرم ، ولا أسمع عذلا !

— ٣١٨ —

قدحًا يا ساقيَ الجريال ، فالدنيا خُلَسْ
إن تُصِبْ فيها سرورًا فكفى منه نَفَسْ !
إغتبط أنت بما يأتيك ، فالدهرُ غِيَرْ
لم يدُرْ قطُّ على ما يشتهى قلبُ بشَرْ

— ٣١٩ —

يا خليليَّ تقضَّى اليـــــومَ يومٌ من حياتى
مثل ماءٍ فى مسيل ، أو هـــــواءٍ فى فلاةِ !
أنا لم أذكر أسى يومين فى دار الشتات
يوم أمسٍ قد تولَّى ، وغـــدٍ فى الغيب آتى

— ٣٢٠ —

ظلَّ لى السعي إلى ســـــاقى الطلا من رمقى
ظلَّ لى من صحبـــــة الخلق دواعى الحنق
من شَمولِ الأمس لم يبقَ سوى باطيـــــةٍ
ومن العمـــــر لعمرى لستُ أدرى كم بقِى !

— ٣٢١ —

أنظرنْ سوء فعالِ القبّـــــةِ الزرقاء فينا
وفراغَ العيشِ بعد الأصـــــدقاء الذاهبينا
فابتدر وقتك ما أمكن ، لا يذهبْ سدى
إغنم الحال .. ودع أمسِ ولا تحفِلْ غدا

— ٣٢٢ — ✲

ألقِ عن قلبك أثقـــــالَ الأسى والشَّجَنِ
وعناء العالَمِ الفـــــانى ، وهَمَّ الزمنِ
ما مضى فات وما لم يأتِ غيبٌ لا يُرَى
فاطَّرِحْ أعبـــــاء ما كان وما لم يكنِ

— ٣٢٣ —

إنّ أمساً قد تولّى لا تعـاودْ ذكرَهُ
وغداً لمّا يجئ لا تتـدبّر أمرَهُ
لا تشيّد فوق ما فات وما لم يأتِ أمرك
فتنعّم .. لا تبـدّد فى مهبّ الريح عمرك

— ٣٢٤ —

فيم غمُّ المال يا هذا ، وهمُّ الفانيـه ؟
أترى العيشة كانت لابن أنثى باقيـه ؟
هذه الأنفاس فى جسمك هـذا قاضيه
فاغتنم عاريةَ العمـر وعِشْها عاريه !

— ٣٢٥ —

لا تُطأطئ لمُلمّات الزمان الجائرِ
أو تذكّرنا أسى أبنـاء أمس الدّابرِ
لا تُذِقْ قلبَك من زادٍ سوى ريق الملاحِ
والحميا .. لا تُضِـعْ عمـرك أدراج الرياحِ

— ٣٢٦ —

قم بنا نصطبح الراحَ فقـــد ضاء الصباحْ
ولنحطّم فى الثرى جرَّةَ صيتٍ وصـــلاحْ
فانفضَنْ يمناك من كلِّ تَمَنٍّ وطماحْ
وخذ العود بها الآن ولبّاتِ المـــلاحْ

— ٣٢٧ —

حاسبَنْ نفسك يا عاقلُ ما أوردتَ قبلا
يوم أقبلتَ ، وما تُصدِر لما تتولّى ؟
قلتَ : لا أشرب خمراً ، فالفتى لابدَّ يقضى
ألفتى لابدَّ يقضى ، أشربت الخمر أم لا ! ..

— ٣٢٨ —

يا صديقى ، لا لك اليـــوم بأمر الغد حيله
وهموم الغـــد ليست غير أوهامٍ وخيله[1]
فاُهتبل فرصة هذا الوقت إن كنتَ أريباً
ليس باقى العمـــر بالباقى ، فلا تهدر قليله

(١) الخيلة : التخيُّل والتظنى .

— ٣٢٩ —

إن شربت الراح يا خيام ، فاسكر واُطربن
وإذا جالست بدراً فتمتَّـــع واُلعبن
آخر الدنيـــا فناء ، فافترض أنك فانٍ
وبمـــا أنك حيٌّ فتنعَّمْ واشربن

— ٣٣٠ —

عاقرِ الصهباء فى المرج إلى جنب الغديرِ
واطَّرحْ عنك هموم العيش فى دنيا الغرور
ليس هذا العمرُ الغالى سوى آنٍ قصـــير
فلنكن فيه نضـــيرى الوجهِ بسَّامى الثغور

— ٣٣١ —

هذه الأنفاس تمضى حين تمضى من حياتك
فاقضها بالأنس واللَّهـــو إلى يومِ مماتك
رأسُ مالِ الكون يا صاح هو العمر لدينا
وهو يمضى مثلما تُمضـــيه يا صاح بذاتك

— ٣٣٢ —

إيه خيـــام ، هو الدهر شَمُوخٌ يزدرِى
كلَّ من يقعـــد مهموماً حليف الكدر
فضع الإبريق واشرب ، مع لحن المزهر
قبل أن ينكسر الابريق فوق الحجـــر !

— ٣٣٣ —

أقبلَ البلبلُ نشـــوانَ إلى بعض الجِنانِ
فرأى الوردَ وكأسَ الخمـــر فيه يضحكانِ !
فأتانى قائلاً فى أذُنى : يا ابْن الأمانى
ليس بالعائد يوماً ما انقضى من عمرِ فانى

— ٣٣٤ —

سوف أطوِى من غدٍ تالله رايات النفاقِ
وسأقفو أثَرَ الخمر بشَيْبى ، يا رفاقى !
أنا فى السبعين من عمريَ ، شيخٌ أشمطُ
فإذا لم أنشط الآن فأنَّى أنشطُ ؟

— ٣٣٥ —

إنّ طبعى أبداً يهفو إلى الوجه الجميلِ
ويمينى أبداً تهفو إلى كأس الشمول
إننى منتفعٌ من كلِّ جزءٍ بنصيبى
قبل أن تندمج الإجزاء فى الكل الرحيب

— ٣٣٦ —

ليس للإنسان أن يأسَى فيبـــــلَى حَزَنا
حاطماً فى صخرة المحنـــــة ساعات الهنا
صاحِ من يدرى بمـــا يحدث فى الدهر غدا ؟
باكرِ الصهباء والمحبـــوبَ ، وافرح بالمنى

— ٣٣٧ —

يا حبيبى ، أنت لا تدرى من العالَمِ سرَّهْ
فعلامَ الهمُّ فيه بين تفكيرٍ وحسره ؟
إنّ هـــــذا الدهر لا يجرى على ما تتمنَّى
فتمتَّع برهةً ما دمتَ فى دنيـــاك مرَّه !

— ٣٣٨ —

لا تَتُبْ عن بنت كرمٍ ، ما أُتيحت كالعقيقِ
وليجئْ ألفُ متابٍ بعـــد هذا فى الطريق !
ها هي الأزهار فاحت ، وطيور الروض ناحت
أيجوز التَّوبُ فى وقتٍ كهذا ، يا صـــديق ؟

— ٣٣٩ —

إنها الراح ، حيـــاة الخلد أو خلدُ الحياهْ
إنها حظُّك من عهد الصِّبا ، وهيَ منـــاه
ذاً أوان الزهر والخمـــرة ، والصَّحبُ نشاوَى
فاغنم الصَّفوَ ، فإنّ العيش هذا لا سواه !

— ٣٤٠ —

دورانُ الدهر لا يُغنِي بلا خمرٍ وساقى
ومغنٍّ يرسلُ اللّحنَ مع الناي العراقى
قد تأملتُ شؤونَ الكون فى دار الفناء
فإذا محصولنا المتعة ، والبـــاقى هباء

— ٣٠٥ —

— ٣٤١ —

قد زها روضُ أمانيك وطابَ الحاضرُ
فلماذا صفِرتْ يمناك من كأسٍ ، لماذا ؟
إحتسِ الصهباء فالدهرُ عدوٌّ غادرُ
ومِنَ النادر أن تحظى بيومٍ مثل هذا

— ٣٤٢ —

ما أحبَّ الطلعةَ الحسناء والروضُ ظليلُ
وصَبَا النـــيروز تجرى ، والأزاهيرُ تميلُ
كلّ ما تحكى عن الأمس لنـــــا فهو ثقيلُ
فاغتبط واترك حديث الأمس ، فاليوم جميلُ

— ٣٤٣ —

إرتشفها ، فالحميـــــا ملكُ كسرى وعلاه
واسمع الناي ، فما مزمار داودَ ســـواه
لا تفكِّر بعـــدُ فى ماضٍ وآتٍ لا تراه
إغنم الحال ، فهذا القصد من هذى الحياه

— ٣٤٤ —

لهف نفسى ، منذ ميَّزتُ يدى عن قدميَّا
غلَّ هـــذا الفلكُ المرذولُ لى كلتا يديَّا
يا لقلبى ، سيعدُّون من العمر عليَّـــا
ما تقضَّى عبثاً دون حبيبٍ وحميّـــــا !

— ٣٤٥ —

ويح قلبٍ ليسَ فيه ضَرَمٌ للحبِّ فاتِك
لم يتيَّمه جميلٌ بهوًى كالجبـــــل هاتك
إنَّ يوماً يتقضَّى لك فى غير غرامٍ
لهو يومٌ ضـــاعَ ، لا أضيع منه فى حياتك !

— ٣٤٦ —

ليس فى العشق المجازيِّ رُوَاءٌ أو نضاره
فهو مثل الجمر نصف الميْتِ ، ما فيه حراره !
إنما العاشق من يلتاع ليلاً ونهـــارا
ليس يستمرى طعاماً ، أو مناماً ، أو قرارا !

— ٣٤٧ —

فلأُباكر فرصـــةَ البهجة فى الروض الظليلِ
بيـــــدٍ فرع حبيبى ، ويدٍ كأسُ شمولى
أرشفُ الجريالَ ، لا أحفلُ بالأفلاكِ تجرى ..
ثملاً من خمرة الوصـــل مع الحِبِّ الجميلِ

— ٣٤٨ —

قيل لى : أقِلِلْ من الصهباء وأقصدْ فى المجونْ
أيُّ عذرٍ لك فى هذا التمـــادى والجنون ؟
إنَّ عذرى ثغـــر محبوبى وجريالُ صبوحى ..
أيُّ عذرٍ يا ترى أوضح من هذا يكون ؟!

— ٣٤٩ —

قم فأقبِـــــلْ يا حبيبَ الروح ، إكراماً لقلبى
بسنا حسنك أدركنى ، وفرِّجْ ليَ كربى !
هاتِ كوزاً نشربِ الراح به ، يا وثنى[1]
قبل أن يصطنعوا من طيننا كوزاً لشُربِ !

— ٣٥٠ —

إتَّبع نهجَ دراويش الحمَّـــــا الظرفاء
لا تُرِدْ غير ســـلافٍ ، وحبيبٍ ، وغناء
إحتمـــل فى الـكفِّ كاساً ، وعلى المنكب دنَّا
واشرب الصهباء يا حلو ، ودع قول الهـــراء !

— ٣٥١ —

يا حبيبى فاسقنيها ، ما هنا وقت الـكلامِ
ثغرك المبتسمُ اللَّيـــلةَ قوتى وطعامى !
أُسكبِ الصهباءَ تذكو مثل خدَّيك ونارِكْ
فلعمرى توبتى اليوم ألتوتْ مثل عذارِكْ !

---

(١) أى : يا دميتى .

— ٣٥٢ —

أشتهى ديوانَ شـــــعرٍ ، معه عُسٌّ مدام
ورغيفاً ، وكفافَ العيش من دنيـــا الحطامِ
عندها أمضى وإيّاك إلى قفـــــرٍ يبابٍ
ذاك أحـــلى ليَ من ملك السلاطين العظام !

— ٣٥٣ —

أيها الساقى ، تعالتْ نغمةُ الأشجان عندى
ونمادَى السكرُ حتى لتعـدَّى كلَّ حد
خفَّ بى الشَّيبُ ، فمن خمرك يا جَمَّ الأيادى
رجعت شيحوخةُ الرأسِ ربيعاً فى فؤادى !

— ٣٥٤ —

صادَ لى عشـقُك شَيبى فى أحابيل الدلالِ
يا أخا الحسن ، وإلا ما لصهبـاءَ ومالى ؟
صاغ عقـــــلى توبةً حطَّمها ربُّ الجمالِ
وأعدَّ الصبرُ ثوباً شقَّه كَرُّ الليـــــالى !

— ٣٥٥ —

بلغتْ فى الدِّين ثِنتَيْن وســـــبعينَ الملَلْ
فمن الملَّةِ لى عشـــــقُك دينٌ وأمل
صاحِ ما كفرٌ وإســـــلامٌ ، وتقوى وزلل ؟
أنت أَنت القصدُ ، فارفع بيننا هذى العللْ !

— ٣٥٦ —

سوف تلقـــــانى صريعاً ذاتَ يومٍ بالمدامه
قد هوَى رأسى على رجلك ، مهدورَ الكرامه !
وهوت من قبضتى الكاسُ ، ومن رأسِى العمامه
وثنيًا فى هوى وجهك ، يا ربَّ الوسامه !

— ٣٥٧ —

أنتِ يا خمرُ شرابى الفاضحى بين الصحابِ
فلأعاقِرْ منك ما أخرجُ فيه عن صوابى !
فيرانى مَنْ يرانى مِن بعيـــدٍ فينادِى :
عجباً ، من أين تأتينا أيا ربَّ الشراب ؟

— ٣٥٨ —

مذ بدا الميزانُ فى عرض السَّما والمشـــترى
ما رأى أحسنَ من هذى الطلا ذو بصرِ !
عجبى من بائع الصهبـــــاء فى غفلته
يا ترى أفضـــلَ مما باع ماذا يشترى ؟

— ٣٥٩ —

هَتكتْ أستارَنا بين الورَى هذى الحميـــا
غير أنى لستُ بالهاجرها ما دمتُ حيّـــا !
عجباً للبائع الصهباء فى غفلتـــه
أتراه يشترى أفضـــلَ مما باع شيّا ؟

— ٣٦٠ —

عند ما آخذ فى يمناي جاماً من شرابِ
ومن الغبطة أغدو ثملاً ضـــاع صوابى
تتأتى معجـــزاتٌ عدَّةٌ فى كلِّ بابِ
من طباعٍ ليَ كالنار ونطقٍ كالعبـــابِ

— ٣٦١ —

إن حَسَا الصهباء شحاذٌ أصـــارته أميرا
أو حساها ثعلبٌ أصبح ضرغاماً هصـــورا
أو حساها الشيخُ ردَّته غلاماً يافعـــا
أو حساها اليافع الغضُّ غَدَا شـــيخاً كبيرا

— ٣٦٢ —

إنها الجِريالُ ، لو صُبَّتْ على الطَّودِ رقصْ
فالذى ينتقص الصهبـــاءَ كان المنتقَصْ !
كيف تدعونى إلى التوبة منها يا صديقى ؟
إنها روحٌ يربِّى النفسَ أو يجلو الغصص !

— ٣٦٣ —

قلتُ : لن أشربَ بعد اليوم خمراً عَنْدَمَا
إنما الخمر دم الـكرم ، فلا أحسُ الدَّما !
قال عقلى الشيخُ : جدٌّ منك هذا أم خرافه ؟
قلتُ : كلا بل مزاحٌ ، كيف لا أحسو السُّلافه؟

— ٣٦٤ —

أنا لا أحتمـــل العيش بلا خمرٍ تَضُوعُ
لا ولا أحمـــل جسمى ، فهو محمولٌ فظيعُ
أنا أهوى لحظـــةً يسألنى الساقى بها :
قدحاً آخرَ فاشربْ ، وأنا لا أســـتطيع !

— ٣٦٥ —

كلما أشرقَ صبحٌ واضحُ الغُـــرَّةِ أزرق
فضَعَنْ بين يديك الراحَ فى الجام المروَّقْ
شاعَ بين الناس أن الحقَّ فى الأفواه مُرٌّ
فعلَى هذا تكون الخمـــرُ يا قومُ هيَ الحقّْ

— ٣٦٦ —

ظاهِرُ الموجودِ والمعـــدوم أدرى كيف كانا
باطنُ الأرفعِ والأوضعِ لى أنحـــــلَّ وبانا
مع هذا العـــلم ، فلأخجلْ إذن من كلِّ علمى
إن أكن أعرف فوق السُّكرِ فى الدهر مكانا !

— ٣٦٧ —

يا خليلىَّ اجعـــــلا قوتيَ ما عشتُ الحميّا
تجعلا كهربَ هذا الوجه ياقوتاً نقيّـــــا
ومتى حانت وفاتى فاغســـلونى بسلافٍ
ومِن الكرم أعِدُّوا ليَ تابوتاً ســـويّا !

— ٣٦٨ —

دوحُ عمرى سوف يُسْتَأْصَلُ من روض الحياةِ
ثم يبلَى جسدى الفانى ، وتنحلُّ رفاتى
فإذا ما صنعوا جامَ سلافٍ من ترابى
عدتُ حيًّا فيه إن أترعتموه بالشراب !

— ٣٦٩ —

عندما أهوِى برأسى تحت رِجلِ الأجلِ
يوم يُستأصَلُ عمرى من جذور الأملِ
فاصنعوا بالله جاماً من ترابى ، فعسانى
فيــه أحيْى كلما أُترِع من بنت الدنان

— ٣٧٠ —

هيَّ فلاأشربْ من الصهباء ما يأتى شذاه
من ثرى لحدى متى أصبحتُ شِـلواً فى ثراه
فإذا قادت إلى رمسيَ سكّيراً خطـــــاه
عاد من ريح شرابى ثملاً ضلَّ حجاه !

— ٣٧١ —

حين أقضى فاطمسوا قبريَ بين الدارسين
واجعلوا سـيرةَ حالى عبرةً للعالمين
ثم رشُّوا برحيق الخمـر لحدى وترابى
واصنعوا الآجرَّ من جسمى سِداداً للخوابى!

— ٣٧٢ —

يا أحبّائى ، إذا مُتُّ فبالراح اُغسـلونى
ومتى لقَّنتمونى فبخمـرٍ لقِّنونى
وإذا أحببتمُ فى الحشر أن تلتمسونى
فتحـرَّوْا فى ثرى الحانوت عنى تجدونى

— ٣٧٣ —

أيهـا الأخدان ، إمّا ضمَّكم مجلسُ أنسِ
فاذكروا هـذا الصديق الحرَّ ، فالأيامُ تُنسِى
ومتى عاقرتم الصهباء ، يا أحبـاب نفسى
وأتى فى الشَّرب دَوْرى .. فاقلبوا بالله كأسى !

كلما ألَّفكم بعـــدى شرابٌ أو دَدُ
فتملَّوا بعضكم من حُسْنِ بعضٍ ، واُسعَدُوا !
وإذا طافت كؤوسُ الراح بين الندماء
فاذكروا هذا الفتى المسكين أيضاً فى الدعاء !

١٢

ستار الختام

— ٣٧٥ —

إن مَنْ هم فى الحوانيت سكارَى لا يَعُون
والمقيمين الليـــــالى ، سُجَّداً لا يهجعون
ما بهم ناجٍ ، فهم فى اللجِّ غرقَى أجمعون
واحدٌ يقظـــان والباقون صرعى نائمون

— ٣٧٦ —

ليس فى الدَّير ولا المسجد يا صاح مكانى
خالقى يعـــــلم ما كنهُ ثرىً منه برانى
كفقير كافرٍ ، أو مومس شوهاءَ شانى
قد عدِمتُ الدين والدنيا ، وآمال الجنان ! . .

إن أكن سكرانَ من خمرِ المجوسِ الكافرين
أو أكن صبًّا خليعاً ، مارقاً لا ليَ دِين
فلأكن !.. كلُّ فريقٍ لهمُ فيَّ ظنون
بيد أنى ملكُ نفسى .. كيفما شئتُ أكون !

مقارنة بين تفكير الخيام والمعرى

قارن الكثيرون بين أقوال الحكيمين مقارنات ليست بالوافية ، فأحببت أن أتوسع فى الأمر من غير إسهاب . وفيما يلى طائفة من أشعار المعرى توخّيتُ السهولة والوضوح عند اختيارها من اللزوميات أو الذاكرة . وأكثرها يشابه رباعيات الخيام ، ومنها ما يقاربها ، ومنها ما يناقضها ، ومنها ما يبدو كأنه تعقيب عليها ، ومنها ما يذكّر ببعض الفاظها . وأنا أترك للقارئ أن يقارن ويستخلص لنفسه ما يشاء . ولكن من الحق علىّ أن أذكّره أن هذه المقارنة مجحفة بالمعرى ، لأن له من جوانب الفلسفة وروائع القول ما لم تَدْعُ المناسبة إلى ذكره هنا .

الرباعية :

(١) قال المعرى :

بنِي زمنى ، هل تعلمون سرائراً علمتُ ، ولكن بها غير بائح ؟

إذا قلتُ المحال رفعت صوتى
وإن قلتُ اليقين أطلتُ همسى !

مالى رأيت دعاة الشرّ ناطقةً
والرشد يصمت خوف القتل داعوه ؟

إلى الله أشكو مهجةً لا تطيعنى
وعالَم سوء ليس فيه رشيدُ
حجى مثل مهجور المنازل داثر وجهل كمسكون الديار مَشِيدُ

---

(٢) قال المعرى :

وعندىَ لو أمنتك علمُ سرٍّ عن الجهال غيَّبه مُكِمُّ

(٣) قال المعرى :

لا تقيِّدنى علىَّ لفظى فإنى مثل غيرى ، تكلُّمى بالمجاز !

ولديَّ سرٌّ ليس يمكن ذكره يَخفَى على البصراء وهو نهارُ
أما الهدى فوجدته ما بيننا سرًّا ، ولكن الضلال جهارُ !

(٤) قال المعرى :

أكتم حديثك لا يشعر به أحدٌ من رهط جبريل أو من رهط إبليس

(٦) قال المعرى :

لا تَدْنُوَنَّ من الشرور وأهلها فتكون عن أهل العلَى متباعدا

(٧) قال المعرى :

إجتنب الناس وعش واحدا لا تَظْلِمِ الناس ولا تُظَلَّمِ

فلا يغُرُّكَ بِشْرٌ من صديقٍ فإنّ ضميره إحَنٌ وخِبُّ

(١١) أكثر المعرى من ذمّ الزواج وعدَّدَ مساوئه ومشاكل الولد ولا سيما البنات . ولنترك التفاصيل ونجتزئ بقوله فى النساء :

لا تدنُوَنّ من النساء .. فإن غبَّ الأمر مُرُّ !

وقوله فيهن وفى الولد :

صحبنك فاستفدت بهن وُلْداً أصابك من أذاتك بالسماتِ

ومن رُزِقَ البنين فغيرُ ناءٍ بذلك عن نوائبَ مسقماتِ

ومن رُزِقَ البناتِ فأيُّ بؤس تبيَّن من وجوهٍ مقْسَماتِ !

(١٢) و (١٣) قال المعرى :

أولو الفضل فى أوطانهم غرباء تشِذُّ وتنأَى عنهم القرباء

فما سَبَأوا الراحَ الكميتَ للذّةٍ ولا كان منهم للخِراد سباء

وحسبُ الفتى من ذلة العيش أنه يروح بأدنى القوت وهو حباء

(١٤) و (١٥) قال المعرى :

والعقلُ زينٌ ولكن فوقه قدَرٌ
فما له فى ابتغـــاء الرزق تأثير

هو الرزق يُجرِيه المليكُ ، ولن ترى
أخا عيشةٍ بالحرص يُطْعَم أو يُسقَى

(١٧) قال المعرى :

توحَّدْ فإن الله ربَّك واحدٌ ولا ترغَبَنْ فى عِشرة الروساء

(٢٠) قال المعرى فى هؤلاء المتعاظمين :

لو لم تكن فى القوم أصغرَهم ما بانَ فيك عليهمُ كِبْرُ !

وقد أخذه عن قول عمر بن الخطاب « ما رأيت امرءً يتزيَّد إلا لنقص يجده فى نفسه » ولعله فى هذا أسبق من تكلم على ما يسمونه مركّب النقص ، بهذا الوضوح .

(٢٢) قال المعرى :

من مذهبى ألاّ أشدَّ بفضةٍ قدحى، ولا أصغى لشَربِ معوَّجِ
لكن أُقضِّى مدّتى بتقنُّعٍ يُغنِى ، وأفرح باليسير الأروجِ
هذا ولستُ أودُّ أنى قائم بالملك فى ثوبَيْ أغرَّ متوّجِ

(٢٤) قال المعرى :

وإنما سائسكم دائب يرعَى المطايا ويسوق الحميرْ !

(٢٩) قال المعرى :

وقد فتّشتُ عن أصحاب دينٍ لهم نسكٌ وليس لهم رياء !

تستروا بأمور فى ديانتهم
وإنما دينهم دين الزناديقِ
نكذّب العقلَ فى تصديق كاذبهم
والعقل أولَى بإكرامٍ وتصديقِ !

(٣٠) قال المعرى :

يحرِّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمدٍ مساء
يقول لكم غدوتُ بلا كساء وفى لذّاتها رهنَ الكساء !
إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى فمن جهتين لا جهةٍ أساء

(٣٣) قال المعرى :

وليس عندهمُ دينٌ ولا نُسُكٌ
فلا تغرّك أيدٍ تحمل السُّبَحَا

وكم شيوخٍ غدوا بيضاً مفارقهم
يسبّحون ، وباتوا فى الخنا سُبُحا
لو تعقل الأرض ودّت أنها صفِرتْ
منهم فلم يرَ فيها ناظرٌ شبحا

إنما هذه المذاهب أسبا بٌ لجذب الدنيا إلى الرؤساء !

(٣٤) قال المعرى :

رويدك قد غُرِرتَ وأنت حرٌّ بصاحب حيلةٍ يعظ النساء

كم قائمٍ بعظاته متفقّهٍ
فى الدين يوجَدُ حين يُكشَفُ عاهرا

(٣٧) قال المعرى :

قد حُجِبَ النور والضياء وإنما دينا رياء
يا عالَمَ السوء ، ما علمنا أن مصلّيك أتقياء !
لا يكذبنَّ امرؤٌ جهولٌ ما فيك لله أولياء

تأمرنا بالزهد فى هذه الـ دنيا وما همُّكَ إلاّ هي !

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمُهَا فتاركها عمداً إلى الله أقربُ !

(٣٨) قال المعرى :

لحـــا الله قوماً إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا كَفَرْ!

(٣٩) قال المعرى :

ولا تحسب مقال الرسل حقًّا ولـكن قول زورٍ سطّروه

(٤٤) قال المعرى :

هَفَتِ الحنيفةُ ، والنصارى ما اهتدت

ويهودُ هامت ، والمجوسُ مضلّلَه

إثنان أهلُ الأرض : ذو عقلٍ بلا

دينٍ ، وآخرُ دينٌ لا عقلَ لَه !

(٤٦) قال المعرى :

أفيقوا ، أفيقوا يا غواة ، فإنما

دياناتكم مكرٌ من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا

و بادوا ، ودامت ســـنّة اللؤماء !

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

(٤٧) قال المعرى :

والخير أفضل ما اعتقدتَ ، فلا تكن
هَمَلاً ، وصلِّ بقبـــلةٍ أو زمزم

والزمزم صلاة المجوس على الطعام .

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له
ولا صلاةٌ ، ولا صوفٌ على الجسدِ
وإنمـــا هو ترك الشرِّ مُطَّرَحاً
ونفضك الصدر من غلٍّ ومن حسدِ
ما دامت الوحشُ والأنعامُ خائفةً
فَرْساً فما صحَّ أمرُ النسك للأسدِ !

والفَرْس من وزن قوس : الافتراس

(٤٨) قال المعرى :

وأفعـــلِ الخيرَ فالحديـ ـث كثيرٌ قد اختلفْ !

(٤٩) قال المعرى :

إن العقول تقول مُوليـةً ليس الأنامُ كنابت البقلِ

مُولية : حالفة . ولا يظهر من سياق الشعر قصده من نفي

الشبه بين الأنام ونابت البقل ، مع أنه أثبت هذا الشبه فى أماكن أخرى من لزومياته . ولكن حسبنا اتفاق هذا البيت مع الرباعية فى ابتدائهما بالعقل وانتهائهما بالبقل ، وأنّ الأول يؤكد أن الإنسان لا يشبه الثانى . ولعل غرض الحكيمين واحد .

(٥٠) قال المعرى :

حيـــاةٌ ثم موتٌ ثم نشرٌ حديث خرافةٍ يا أمَّ عمرِو !

(٥١) قال المعرى :

دفنّاهُمُ فى الأرض دفن تيقُّنٍ ولا علمَ بالأرواح غير ظنونِ !

(٥٢) قال المعرى :

جسدٌ من أربعٍ تلحظها سبعةٌ راتبةٌ فى اثنَيْ عَشرْ

قصد الشيخان : العناصر الأربعة والأفلاك السبعة . وزاد المعرى هنا الشهور الاثنى عشر ، وزاد الخيام فى مواضع أخرى الحواسّ الخمس والجهات الستّ . ويقول المعرى على عادته متردداً فى أمر البعث :

زعم الفلاسفةُ الذين تنطَّسوا أنّ المنيـــة كسرها لا يُجبَر

مع أننا رأيناه — آنفاً — يذهب أحياناً مذهب هؤلاء الفلاسفة الذين تنطَّسُوا .

(٥٦) قال المعرى :

لعلَّ أناساً فى المحاريب خُوِّفُوا
بآيٍ كناسٍ فى المشارب أطربوا

مساجدكم ومواخيركم سواء ، فبعداً لكم من بشَرْ !

(٦٣) قال المعرى :

إن كان مَنْ فَعَلَ الكبائرَ مجبَراً
فعقابه ظلمٌ على ما يفعلُ
واللهُ إذا خلق المعادنَ عالِمٌ
أنّ الحِدَاد البيضَ منها تُجعَلُ

(٦٤) قال المعرى :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمرٍ سبّبته المقادرُ

فقل للغراب الجون إن كان سامعاً :
أأنت على تغيير لونك قادر ؟

(٦٥) قال المعرى :

ما باختياريَ ميلادى ولا هرمى
ولا حياتى ، فهل لى بعدُ تخييرُ ؟

(٦٦) قال المعرى :

أرى شواهد جبرٍ لا أحقّقه كأنَّ كلاًّ إلى ما ساءَ مجرورُ !

(٦٩) قال المعرى :

عيوبى إن سألتَ بها كثيرٌ وأيّ الناس ليس له عيوب ؟

(٧٢) هذه الرباعية يعزوها بعضهم إلى الخواجه نصر الدين الطوسي .

(٧٣) قال المعرى :

جبلّةٌ بالفساد واشـــجةٌ إن لامها المرء لام جابلَهَا !

(٧٦) قال المعرى :

إن أدخل النـار فلى خالقٌ يحمل عنى مثقلات العَذَابْ
يقدر أن يسكننى جنـــةَ فيها ترامَى بالمياه العِذابْ !

(٨٣) قال المعرى :

أرواحنا معنـا وليس لنا بها علمٌ، فكيف إذا حوتها الأقبُرُ ؟

وربما كان الأصح (إذا حوتنا الأقبر ..)

(٨٤) المعرى هنا يخالف الخيام و يناقضه :

أثبتُّ لى خالقاً حكيماً ولستُ من معشرٍ نفـــاةِ

(٨٥) ويخالفه هنا أيضا :

أقر بأنّ لى ربًّا قديراً ولا ألقى بدائعه بجَحْـــدِ

(٨٦) قال المعرى :

توقَّعوا من دهرهم عدلَهُ والدهرُ لا يحسن أن يعدلا
فى كل دهرٍ جَنَفٌ كامنٌ والنحسُ فى المولد والسعدُ لا

(٨٨) ترجمة النصّ الفارسيّ للشطر الرابع : « الأَولَى أن يُسْلَح على فلك كهذا » وقد هذبناه .

(٩١) قال المعرى :

والدهرُ لا يدرى بما هو كائنٌ فيه ، فكيف يُلام فيما كانا ؟

(٩٢) قال المعرى :

خرجتُ إلى ذى الدار كرهاً ، ورحلتى
إلى غيرها بالرغم ، واللهُ شاهدُ !

نفارق العيشَ لم نظفر بمعـــرفةٍ
أيّ المعانى بأهل الأرض مقصودُ ؟

لم تعطنا العلمَ أخبـــارٌ يجيء بها
نقلٌ ، ولا كوكبٌ فى الأرض مرصودُ

(٩٤) قال المعرى :

ولم يدرِ لما أن أتاها ، ولا درى
إلى أين يمضى ، فاستكان مدبَّرَا

ولكنه يقول فى مكان آخر وكأنه يجيب على تساؤل الخيام وتساؤل نفسه :

نمر سراعاً بين عُدْمين ، ما لنا لباثٌ ، كأنّا عابرون على جسر

(٩٥) قال المعرى :

وركْبٍ واردٍ ليقيم عصراً وآخرُ قد أجدَّ به الرحيلُ

(٩٦) قال المعرى :

فهل قام من جدَثٍ ميِّتٌ فيخبرَ عن مسمعٍ أو مَرَى ؟

وقال عن الموتى :

طلبتُ يقيناً يا جهينـــة عنهمُ
ولم تخبرينى يا جهينُ سوى الظنِّ
فإن تعهدينى لا أزال مُسائلاً
فإنيَ لم أُعْطَ الصحيح فأستغنِي !

(٩٧) قال المعرى :

وما تريد بدارٍ لستَ مالكها تقيم فيها قليلا ثم تنطلقُ ؟

(٩٩) قال المعرى :

اللهُ صوَّرنى ولستُ بعالِمٍ لِمَ ذاك، سبحانَ القديرِ الواحدِ!

(١٠٠) قال المعرى :

رَيْبُ الزمان مفرِّقُ الإلفَيْنِ فاحكم إلهى بين ذاك و بينى

أنهيْتَ عن قتل النفوس تعمُّداً و بعثت أنت لقتلها ملكين ؟

وزعمتَ أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحالين !

(١٠٢) قال المعرى :

ويجهلُ حتى يسألَ الفلكَ الذى

يدور عليه كيف بدء مدارِهِ ؟

وتشاجروا فى قبة الفلك التى

ما زال يعظم فى النفوس عمودها

فيقول ناسٌ سوف يدركها البِلَى

ويمينُ ناسٌ لا يجوز همودها

يمينُ : يفترى

(١٠٤) قال المعرى :

سألتمونى فأعيتنى إجابتكم من ادَّعى أنه دارٍ فقد كذبا !

(١٠٥) قال المعرى :

أما اليقين فلا يقين ، وإنما
أقصى اجتهادى أن أظنَّ وأحدسا

نقول على المجاز ، وقد علمنا بأنّ الأمر ليس كما نقول !

(١٠٦) قال المعرى :

جميعنا يخبط فى حندسٍ قد استوى الناشئُ والكهلُ

(١٠٧) قال المعرى :

وما جَدَلُ الأقوام إلا تعلّة مصوَّرة من باطلٍ متوهَّمِ

(١٠٨) قال المعرى :

وبَصيرُ الأقوام مثليَ أعمى فهلمُّوا فى حندسٍ نتصادَمْ !

(١١٢) قال المعرى :

غدوتَ مريض العقل والدين ، فالقَنى
لتعرف أنباء الأمور الصحائح

(١١٦) قال المعرى :

وأشهد أننى غاوٍ جهولٌ وإن بالغتُ فى بحثٍ ودرسِ

(١١٧) قال المعرى :

إذا كان علمُ الناسِ ليس بنافعٍ ولا دافع فالخُسْرُ للعلماء !

إذا علميَ الأشياء جرَّ مضرّةً إليَّ فإن الجهل أن أطلب العلما

(١١٨) قال المعرى :

أما الصِّحاب فقد مرُّوا وما عادوا

وبيننا بلقـــــاء الموت ميعادُ

أُعلِّل مهجتى ويصيح دهرى ألا تغدو ؟ فقد ذهب الرفاقُ !

(١٢١) قال المعرى :

صاحِ هذه قبورنا تملأ الرُّحـ ـبَ فأين القبور من عهد عادِ ؟

(١٢٢) قال المعرى :

ومن شِيَمِ الأيام ، وهى كثيرةٌ فناء كبير واقتبالُ غلامِ

فهادجٌ حاملُ عكازةٍ وفارسٌ معتقلٌ صعدَهْ

وآخِرٌ يدرك مَنْ قبلَه ويترك الدنيا لمن بعدَهُ

قدوم أصاغرٍ ورحيـلُ شِيبِ وهجرة منزلٍ وحُلولُ رمسِ

(١٢٤) العَيْر من وزن طير : الحمار الوحشيّ . يقابلها في الفارسية « گور » من وزن نُور ، وهي تعني العير والقبر معا ، وقد استعملها الخيام لـكليهما في هذه الرباعية ، فأصبح « الـگور » مَصِيداً وصائداً . ولم نستطع نقل هذا الجناس التام إلى العربية إلا بهذا الجناس الضئيل بين كلمتي العير والقبر ، على أنه جاء عفوا ..

(١٢٥) كلمة « كو ؟ » الفارسية من وزن ذُو ، تعني « أين ؟ » وترجمة الشطر الرابع من الرباعية هي « قعدتْ تقول : كو كو كو كو ؟ » يعني «أين ، أين ، أين ، أين ؟» . ولم يستطع أحد ترجمة هذا التوافق الممتع بين المعنى وحكاية صوت الفاختة إلى أيّةٍ من اللغات .

(١٢٧) قال المعرى :

من ديارٍ قد جاءها القادم الآ تى فلم يعتـــبر بمنصرِفيها

(١٢٨) قال المعرى :

قد كان قبلك ذادةٌ ومَقَـــاولٌ
ذادوا ، وما صَرَفَ الخطوبَ ذيادُ !

وما الناس إلا خالفٌ بعد سالفٍ
كذلك نبت الأرض يعقبه النبتُ !

(١٢٩) قال المعرى :

خفّفِ الوطءَ ، ما أظنُّ أديمَ الأ
رض إلاّ من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا وإن قدُمَ العهـ
ـدُ هوانُ الآباء والأجدادِ !
سر إن اسطعتَ فى الهواء رويداً
لا اختيالاً على رفات العبادِ

على أنه ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى أحياناً ، فيقول:

طَأْ بالحوافر قتلَى فى مصارعها فالجسم بعدَ فراق الروح كالمَدَرِ!

(١٣١) قال المعرى :

ولو أنى أُعَدُّ بألفِ بحرٍ لمرَّ علىَّ موتٌ فاحتسانى !

(١٣٢) قال المعرى :

سَرَى الموتُ فى الظلماء والقومُ فى الكرى
وقام على ساقٍ ونحن قعودُ

وتأكلنا أيامُنا ، فكأنما تمرُّ بنا الساعات وهى أسودُ !

(١٣٣) قال المعرى :

نُرَدُّ إلى الأصول ، وكلُّ حيٍّ له فى الأربع القُدُمِ انتسابُ

(١٣٤) قال المعرى :

نمتار من أمِّنا الغبراء حاجتَنَا وللبسيطة من أجسادنا مِيَرُ

وما الأرض إلا مثلنا الرزقَ تبتغى
فتأكلُ من هذا الأنام وتشربُ !

فلا أُغْرَرْ إذا أجلى خَطَانى سيأتى الموتُ أغفل ما أكون!

(١٣٥) قال المعرى :

وما نفيقُ من السكر المحيط بنا إلا إذا قيل هذا الموت قد جاء

(١٣٦) قال المعرى :

وشخوصُ أقوامٍ تلوح ، فأمَّة قدِمَتْ مجدّدةً وأخرى تهلكُ

(١٣٧) قال المعرى :

والترب مثوايَ ومثواهمُ وما رأينا أحداً منه قامْ

(١٤٢) قال المعرى :

فلا يُمسِ فخّاراً من الفخر عائدٌ
إلى عنصر الفخّار للنفع يُضربُ
لعلّ إناءً منـــــه يُصنَع مرةً
فيأكلُ فيه من يشاء ويشربُ
ويُنقَل من أرضٍ لأخرى وما دَرَى
فواهاً له ، بعد البـــلى يتغرّبُ !

(١٥٠) قال المعرى :

لعل مفاصل البنّاء تضحى طلاءً للسقيفة والجـــدار

(١٥٢) قال المعرى :

وكم وطِئتْ أقدامُنا فى ترابها جبينَ أخى كِبْرٍ وهامةَ أبلجِ

سر إن أُسطعتَ فى الهواء رويداً
لا اختيالاً على رفاتِ العبـــاد !

(١٥٤) قال المعرى :

وما الناس إلا خالفٌ بعد سالفٍ
كذلك نبت الأرض يعقبـه النبت

(١٥٧) قال المعرى :

نمضى ونترِكُ البلاد عريضةً ... والصبحَ أنورَ والنجومَ زواهرا

وما عالمَى إن عشتُ فيه بزائدٍ ... ولا هو إن أُلقيتُ منه بناقصِ

نزول كما زال آباؤنا ... ويبقى الزمان على ما ترى

(١٥٨) قال المعرى :

أما الصحاب فقد مرّوا وماعادوا ... وبيننا بلقاء الموت ميعادُ

سرٌّ قديمٌ وأمرٌ غير متضحٍ ... فهل على كشفنا للسرّ إسعاد ؟

مضت قرونٌ وتمضى بعدنا أممٌ ... والسرُّ خافٍ إلى أن يُنفَخ الصُّورُ

(١٥٩) قال المعرى :

وقد تعوّضتُ عن كلٍّ بمشبهه ... فما وجدتُ لأيام الصِّبا عوضا

سار الشبابُ فلم نعرف له خبراً ... ولا رأينا خيالاً منه مُنتابا

(١٦٠) قال المعرى :

لونانِ من ليلٍ وصبحٍ لوّنَا ... شَعرى ، وأضعفنى الزمانُ الأيِّدُ

جسميَ أودَى مرُّ السنين به ... فلتطلب النفسُ منزلاً بدَلَه

والجسم للروح مثل الربع تسكنه

وما تقيم إذا ما خُرِّب الجسد

(١٦١) قال المعرى قريباً من معنى الشطرين الأولين :

دنياك دار شرورٍ لا سرور بها
وليس يدرى أخوها كيف يحترس !

عرفتُ سجايا الدهر ، أما شروره
فنقـــدٌ وأما خيره فوعودُ

(١٦٣) قال المعرى :

وقد بلونا العيشَ أطوارَهُ فما وجدنا فيه غير الشقاء

(١٦٤) قال المعرى :

وشبَّ وشاب ، وأفنَى الشبابَ .. وسقياً له من خضابٍ نَصَلْ
ومن بعد ذلك يجىء الحمامُ .. فانظر على أيّ شىء حَصَلْ ؟

وقال يخاطب الدنيا :

وظلمٌ أن أحاول فيك ربحاً ولم أخرج إليك برأس مال !

(١٦٥) قال المعرى :

تعبٌ كلُّها الحياة ، فما أع .. جب إلا من راغبٍ فى ازدياد !

(١٦٦) قال المعرى :

حياة كالخيالة ذات مَكْرٍ ونفسُ المرءِ صيدٌ أعلقته !

فلكٌ يدور على معاشرَ جمَّةٍ وكأنه سجنٌ عليهم مطبقُ

على أنه يبشر الطائر الذى أعلقته حبائل الحياة بالخلاص ، ولـكن فى سخرية عنيفة قاسية ، فيقول :

يا طائراً من سجون الدهر فى قفصٍ
لتُذْبَحَنَّ ، فلا سجنٌ ولا شرَكُ !

(١٦٧) قال المعرى فى معنى الشطرين الأولين :

تَقْنُونَ والفلكُ المسخَّرُ دائرٌ وتقدِّرون فتضحك الأقدارُ !

(١٧٠) قال المعرى :

فليت الفتى كالبدر جُدِّدَ عمره يعود هلالاً كلما فنيَ الشهرُ

(١٧٤) قال المعرى :

وهذه الدنيـــا على أنها محبوبة لم تُخلِنا من ألَمْ

(١٧٥) قال المعرى :

وما أُؤمِّل عند الدهر مصلحةً وإنما هو إتلافٌ وإفسادُ

(١٧٦) لم أتبين سرَّ التناقض بين أول الرباعية الذى يدعو المرء إلى العزوف عن الدنيا وآخرها الذى يحضّه على اختطاف حظه منها .

(١٧٧) قال المعرى :

سلِّ الفـــؤاد عن الحياة .. فإنهـــــا شَرٌّ وشُرّ
قد نلتَ منها ما كفاك .. فما ظفرتَ بمـــا يسرّ

والشَّر، بضم الشين : العيب .

(١٧٨) قال المعرى :

من يغتبطْ بمعيشةٍ فأمامه نُوَبٌ تطيلُ عناءه فجعاتُها

(١٧٩) قال المعرى :

أصاحِ هي الدنيـــا تشابه مِيتةً
ونحن حواليها الكلابُ النوابحُ
فمن ظَلَّ منها آكلاً فهو خاسرٌ
ومن عاد عنها ساغباً فهو رابح !

تزوَّج دنيـــــاه الغبيُّ بجهله
فقد نشزت من بعد ما قُبِضَ المهرُ
تطهَّرْ ببعدٍ من أذاها وكيدها
فتلك بغيٌّ لا يصحُ لها طهرُ !

عرفتُ من أُمِّ دَفْرٍ شيمةً عجباً
دلَّت على اللؤم ، وهى العنف بالخدمِ
ومن يُهِنها تَصُنْه عن مكارهها
بعض الصيانة ، فارفضها بلا ندمِ
وما لنفسى خلاصٌ من نوائبها
ولا لغيريَ إلا الكون فى العدم

(١٨١) قال المعرى :

تغيَّبتُ فى منزلى برهةً سَتِيرَ العيوب فقيد الحسد
إذا ما شئتُم دَعَةً وخفضاً فعيشوا فى البريّة خاملينا

(١٨٦) قال المعرى :

تَسَمَّى سروراً جاهل متخرصٌ
بفيه البَرَى ، هل فى الزمان سرورُ ؟
نعم ثَمَّ جزءٌ من ألوفٍ كثيرةٍ
من الخير ، والأجزاء بعدُ شرورُ !

(١٩٠) قال المعرى :

ألا إنما الدنيا نُحُوسٌ لأهلها
فما فى زمانٍ أنت فيه سعودُ

جيبُ الزمان على الآفات مزرورُ

ما فيه إلا شـقيُّ الجدِّ مضرورُ

---

(١٩١) قال المعرى :

متى ملأت كفَّيكَ دنياك أرسلت

مُلِمًّا يُعِيدُ الكفَّ من جودها صفرا

كأن وليداً مات قبـــل سقوطه

على الأرض ناجٍ من حبالتها طَفْرَا !

وألقاك فيهـــا والداك فلا تَضَعْ

بها ولداً يلقَى الشدائد والنكرا

وأرحتُ أولادى ، فهم فى نعمة الـ

ـعدم التى فضلت نعيم العاجل !

---

(١٩٢) قال المعرى :

حياةٌ وموتٌ وانتظار قيامةٍ ثلاثٌ أفادتنا ألوفَ معانِ

ألم ترَ عالَماً يأتى ويمضى سواه كأنه مرْعِيُّ بقلِ ؟

وكيف أجيد فى دارٍ بناءً ورُبَّ الدار يؤذننى بنقلِ ؟

أهذى الدار ملكٌ لابن أرضٍ بها رامَ المقامَ ، أم اكتراها ؟

وما تريد بدارٍ لستَ مالكها تقيم فيها قليلاً ثم تنصرف ؟

(١٩٣) قال المعرى :

لنفسىَ أن تنأَى عن الجسم روعةٌ
كروعة أنثى أُجلِيَتْ عن ديارها !
فإن رحلت بالرغم عن مستقرها
فما كان سكناها له باختيـــارها

وردتُ إلى دار المصائب مجـــبراً
وأصبحت فيها ليس يعجبنى النقل !

(١٩٤) قال المعرى :

أرانىَ غمـــراً بالأمور ، ولم أزل
أجوب دجاها أو أخوض غمارها

(١٩٦) قال المعرى :

والخير والشر ممزوجان ما افترقا فكل شهدٍ عليه الصَّابُ مذرورُ

(١٩٧) كأن الخيام يريد فى هذه الرباعية أن يحلّل تركيب الإنسان إلى عناصره الأولى على نظرية العناصر الأربعة . فالنار قلبه ، والماء دموعه ، والهواء حياته ، والتراب مثواه ! . . ولعله قصد نفس المعنى فى الشطرين الأولين من الرباعية فقال إننا جئنا أطهاراً كالهواء فاكتسينا الوضر كالتراب ، وكنا وادعين كالماء برداً وسلاماً فأصابنا الغم كالنار — ثم فصل المعنى على وجه آخر فى الشطرين الأخيرين . ويقول المعرى فى معنى الرباعية :

أخوكِ معذَّبٌ يا أمَّ دفرٍ أظلّته الخطوبُ وأرهقته
وما زالت معاناة الرزايا على الإنسان حتى أزهقته
إذا خُشِيتْ لشرٍّ عجّلته وإن رُجِيَتْ لخيرٍ عوّقته
حياة كالحبالة ذات مكرٍ ونفس المرء صيدٌ أعلقته !
سقته زمانه مَقِراً وصاباً وكاس الموت آخرُ ما سقته !

أمُّ دفر : الدنيا . المَقِر ، بكسر القاف : المرّ أو الحامض .

(١٩٨) قال المعرى :

ربِّ متى أرحل عن هذه الـ ـدنيا ، فإنى قد أطلتُ المقام
لم أدرِ ما نجمى ، ولكنه مذ كان فى النحس جرى واستقام !

والعيش سـقمٌ مُنْصِبٌ للفتى
والمـوت يأتى بشفاء السقام

(١٩٩) قال المعرى فى معنى الشطر الأول من الرباعية :

نقمتُ الرضا حتى على ضاحك المزنِ
فلا جادنى إلا عَبوسٌ من الدَّجْنِ

وقال فى معنى الشطر الثانى :

خسئتِ يا أمَّنا الدنيا ، فأُفٍّ لنا بنى اللئيمة أنذالٌ أخسَّاء

وأخو الحجى أبداً يحارب طبعه فتراه وهو محارب كمسالم

وقال فى معنى الشطر الرابع :

أيها الدنيـا ، لحاكِ اللـه من ربّة دلٍّ
ما تسلَّى خـلدى عنـك وإن ظن التسلِّى

إنى ونفسى أبداً فى جِذابْ أكذِبها وهيَ تحبّ الكِذَابْ

(٢٠٢) قال المعرى :

وهوّن ما نلقَى من البؤس أننا على سفَرٍ ، أو عابرون على جسر
متى ألقَ من بعد المنية أسرتى أُخبّرهم أنى خلصتُ من الأسر

العيش أفقرَ منا كل ذات غنى
والموت أغنَى بحقٍّ كل محتاجِ
إذا حياة علينا للأذى فتحت
باباً من الشر لاقاه بأرتاجِ !

(٢٠٣) قال المعرى :

يسارٌ وعدمٌ ، وادٍّ كار وغفلة وعزٌّ وذلٌّ .. كل ذاك غرور !

وكيف أقضِّى ساعةً بمسرّةٍ وأعلم أن الموت من غرمائى ؟

(٢٠٥) قال المعرى :

تلك أنباءٌ أرتنـــا عبراً معجباتٍ كأحاديث السَّمَرْ
فى حياةٍ كخيالٍ طارقٍ شغَلَ الفكرَ ، وخلاّك ومرّْ

(٢٠٦) قال المعرى :

أراك الجهلُ أنك فى نعيمٍ وأنت إذا افتكرت بسوء حال
وما سمحت لنا الدنيا بشيءٍ سوى تعليل نفس بالمحال

(٢٠٧) قال المعرى :

إن مدحونى ساءنى مدحُهم وخلتُ أنى فى الثرى سُخْتُ
جسميَ أنجاسٌ ، فما سرّنى أنى بمسك القول ضُمِّخْتُ

(٢٠٨) قال المعرى :

تعالى الله ، كم ملكٍ مهيبٍ تبدَّل بعد قصرٍ ضيق لحدِ

لو نُخِل العيشُ لما حصَّلتْ شيئاً سوى الموت يدُ الناخلِ !

(٢١٠) قال المعرى :

هيني عشتُ عمرَ النَّسر فيها وكان الموت آخر ما لقيتُ

(٢١١) قال المعرى :

بطن التراب كفانى شرَّ ظاهره

وبيَّن العدلَ بين العبد والملكِ

جاران : مَلْكٌ ومحتاجٌ ، أتى زمنٌ

عليهما فتساوى البؤسُ والترفُ

(٢١٣) قال المعرى :

بلوتُ أمورَ الناس من عهد آدمٍ

فلم أرَ إلا هالكاً إثْرَ هالكِ

إذا كان هذا التُّربُ يجمع بيننا

فأهل الرزايا مثل أهل الممالكِ

وقد زعموا الأفلاكَ يدركها البلَى
فإن كان حقاً فالنجاسة كالطهر !

(٢١٤) قال المعرى :

فلا يُعْجَبْ بصورته جميلٌ فإن القبحَ يُطوَى كالجمالِ

(٢١٥) قال المعرى :

هب الفتى نال أقصى ما يؤمّله أليس راعى المنايا خلفه حُطَمُ ؟

(٢١٨) قال المعرى :

تمنَّيتُ أن الخمر حلَّت لنشوةٍ تجهِّلنى كيف أستقرّت بيَ الحالُ

ولكنه يخاف الخمر على عقله فيقول :

يقول الناس إن الخمر تُودِى بما فى الصدر من همٍّ قديمِ
ولولا أنها باللُّبِّ تُودى لكنتُ أخا المدامة والنديم

على أنه يجد دواء آخر يغنيه عنها ، وهو الموت :

واستشعر العاقل فى سقمه أن الردى ممـــا عناه الشفاء

إذا غدوتُ ببطن الأرض مضطجعاً
فثَمَّ أفقـــد أوصابى وأمراضى !

(٢١٩) قال المعرى فى معنى الشطرين الأولين :

المرء يقدِم دنياه على خطرٍ بالرغم منه ، ويناها على سَخَطِ

(٢٢١) كأن المعرى يعقّب على رباعية الخيام إذ يقول :

ستطلقنى المنية عن قريب فإنى فى أسار واعتقالِ

(٢٢٦) قال المعرى :

أيأتى نبيٌّ يجعل الخمرَ طِلقـــةً

فتحمل ثقلاً من همومى وأحزانى ؟

وهيهات لو حلّت لما كنتُ شارباً

مخففةً فى الحـــلم كفّة ميزانى !

فكأن الخيام يهوّن عليه فى هذه الرباعية عبث الحميا بالعقول ما دامت العاقبة هى الخراب . ولكن المعرى حييّ مفرط الحياء ، متوجّس بسبب فقدان بصره . نبّهه أحدهم مرةً إلى أن الدبس قد قطر على ثوبه فجعل يمسحه قائلا « قاتل الله الشره ! » وأقلع بقية حياته عن أكل الدبس . فكيف به لا يذعر من عقابيل بنت العنب ، ولا يجفل من أن يكون (خربا) ؟

(٢٢٨) بينا يكثر الخيام من ذكر فضائل الخمرة يكثر المعرى من ذم شرورها وفعلها بالشاربها ، مع أنه لم يذقها . وأحسبه يصف ما يخشى أن يصيبه من أذاها لو عاقرها . من ذلك :

توخَّ بهجرٍ أمَّ ليلى ، فإنها عجوزٌ أضلّت حيَّ طسمٍ ومارِبِ

دبيب نِمال عن عقارٍ تخالها
بجسمك شراً من دبيب العقارب !
ولو أنها كالماء طِلقٌ لأوجبت
قلاها أصيلاتُ النهى والتجارب

(٢٣٢) قال المعرى :

إن الشبيبة نارٌ إن أردت بها أمراً فبادره إن الدهر مطفئها

والمرء فى حال التيقُّظ هاجعٌ يرنو إلى الدنيا بمقلة حالم

(٢٣٥) قال المعرى :

نفرٌ من شرب كاس وهي تتبعنا
كأننا لمنايانا أحبّـــــاء !

لا يرهب الموتَ من كان امرءً فطناً
فإن فى العيش أرزاءً وأحداثا

(٢٤٧) قال المعرى :

أرى فلكاً ما زال بالخلق دائراً له خبرٌ عنّا يُصَانُ ويُخْبَأُ

غُيِّبَ مَيْتٌ فمـــا رأته عينٌ سوى رؤية المنام !

(٢٥١) قال المعرى :

لو كان ينطق ميّتٌ لسألته ماذا أحسَّ وما رأى لما قدِمْ

(٢٦٣) قال المعرى :

أرى الأشياء ليس لها ثباتُ وما أجسادنا إلا نباتُ !

(٢٨١) قال المعرى :

أتترك ههنا الصهباء نقداً لما وعدوك من لبنٍ وخمر ؟

(٣٠٢) قال المعرى :

تورَّعوا يا بنى حوَّاء عن كذبٍ

فما لكم عند ربٍّ صاغكم خَطَرُ !

(٣١٣) قال المعرى :

إنما نحن فى ضلالٍ وتعليـــلٍ فإن كنتَ ذا يقينٍ فهاتِه !

وبصير الأقوامِ مثليَ أعمَى فهلمُّوا فى حندسٍ نتصادَمْ !

(٣١٨) قال المعرى :

ودنياك ليست للسرور مُعَدَّةً فمن ناله من أهلها فهو سارقُهْ !

(٣٢٣) قال المعرى :

خُذَا الآن فيما نحن فيــه ، وخلِّيا
غداً فهو لم يقدِمْ وأمسِ فقد مرَّا !

(٣٢٤) قال المعرى :

وما أجساد هذا الخلق إلا عواريُّ المقادرِ لا الهباتُ

(٣٣١) يقول المعرى فى معنى الشطر الأول :

والنفس تفــنى بأنفاسٍ مكرَّرةٍ
وساطعُ النــار تُخْبِى نورَهُ اللُّمَعُ

ولـكنه لا يتفق مع الخيام فى أن الحياة تمضى كما تريد أن تمضيها ، (كما أن الخيام ينكر ذلك فى رباعيات أخرى — ٣١٨ مثلا) . قال المعرى :

يعيش الفتى ما عاش كالظبي ، لم يُفِدْ
بدنيــاه إلا أن يُعَالَ ويَكبُرَا
ولم يَدْرِ لما أن أتاها ، ولا درى
إلى أين يمضى ، فاستكان مدبَّرا

(٣٣٣) قال المعرى :

وإذا رجعتَ إلى النهى فذواهب الـ

أيام غـــير مؤمَّلٍ رجعاتُها

ويعبّر تعبيراً رائعاً عن فوات الزمن إلى غير رجعة بقوله :

غدى سيُوجِد أمسى ، لا ينازعنى

فى ذاك خلقٌ ، وأمسى لا يصير غدى !

(٣٣٧) قال المعرى :

وعلمتُ قلبَ المرء يغرق فى هوى

دنيـــاه ، خاب مكاتماً ومجاهرا

ماذا أفدتَ بأن أطلت تفكراً

فيها وقد أفنيتَ ليلك ساهرا ؟

(٣٥٠) كأن المعرى يردّ على الخيام قالته فى الخمر والسماع :

فلا تُعجبَنْك عروسُ المدا م ولا يطربنك مغنٍّ صدَحْ !

(٣٦٠) قال المعرى فى معنى الشطر الثالث من الرباعية ، ولكن من باب الاستنكار :

وتوهّم الشَّيبَ المدالفَ أنهم لبسوا على كِبَرٍ بُرُودَ شبابِ

أما الخيام فقد قال ذلك استحسانا . وقصد بالشطر الرابع أن الخمرة تطيل عمر اليافع حتى يشيخ .

(٣٦٩) المعرى يريد لثراه بعد موته أن يقضي الطهور :

تيمّموا بترابى علَّ فعلكمُ بعد الهمود يوافينى بأغراضى
وإن جُعِلتُ بحكم الله فى خزفٍ يقضى الطهور فإنى شاكر راضى

وهذا غريب من المعرى وهو من نعرف كفراناً بالشرائع وازدراء لشعائرها ، فلعله قال ذلك من باب التقية . أو لعلة قصد بالطَّهور مطلق النظافة .

موضوعات الكتاب

الصفحة

الإهداء ... ... ح

تقديم ... ... هـ

مقدمة الطبعة الفارسية ... ... ط

الباب الأول

الخيام

توطئة ٣

الترجمة ٤

التكرار ٨

تمحيص الرباعيات ١٠

اختلاط الرباعيات ١٤

تحريف الرباعيات ١٨

الرباعيات الجوّالة ٢٠

الرباعيات الموسومة ٢٢

الصفحة

مقارنة الرباعيات ٢٨
مناقشة الرباعيات المعتمدة ٣٠
عدد الرباعيات ٣٦
مدرسة الخيام ٤٠
شعره العربى ٤٢

عقليتـــه

الخيام العالم ٥٠
الخيام الفنان ٥٤

عقيـــدته ٥٦

الإلحاد الرياضى ٦٠
مقارنة بين زنديقين ٦٦
تناسخ الأرواح ٧١
إلحاد وتقية ٧٣

الصهباء والحسناء

الصهباء ٨٠
الحسناء ٨٦

كهانة وتنجيم ٩١

شخصيته ١٠٦

فلســـفته ١٢٠

فهرس الثورة ١٢٨

الباب الثانى

صوت الخيام

(الرباعيات)

الصفحة

١ — ثورة على المجتمع ١٥٥

٢ — ثورة على الدجالين ١٦٧

٣ — ثورة على الدين ١٧٥

٤ — ثورة على السماء ١٨٥

٥ — ثورة على الدهر والأفلاك ١٩٧

٦ — هل من منازل ؟ (ألغاز الوجود) ٢٠٣

٧ — ثورة على العقل ٢٠٩

٨ — الموت فى الميدان (فناء البقاء) ٢١٧

٩ — فشل الثورة (مآسى الحياة) ٢٣٣

١٠ — فرار الثائر (عدم الوجود) ٢٥١

١١ — فى المنفى ٢٥٩

ا — نخب الهموم ٢٦١

ب — نخب الموت ٢٦٦

جـ — شيوخ الحان ٢٧٨

د — نخب الزاهد الدجال ٢٨٠
هـ — نخب الهين ٢٨٢
و — الله كريم ٢٩١
ز — نخب العقل وألغاز الوجود ٢٩٣
ح — نخب اللحظة الحاضرة ٢٩٨
ط — نخب الحبيب ٣٠٧
ى — نخب الأنخاب ٣١٢
١٢ — ستار الختام ٣١٩
مقارنة بين تفكير الخيام والمعرى ٣٢٣

للمؤلف :

مجنونان (قصة)

مزاح وما أشبه (مجموعة أقاصيص)

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 076318763